

دراسات

(سياسية، اجتماعية، تاريخية، ثقافية)

مركز الفرات للدراسات

الإصدار الأول - تموز / ٢٠١٩

الفهرس

رقم الصفحة	عنوان الدراسة
٥	المقدمة
٧	أزمة سوريا والمنطقة... رؤى وخيارات
١٥	الكاوس كحالة اجتماعية
٢٧	كردستان الحمراء
٥١	العلاقات التركية العربية في ظل أزمات "الربيع العربي"
٧٣	الإدارات اللامركزية بين التاريخ والواقع الراهن
١٠٥	تركيا والأزمة السورية.. بين دعم التنظيمات المتطرفة وغزو الأراضي السورية
١٢٧	الثقافة الكردية بين الإحياء والإبادة خلال سنوات الأزمة السورية
١٤٧	سوسيولوجية الكرد ما بعد انتفاضة ١٢ آذار ٢٠٠٤
١٥٥	تنظيم داعش والوجهة المقبلة.. بعد هزائمه في سوريا والعراق
١٧٥	الربيع العربي ما بين الثورة والثورة المضادة
١٨٩	بعد هزيمة داعش... ما هي النتائج التي ستفرضها وقائع الأرض في الأزمة السورية؟
٢٠٧	عُقدة الباغوز
٢١٧	الكمومية.. العالم الاحتمالي.. وإشكاليته الوعي

تتم المراسلات باسم هيئة التحرير على البريد الإلكتروني: alfiratn@gmail.com

ولزيارة الموقع الإلكتروني للمركز: firatn.com

المقدمة

مراكز الدراسات والأبحاث لها عملٌ بالغ الأهمية في رسم ملامح القرارات لأي دولةٍ كانت؛ من خلال جملة من التوصيات المقدمة من قبلها، وتُضاعف مستوى الوعي لدى صانع القرار والمؤسسات والأفراد، وهي تحدد السلوك السياسي للدولة في المواقف المختلفة، فضلاً عن تحليل وتحديد السلوك السياسي للدول الأخرى، ونستطيع القول أن تقدم أي دولة يعتمد على عدد ونوعية مراكز الأبحاث الموجودة فيها، فحسب الإحصائيات في عام ٢٠١٥م، هناك ١٨٢٨ مركزاً بحثياً في الولايات المتحدة الأمريكية، و٤٢٦ في الصين، و٢٨٧ في بريطانيا، تقوم هذه المراكز بإجراء تقييم شامل للسياسات السابقة بهدف معرفة جوانب القوى فيها لتعزيزها، وعلاج جوانب الضعف والقصور فيها، كما أنها تطرح آراء وأفكاراً جديدة وتقتراح السياسات البديلة، وتدرس الآثار البعيدة المدى جراء اتخاذ سياسات معينة، سواء كانت هذه الآثار إيجابية أو سلبية.

يعتبر مركز الفرات للدراسات من المراكز الناشئة في شمال وشرق سوريا، ورغم بدايته المتواضعة استطاع أن يقدم دراسات مهمة تمس الجوانب السياسية للمنطقة؛ سواء أكان على مستوى سوريا عامة، وشمال شرقها خاصة، أو على المستوى الإقليمي والدولي، وتأثير كل ذلك على منطقة شمال وشرق سوريا، بالإضافة إلى دور المركز في تقديم التوصيات اللازمة لتطوير سياسة الإدارة الذاتية.

وانطلاقاً من رؤية المركز التي تهدف إلى نشر الوعي الفكري في المجتمع، والتركيز على نشر قيم الديمقراطية والتحرر الفكري، وتعميم قيم الحوار، ارتأت إدارة المركز نشر الدراسات والأبحاث التي قام بها خلال سنة؛ من فترة ما بين حزيران (يونيو) ٢٠١٨ م وحزيران (يونيو) ٢٠١٩م، والتي تتكون من أربعة عشر دراسة، على شكل كتاب، يحتوي على دراسات وأبحاث متنوعة، سياسية واجتماعية وفكرية وتاريخية وثقافية، ليكون بين أيدي القراء الأعضاء، أملين أن تكون هذه الدراسات لبنة في بناء الوعي.

مركز الفرات للدراسات

أزمة سوريا والمنطقة... رؤى وخيارات

مركز الفرات للدراسات - وحدة الدراسات

المقدمة:

تشهد منطقة الشرق الأوسط بشكل عام، وسوريا بشكل خاص حالة من التسارع العاصف، حيث بدأت الخطوات الأولية لإعادة صياغة المنطقة من جديد، لا سيما بعد اقتراب الانتهاء من "داعش" عسكرياً. تحولت سوريا إلى مركز الصراع المتمحور أساساً على الهيمنة وترسيخ النفوذ، فهذه الحرب بدأت باسم محاربة القوى الإرهابية، من "داعش" و"النصرة" والفصائل التي تدور في فلكهما، ولكن سرعان ما تحولت إلى صراع التموضع وتحصين المراكز والنفوذ. إن قرار انسحاب القوات الأمريكية من الشمال السوري أواخر العام المنصرم أدى إلى خلط العديد من الأوراق، وأوضح بشكل جلي مدى قوة أو هشاشة تموضع كل قوة مشاركة في هذا الصراع.

تداعيات قرار الانسحاب الأمريكي:

قرار الانسحاب كان مقتصرًا على الوجود الأمريكي في الشمال السوري، ولكن من يكون على دراية بمشاكل الشرق الأوسط وموقعها الجيوسياسي عالمياً سيدرك أن هذا الانسحاب لا يمكن أن يقتصر على الشمال السوري فحسب؛ بل ستكون بدايةً لانسحابها من الشرق الأوسط بأكمله، وما تصريحات حركة طالبان الأفغانية، وتهديدات فرقة النجباء العراقية بفتح جبهة حرب ساخنة أمام القوات الأمريكية في المنطقة، سوى دليل على صعوبة البقاء الأمريكي في المنطقة، إن انسحبت من الشمال السوري.

ماذا يعني انسحاب امريكا من المنطقة؟

- فقدانها الدور الريادي بين القوى المهيمنة عالمياً، لأن الهيمنة العالمية تمرّ عبر التحكم، وتوسيع النفوذ في الشرق الأوسط.
- تمهد لاندلاع حرب عالمية ثالثة؛ فالكثير من المعطيات تشير إلى نضج هذه الظروف.
- إضعاف حلفاء واشنطن، وخاصة إسرائيل، التي تمثل خلية قوى الهيمنة العالمية الوحيدة في المنطقة، وتهديد أمنها بكل معنى الكلمة، وعلى الأرجح سوف تواجه مرحلة جديدة لتدخل مرحلة الوجود وعدمه.
- سوف تواجه الكثير من الدول العربية، الكبيرة منها والصغيرة مرحلة حرجة، كما إسرائيل، خاصة المحور العربي الذي تقوده مصر والسعودية.
- الحظ الأوفر سيكون في هذه الحالة لإيران التي تنافس إسرائيل في صراع الهيمنة الإقليمية، عبر مشروع الهلال الشيعي؛ فأى فراغ يتشكل ستملؤه إيران على حساب الطرف المنسحب، وستحاول استكمال مشروعها القائم أساساً في الشرق الأوسط.

سيفتح هذا الواقع الطريق أمام تحالفات جديدة في المنطقة، فالدول المتضررة من النفوذ والتوسع الإيراني سوف تتخذ على الأرجح في جبهة واحدة، وتفتح طريقاً سالكاً في دبلوماسية ما قبل إعلان الحرب بشكل خاص بين المحور المناهض (مصر، الأردن، إسرائيل، دول الخليج، عدا قطر) فهذا التحالف يبقى لضمان بقاء دول هذا المحور، إضافة إلى أن جزءاً كبيراً من العرب يعيشون تغييراً ذهنياً عميقاً تجاه اليهود وإسرائيل؛ حيث بدأوا بقبول الوجود الإسرائيلي في المنطقة، ففي الوقت الحالي نلاحظ أنه ما من دولة عربية بإمكانها تجييش شعبها، وبث روح الحماس والعنفوان على أساس معاداة إسرائيل، كما السابق، فإذا كانت هناك علاقات سرية بين هذه الدول وإسرائيل، فاليوم لا يجدون أي حرج في إظهارها.

- من الملفت أن روسيا الاتحادية التي تصارع لتصبح قطب مهم في الهمينة العالمية، عبر تاريخها، وعلى الرغم من تدخلها المباشر، وحتى العسكري منها، في كثير من الدول، إلا أنها لم تحافظ على وجودٍ طويل فيها، واضطرت في نهاية المطاف أن تنسحب، وبخسارة منها. تتمتع روسيا الآن بعلاقات جيدة مع طهران ودمشق، ومؤخراً مع أنقرة، وتدخلت بشكل مباشر في الحرب إلى جانب الحكومة السورية وإيران، ولكن لا يمكن الادعاء بأن روسيا هي الراجحة في

الحالة السورية؛ فمصالحها تختلف عن مصالح إيران في سوريا، ولذلك فالانسحاب الأمريكي قد يؤثر سلباً على مصالح موسكو أيضاً، لأن إيران مترسخة أكثر منها في سوريا، حيث تربطها مع دمشق روابط إيديولوجية متغلغلة في تفاصيل الحكم، وتصبح في الكثير من الأحيان عائقاً أمام استقرار روسيا في سورية أكثر من الوجود الأمريكي فيها، لذا فالوجود الأمريكي كان ورقة ضاغطة بيد روسيا على إيران.

في حالة التريث والبقاء في الشرق الاوسط:

التخندق الحالي للنظام العالمي بقيادة أمريكا غير كافٍ لتسيير وفقها خططها في إعادة صياغة خريطة الشرق الأوسط الجديد، ولا بد أن تقوم بتوسيع نفوذها أكثر، وطبعاً بالضرورة توسيع النفوذ سيكون على حساب طرف آخر، ولتؤمن الحماية الكافية لأمن إسرائيل، لا بد لها أن تضغط بشكل كبير لتقليص نفوذ إيران، وإخراجها من مناطق نفوذها.

الخيارات التي تواجه إيران في هذه الحالة

- القبول بالعدول عن مشروعها التوسعي والبقاء ضمن حدودها المرسومة، سيبقى هذا الخيار أصعب الخيارات، لأنه سوف يؤدي إلى استفحال المشاكل، ويمكن أن يصل الأمر إلى تقسيمها، وما العقوبات التي تواجهها اليوم إلا مؤشرٌ لذلك.
- الإصرار في مشروعها التوسعي وحماية المناطق التي اكتسبتها (العراق ولبنان وسوريا واليمن) من خلال توتير بؤر الحروب خارج حدودها، وسيشكل هذا الخيار السبب الرئيسي لاندلاع حرب الهيمنة العالمية الثالثة.
- أن تدخل مرحلة تغيير النظام عن طريق حل مشاكلها الداخلية بالطرق الديمقراطية وعلى رأسها قضايا الشعوب (القضية الكردية، وقضايا شعوب الأهواز، والبلوش وغيرها) وهذا الاحتمال هو الأضعف تحقيقاً من الناحية العملية.

أين ستكون تركيا "العدالة والتنمية" من هذه التطورات:

مارست تركيا منذ الحرب العالمية الثانية منتصف القرن الماضي سياسة التوازن بين الأقطاب، ولكن ظهور حزب العدالة والتنمية على حلبة السياسة التركية غيّر الكثير من تقاليد الحكم المتعارف عليها، والمتعامل بها في تركيا منذ نشوء نظامها الجمهوري، حيث طمح إلى ريادة "رأس المال الإسلامي" أو ما سمي بـ "رأس المال الأخضر" ونقل "الكعبة" من مكة إلى إسطنبول، للتنافس مع السعودية على ريادة العالم الإسلامي السني، مما خلق تجرئة كبيرة في البنية السنية في الشرق الأوسط، حيث التفّ حول حزب "العدالة والتنمية" حثالة المذهب السني من المتطرفين وقوى الإرهاب، وعقد علاقات قوية مع كل من حماس، الإخوان المسلمين، القاعدة، ومؤخراً "داعش".

دخلت تركيا بقيادة "العدالة والتنمية" حلبة الصراع السوري محملة بالكثير من الأهداف، أولها بناء نظم عربية تحكمها الحركات الإسلامية الراديكالية المرتبطة بها بدءاً من تونس، ليبيا، مصر، فسوريا، ولكن هدفها هذا اصطدم بالواقع العربي المتغير، الطامح إلى الحرية، والعدالة، والمساواة من ناحية، ومن ناحية أخرى تحالف القوى العالمية لمحاربة هذا الإرهاب.

أحبطت أهداف "العدالة والتنمية" إلى حد بعيد، والآن لم يعد يملك الكثير من الطموحات في الحالة السورية غير إحباط المكاسب التي حققتها شعوب الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من المنطقة بزيادة الكرد، فالتطور الحاصل في هذا الجزء أدى بالحكومة التركية أن تفقد بوصلتها وتنتقل من مشروع "صفر مشاكل" إلى التيهور في المشاكل مع الجوار والعالم.

حافظت تركيا على سياسة التوازن بين القوى المهيمنة عالمياً (أمريكا، بريطانيا، إسرائيل) والقوى الإقليمية (إيران، تركيا، سوريا) ومارست سياسة "الحركات البهلوانية" إلى أن انحرفت عن نهج الدولة العلمانية، العضو في الناتو، إلى عقد الكثير من الصفقات والاتفاقيات مع روسيا.

الخيارات التي تواجه تركيا في هذه الظروف:

تعيش تركيا حالة من الضيق المرفق بالضغط لتختار الطريق الذي سوف تسلكه، والتأكيد على أن مساحة التوازن تلك قد أزيلت، وهذا ما يطرحه الكثيرون، فالسيناتور الأمريكي "كريس هولن" أوضح فكرته بقوله:

"على تركيا أن تختار ما بين (طائرات إف ٣٥) و(منظومة إس ٤٠٠) والواضح أن جميع الخيارات المطروحة أمامها صعبة للغاية، وهي كالتالي:

- رضوخ النظام التركي للحلف الذي كان جزءاً منه منذ عام ١٩٥٢ أي الوقوف إلى جانب القوى المهيمنة عالمياً، ولكن هذه القوى لديها ما تطلبه من تركيا حتى تسمح لها باستمرار العمل معها، وهي أولاً الإبقاء على مسافة في علاقاتها مع إيران وسوريا، وثانياً حل القضايا التي تنقل كاهل الدولة التركية ومنها قضايا الديمقراطية، وعلى رأسها القضية الكردية، التي هي السبب الرئيس في عقد هذا التحالف الإقليمي بين هذه الدول.
- البقاء في الحلف الإقليمي، فهي لا تريد لإيران ما جرى في العراق، وما يجري الآن في سوريا، لأنه إذا دخلت إيران مرحلة شبيهة بما عاشه العراق بدايات القرن الحالي، فالنتيجة على الأرجح ستكون لصالح الكرد والشعوب المضطهدة الذين يعيشون حالة من الإنكار والإقصاء جراء سياسة إيران القمعية المعادية لجميع الحقوق الطبيعية لشعوبها، ولكن بنفس الوقت فإن العلاقات القوية لأنقرة مع طهران تخلق القلق لإسرائيل، وبالتالي للنظام العالمي، ففي هذه الحالة سوف تُفَتَح لتركيا أبواب الجحيم الذي ضرب أفغانستان، باكستان، العراق، وأخيراً سوريا، لتتحول إلى ساحة حرب، وإن أضفنا إلى هذه الأوضاع الحالة الاقتصادية المتدهورة في الفترة الأخيرة، يظهر ما تنتظره تركيا بشكل أكثر وضوحاً.

الكرد والخيارات المطروحة:

أدى التعريف الخاطئ لقضيتين أساسيتين في الشرق الأوسط إلى أن يكون القرنين الأخيرين الأكثر دموية، وهي القضية الكردية كشعب يعيش على أرضه التاريخية، وقضية الشعب اليهودي كأحد مكونات نسيج الشرق الأوسط الأصيلة، والملفت للنظر، وبدخولنا الألفية الجديدة، فقد طرأ الكثير من التغيير على التعريفات والمفاهيم، ومن ضمنها القناعة لدى الكثير من شعوب الشرق الأوسط وخاصة الحلف السعودي، والتي كانت تدعي أن الإقرار بحق تقرير المصير للشعب الكردي سيتسبب في تغير خارطة ١٢ دولة في المنطقة، أما الآن فقد توصلوا لقناعة مفادها: إيجاد حل عادل للقضيتين. هذا ما تؤكد الظروف الحالية التي تمر بها المنطقة؛ فحل هاتين القضيتين سيكون بالضرورة لصالح التحالف السعودي. قرار الانسحاب الأمريكي خلق ارتباك واضح بين الكرد، الذين ناضلوا، وضحووا للتخلص من الإرهاب

العالمي، وعند مقارنة القوة التي يملكها الكرد مع القوى التي تحاربهم من دول المنطقة وعلى رأسها تركيا، فيظهر للعيان بأنها أضعف حلقة في صراع الجبابرة هذا، ولكن الحقيقة تشير إلى أن وجود الكرد موزعين بين أربعة دول في جغرافيا استراتيجية من ناحية، وكذلك تضارب المصالح فيما بين القوى الإقليمية والعالمية من ناحية أخرى، إضافة إلى تيقظه الوطني، ومستوى التنظيم الذي يعيشه، يؤكد أن موقع الكرد الجيوسياسي قوي للغاية في المعادلة، وبالتالي فسوف يشكلون قوة كبيرة بإمكانها تغيير ملامح المنطقة. لأول مرة في تاريخ الكرد تتداول قضيتهم وتأخذ بعداً عالمياً لهذه الدرجة؛ وقد أصبحت على طاولة كل النقاشات، إن كانت سلباً أو إيجاباً في المحافل الرسمية، وغير الرسمية. الواضح في معمعان هذه المتغيرات أن الكرد سيحافظون على مكانتهم كبيضة قبان في التوازنات الإقليمية والدولية، وسيحدد الطرف الرابع في نهاية المطاف.

الخيارات التي يمكن للكرد وشعوب الشمال والشمال الشرقي لسوريا أن تتبعها:

- البقاء في التحالف المتشكل ضد داعش، والعمل على طرح الحل السياسي والدستوري لقضية المناطق المحررة.
- عقد علاقات مع كل من إسرائيل والمحور السعودي.
- اعتبار خيار العلاقة مع الدولة السورية "لا مفر منه" يمكن أن يأتي ببعض المغالطات، فالصحيح هو أنه الخيار الأنسب في حال توجهت الدولة إلى كتابة دستور ديمقراطي يعترف فيه بحقوق الشعوب، ومن ضمنها مناطق الشمال والشمال الشرقي
- النظر إلى روسيا الاتحادية كأى دولة من الدول المهيبة عالمياً، وهي دولة رأسمالية مثلها كمثل أي دولة أخرى، ولم تسجل لها أية مواقف إيجابية تذكر تجاه الكرد في تاريخها القديم والحديث، والآن تقود حلفاً قد جمعهم معاداة الكرد، ولذلك فعند التعامل معها يجب ألا نعزز الطرف عن جانبها هذا، ولكن بالحصله سيكون التعامل مع موسكو من الخيارات المتاحة لإيجاد الحل الأنسب.

ما الذي تتطلبه المرحلة من الكرد داخلياً؟

- الاستفادة من الوقت الإضافي بشكل جيد، والقيام بالتحضيرات لخوض معركة انتخابية حقيقية، وتشكيل هيكلية فعالة، تعتبر حكومة المناطق المحررة، لكي تسنح للدول إمكانية الاعتراف بها رسمياً، مع الحفاظ على المبادئ التي بُنيت عليها هذه المؤسسات.
- يجب تفعيل نظام الكاتونات، ومؤسسات الإدارة الذاتية في الأقاليم، من مجلسها التشريعي إلى التنفيذي، إلى حين تشكيل هذه الحكومة؛ لأن هذه المؤسسات غير فعالة.
- إزالة كل النظم الموازية للإدارة، أي يجب أن تسير الأعمال والأمور بنظام واحد، وليست بعدة أنظمة.
- دخول مرحلة التسامح، والتلاقي في المشتركات؛ للوصول إلى إعطاء فرصة المشاركة لكل التوجهات السياسية المختلفة، ورض الصفوف؛ فهي حاجة ملحة في هذا الوقت.

النتيجة:

ما زال هناك جدل واسع حول انسحاب القوات الأمريكية، وعدمه، من الشمال السوري، لكن الوضع في كلا الحالتين سيكون لصالح المناطق المحررة، ففي حالة الانسحاب فإن أكثر المتضررين حسب المعطيات التي ذكرت آنفاً هي تركيا، فهي الصديقة العدو لأمريكا في المنطقة، وقد ذهبت إلى حد اللاعودة في حلفها مع روسيا وإيران، فموسكو أعطت الضوء الأخضر لدخول تركيا إلى سوريا بهدف تضييق وتقليص مناطق نفوذ أمريكا، طبقاً لمصالحهما، إذا فحجة إعطاء تركيا هذا الدور هو الوجود الأمريكي بحد ذاته، وإذا أزيل هذا السبب فلن يكون هناك حاجة لروسيا لتفتح المجال لدخول تركيا، فشرق الفرات هو العمود الفقري للدولة السورية من حيث غنى مواردها.

وفي حالة التريث، والتأني في الانسحاب، أيضاً يصعب على تركيا أن تقوم بالتدخل من دون التنسيق مع قوات التحالف، وإعطاءها الفرصة لكي تحارب القوى التي تعتبرها أنقرة إرهابية (قوات سوريا الديمقراطية، ووحدات حماية الشعب)، وإن حدث ذلك فإن أمريكا ستكون، منذ أكثر من أربعة أعوام قد تعاملت مع قوى الإرهاب، وهذا ما لا تقبل به الولايات المتحدة.

من الواضح أن الإعلان عن الانسحاب دفع إلى تداول قضية مناطق شمال وشمالي شرقي سوريا، أكثر من أي وقت مضى، وهذا مؤشر جيد لإيجاد حل نهائي لهذه القضية.

الكاوس كحالة اجتماعية

جنار صالح - باحثة في مركز الفرات للدراسات

مقدمة

زامن جيلنا مرحلة عصبية جداً، حيث يصفها البعض على أنّها مرحلة انتقالية، والبعض الآخر ينعته بغير العادية كما يسميها هوفمان، وآخرون يصفونها بالكاوس، حيث البحث عن النظام والاستقرار في اللااستقرار واللاانظام، والأغلبية الساحقة يُطلقون عليها تسمية من قبيل الفوضى (الفوضى الخلاقة، الفوضى العارمة، أو الفوضى البيئية). إذا ما هي نوعية هذه الفوضى؟ وما هي أسبابها؟ وهل من أمثلة تاريخية مشابهة؟ وكيف تتحوّل نتائج الكاوس إلى أسباب بروز تحديات مستعصية؟ كيف يحدث فقدان القيم الاخلاقية في مرحلة الكاوس ليتحول إلى الصفة البارزة لهذه المرحلة؟ ما الاحتمالات التي يمكن أن تتبلور في مثل هذه الظروف؟ وكيف يمكن للإنسانية التملّص من الكاوس إلى بر الأمان بأقلّ الخسائر؟

طبعاً ولكي يسمح لنا إجراء تعريف دقيق لهذه الحالة وبالتالي لهذه المرحلة، والتي يدور حولها الكثير من الجدل والنقاشات، وإدراكها سيكون بداية التنصّل منها، لا بدّ من البحث أولاً عن مفهوم ومعنى الكاوس.

تعريف الكاوس

الكاوس: مصطلح استخدمه الإغريق القدامى بمعنى، الفراغ، الظلام الدامس، العمى، وفي اللغة الفرنسية يأتي بمعنى على حافة الهاوية¹.

¹ وكيبديا - كاوس (ميثولوجيا)

أما المتداول العام والشائع لهذه الحالة فيُنعت بالفوضى، ولكن وبسبب استعمال مصطلح الفوضى بشكل واسع، يؤدي بنا إلى الكثير من المغالطات والتشويش على فهمنا للمرحلة، فمثلا المدرسة تعيش حالة الفوضى عندما يغيب عنها طاقمها الإداري، والمدينة تكون في حالة الفوضى عندما تغيب عنها مؤسساتها الإدارية، ولكن الفوضى أو الكاوس الذي نحن بصددده ليس بمماثل لهذه الأمثلة التي أوردناها.

استعمل الكاوس بمعنى الفراغ في اللغة الإغريقية القديمة، وقد سُمّي الإغريق القدامى اسم الرية بالكاوس؛ أي كان لديهم “الرية كاوس” لقناعتهم أنّ الفراغ خلاق، وكلّ شيء يأتي أو يُخلق من الفراغ الذي هو المادة التي لا شكل لها. إنّ قرينة الوجود – الفراغ بإمكانها أن تكون أكثر توضيحاً في هذه الحالة، حيث لا وجود دائم، لا فراغ دائم، إنّهما على علاقة عكسية، ولكنهما متلازمان بذات الوقت، ينتهي الفراغ حيث يبدأ الوجود، وقد سمّيت في فيزياء الكوانتم هذه اللحظة بلحظات كوانتوم، بمعنى لحظات الخلق.

هل للمجتمعات قابلية تحمّل حالة الفراغ؟ الفراغ من ماذا؟ وأي نوع من الفراغ المقصود هنا؟

يعتبر الكاوس من الناحية الاجتماعية محور هذا البحث، وقد كتب عنها الكثيرون، وهذه الدراسة تركز على عدّة جوانب في هذا الموضوع.

أسباب ظهور الكاوس

بداية لا بدّ أن نبحث عن أسباب ظهور الكاوس في عالمنا، حيث وضع سببين رئيسين لهذه الحالة:

١. الأزمة البنوية.

٢. الدوغماتيات الدينية.

إنّ النظام العالمي ومنذ نشوؤه في القرن السادس عشر وإلى اليوم لم يخلُ من حالات الأزمة، ولأزماته عدّة أنواع؛ الأزمات الدورية: وهي أزمات مرحلية مؤقتة والطابع الأساسي لهذه الأزمة أنّ النظام وعن طريق بعض الإصلاحات أو الترفيعات والترميمات بإمكانه أن يتجاوزها.

الأزمة البنوية: وهي التي تهمّنا في هذه الدراسة، والتي يسمّيها البعض بالأزمة طويلة الأمد. إنّ طابع هذه الأزمة هي أنّ تجاوزها غير ممكن أو حتى مستحيل، لا الإصلاحات ولا الترميمات مجدية. للنظم ككل شيء عمر محدّد، حيث يبدأ بمرحلة النشوء أو ما يسمّى بمرحلة الطفولة إلى مرحلة الازدهار والتوسّع؛ أي مرحلة النضج إلى مرحلة الأزمة ومن ثم الانحدار والتبعثر.

بدأت هذه الأزمة منذ عام ١٩٧٠م ومستمرّة ومازالت تتعاظم من دون إيجاد أيّ مخرج لها، سمّيت هذه الأزمة بالبنوية، لأنّها أزمة شاملة في جميع مناحي الحياة.

أزمة النظام من الناحية السياسيّة

اعتمد النظام العالمي القائم في انتشاره - ليصبح نظاماً عالمياً - على أساس تكثير وإكثار الدول القومية والأحزاب الكلاسيكية؛ التي هي نموذج مصغّر عن هذه الدول بهيكليتها ونظامها، والآن تعاني الدول القومية والأحزاب الكلاسيكيّة أزمات خانقة؛ ففقدت من خلالها جاذبيتها، حيث كانت في بداية نشوئها تمثّل آمال الشعوب في الحرية والعدالة أو هكذا كانت تعرّف ذاتها، ولكن ومع مرور الوقت بدا بأنّها هي المشكلة بحدّ ذاتها، ولا تحمل لشعوبها طموحاتهم في بناء حياة كريمة؛ مما أدى لظهور ردّات فعل عنيفة وضغوطات من الداخل لتجاوزها والعمل على انخيارها، وخير مثال على ذلك ما بدأ في العراق ٢٠٠٣ حيث شبّه المفكّر أوجلان حالة ما آل إليه وضع العراق بشكل عام ورئيسها بشكل خاص بوضع فرنسا في عهد لويس السادس عشر، وقال في هذا الخصوص (هل تعلم أميركا أنّها وبقتلها لصدّام حسين قد وضعت نهاية للدولة القومية، كما أعلنوا بداية نشوئها بقتل لويس السادس عشر)^٢. ومن الخارج أيضا تعيش الدولة القومية ضغوطات جمّة، والسبب طبعاً أنّها أصبحت عائقاً أمام سيلان رأس المال التي تصطدم بالحدود وبيروقراطيات هذه الدول، ولذلك فقد وضع هذا النظام العالمي على أجدناته إسقاطها. إذ باتت باني الدولة القومية يحاول

^٢ مانيفستو الحضارة الديمقراطية - عبد الله أوجلان - المجلد الرابع: التاريخ الكوني والشرق الأوسط - ص ٥٢

هدمها أيضاً، ولكن بالفعل انهارت وتنهار الدولة القومية، ولم تعد بإمكانها تجييش شعوبها عن طريق شعاراتها الزائفة، ولكن ما هو البديل لها؟ هذا هو غير الواضح وأحد أسباب الكاوس.

أزمة النظام من الناحية الاجتماعية

إنّ هذا النظام خلق أزمة خانقة من الناحية الاجتماعية أيضاً، حيث رسّخ نفسه أساساً على خلق وبناء فرد أناني، نهم، غايته في الحياة الركض وراء الربح الأعظمي، وقد خدمته في ذلك المناهج وعن طريق المناهج التدريسيّة، مما أدّى إلى ضرب وتفكيك المجتمعات، وخلق شعوب كالنمل كما وصفها نيتشه، فحتى مؤسسة العائلة التي هي في الأساس لبنة هذا النظام، والمبنية على أساس ذكوري، وهي بالتالي نموذج مصغّر من النظام الذكوري ككلّ، وتعاني من أزمة جديدة، وتواجه الاندثار والتبعثر بشكلها الكلاسيكيّ، ولذلك فكثرة ظاهرة الطلاق ما هي إلا دليل أزمة هذا النوع من العائلة، وتوجد ميول واضحة لدى الأجيال الصاعدة بتجاوز هذه المؤسسة بشكلها التقليديّ، والتي لها تاريخ طويل، وبالتالي تجاوز هذه الأزمة أيضاً صعب للغاية.

الأزمة البيئية

إنّ الأزمة البيئية هي أيضاً إحدى الأزمات التي ليس من الممكن تجاوزها، السبب الرئيس لهذه الأزمة هو أنّ النظام العالمي تعامل مع البيئة بذهنية التشيؤ أو بمنطق المفعول به، وحاول جاهداً الحصول على كيفية تحكّم الإنسان (الفرد الأناني النهم أو الذات العاقلة) بالطبيعة والبيئة المحيطة به، مما أدى إلى خلق انقطاع كامل بين الإنسان وبيئته، إضافة إلى التلوّث وظاهرة الاحتباس الحراريّ الناتجة عن هذا التلوّث، والتي بدأت تهدّد حياة الإنسان، ومثّلوا هذا النظام يعقدون الكثير من القمم المناخية، ولكن دون جدوى، لأنهم لا يتجرؤون على اتخاذ قرارات صارمة، كوضع الشمع الأحمر على العديد من المعامل أو المفاعلات النووية التي تسبّب هذا التلوّث.

وإضافة إلى الكثافة السكانية التي لا حلّ لها والتي تتعاظم كالتيهور وبشكل مخيف، والتي نتجت بالأساس لبحث النظام العالمي عن الأيدي العاملة الرخيصة، فهذا النظام اعتمد في نشوئه وتطوّره على السينات الثلاث (س/س) (Sex/سكس، Sport/سبورت، Sing/سينغ)، فمثلاً تُشير الإحصائيات أنّ نسبة

الولادات الناتجة عن العلاقات الخارجة عن إطار الزواج الرسمي في ألمانيا هي ٦٠%٣، وقد أثبتت الكثير من البحوث أنّ كلّ مائة ألف عام كان يزداد عدد سكان الأرض مليار نسمة، ولكن توجد إحصائيات تؤكد أنّ عدد سكان كوكبنا منذ ظهور هاموسايبانوس وإلى ١٩٥٠م، كانت ٢,٦ مليارات نسمة^٤ ومن ١٩٥٠ وإلى اليوم أصبح عدد سكان كوكبنا تقريبا ٨ مليارات نسمة؛ أي خلال ستين عاماً فقط ازداد ضعف الكثافة السكانية.

وإذا أخذنا بالحسبان الأزمة الاقتصادية الجائحة، وحتى العلم صار في أزمة خانقة، حيث كان هدف العلم - حتى ما قبل هذا النظام - رقي المجتمعات، خدمتها، وحلّ مشاكلها وتطويرها، ولكن في عهد النظام الرأسمالي احتكره النظام لمصالحه، تحت شعار (من ملك العلم ملك القوة)، وبذلك بدل أن يكون العلم حلالاً للمشاكل أصبح خلّافاً للمشاكل، ويستخدم للتسلّح أكثر من أيّ شيء آخر. تُشير هذه الدلالات إلى مدى فحولة وتعمق الأزمة التي سميت بالأزمة البنوية.

مدلولات الكاوس من الناحية الحياتية والعملية

إنّ اختيار الدولة القومية ابتداءً من العراق لها دلالات كثيرة؛ حيث إنّ العراق لا يُشبه أفغانستان أو باكستان أو أية دولة أخرى، العراق هو الرحم والجذر والنبع الأمّ للدين والدولة، فهذا النظام بدأ من العراق كأفعى صغيرة وتعاضمت إلى أن أصبح نظاماً عالمياً، واليوم وقد وصلت رأس الأفعى لتأكل من ذيلها وتنتهي ذاتها على صحرة العراق، حيث منبعه الأمّ. شعب العراق هو أكثر الشعوب التي عاشت الدولة بكلّ تفاصيلها، من (الدولة السومرية إلى الأكادية، فالبابلية إلى الآشورية إلى الدولة المنارشية العباسية فالدولة الحديثة) إلى أن فقدت الثقة كاملة بالدولة ومؤسساتها، وبالتالي تحطّمت كلّ القيم المتمحورة حولها في ذهنية العراقيين.

إنّ ما فعلته أمريكا بتدخلها في العراق أزاح ذاك الرماد من على النار المتأجّجة في داخلهم، ليتوضّح مدى فقدانهم لهذه القيم، لأنّ ما تمخّض عن مداخلة أمريكا أنّها لم تغيّر حكومة صدام حسين فقط، بل ساهمت في اختيار الدولة بكاملها، وكأنّها كانت على غور سحيق، فدولة العراق في العشر سنوات الأخيرة من عهد صدام كانت قد بدأت النخر في عظامها، فالدولة التي تربّعت على عرش الذهنية البشرية منذ آلاف السنين

^٣ DW: ألمانيا تسجل أكبر عدد لأطفال مولودين خارج نطاق الزواج

^٤ UN: السكان

كظلّ الله مقدسة، ومن يكون جزءاً من هذه الهيكلية المقدسة اللاهوتية أكثر من أن تكون علمية، والقدااسة صفة لاهوتية، من رئيس الدولة إلى أبسط موظف كانوا يتمتعون بالقدااسة نفسها، وقد بدأت بالفقدان والاضمحلال.

أبرز مثال على ذلك (هو أنّه إن دخل شرطيّ إلى أيّ مكان، كان له كلمته، والناس تحاطبه بكلمة سيّدي، ولم يكن يحسّون بأيّ نقص من قيمتهم أو الشعور بأنهم عبيد، والسبب أنّه كان يمثّل جزءاً من قدااسة الدولة وليس فقط خوفهم من جيروتحا، ولكن اليوم - بالرغم من أنّ الدول تملك أسلحة ومعدات أكثر جيروتا من السابق - فحتى أنّ طفلاً صغيراً بات لا ينزل إلى مستوى خطبة ممثلي النظام بذلك الأسلوب، والسبب الرئيس هو اضمحلال مفهوم القدسية والقيم المتمحورة حولها، فلذّة السلطة وصلت إلى عهد صدام في فترة النصف الأول من حكمه، فملايين الناس كانوا يخرجون إلى الشوارع ليهتفوا باسمه.

كذلك كلّ الأباطرة والملوك، ففي كثير من الأحيان كان أحد الأباطرة مريضاً نفسياً عدا النخبة القليلة التي كان بإمكانها أن تفكّر بشكل مستقلّ، فباقي الشعب لم يستطع أن يفكّر أن إمبراطورهم مجنون، وكان يخرجون ليقولوا له: عاش الإمبراطور! والسبب وجود هالة القدسية التي كانت عائقاً أمام التحقّق والشكّ، لذلك فالموضوع لم يكن متعلّقاً بشخص صدام، بل كانت مرحلة، وهي ليست بقصيرة، حيث كان كلّ جزء من الهيكلية المقدسة مقدّساً، فما بالك برأس الهرم.

قبل أن تنهار الدولة بالجمل والدولة القومية بشكل خاص، فقد بدأ انحيارها في ذهنية ودماع الناس، حين فقدت ألوهيتها، ولم يعد للرّتب والصلاحيات والامتيازات أية قيمة تذكر، فالنّظم تُبنى وتُفنى بداية في الأذهان، لذا فالعراق يمثّل مركز الكاوس في الشرق الأوسط. لماذا لم تتساءل يوماً عن سبب ليلة سقوط بغداد، وعن عدم مقاومة الشعب العراقيّ، كيف لنا أن نفسر ذلك؟ هل يجوز أن نربطها بعدم النخوة، وأهل العراق معروفون بتمرّدهم وعدم قبولهم للمحتلّين؟ ولكن متى يقاوم شعب ما؟ يقاومون حين يرون أنّ قيمهم التي ينظّمون بها حياتهم ويننون عليها خيالاًهم ويأخذون من خيالهم قوة معنوياتهم، في خطر وأثماً تُهاجم، فالعراقيون لم يكونوا مستعدّين بأن يقاوموا لأجل صدام حسين، الذي هو في الأساس منتهي الصلاحية في أذهانهم، وأيضاً لأجل الدولة التي لم تُعدّتهم والتي كانوا قد خبروا الكثير من أشكالها دون جدوى، إذاً لم يكن أهل العراق يملكون القيم التي تحفّزهم للمقاومة. لقد اُثارت جميع القيم المتمحورة حول الدولة والدين ولم يتبلور البديل.

إذاً الكاوس هو الفراغ المتشكل نتيجة انهيار وتحطّم القيم القديمة، وعدم تبلور قيم جديدة. إذاً هل بإمكان الكاوس أن يقضي على أحد الشعوب على سبيل المثال؟ ولمّ لا؟ حالة الكاوس خطيرة بالفعل، لأنّ الشعوب تكون في هذه الحالة عُرضة للكثير من التحديات، وأقرب مثال هو العراق حالياً، فبالرغم من دخول أمريكا العراق بجيشها الجزائر، لكنّها لم تستطع النصر فيها، والحكومة التي كانت قد حصرتها أمريكا لم تستطع التربّع على عرش العراق، ومازال العراق يتخبّط، والسبب هو عدم رضاهم وقبولهم بالموجود، والأهمّ هو عدم امتلاكهم البديل الناجع، هنا لا نقصد الأشخاص بل النظام البديل، إذاً والحال هذه، إلى أين سيّتجه العراق فعلاً، أو اليمن أو حتى العرب بالمجمل؟ فهم أكثر شعوب المنطقة عيشاً في فوضى مناحي الحياة.

ربما تكون كلمة الانقراض غير صحيحة ونحن في القرن الحادي والعشرين، ولكن يجب أن لا ننسى أنّنا في القرن الحادي والعشرين رأينا الحفاة وأصحاب اللحي من أمثال داعش وأخواتها. لم يكن متوقّعاً، ولكنهم ظهروا! إذاً في الكاوس كلّ شيء وارد.

أمثلة على حقب الكاوس

الآن لنأتي بأمثلة من التاريخ، وذلك كي تتوضح الفكرة أكثر، وسنأخذ أيام إبراهيم الخليل مثلاً، حيث كان يعبد الأصنام والناس كانوا يملكون القناعة التامة بأنّ هذا الصنم هو إلههم الذي كانوا يصفونه بكلّ ما يتمنّونه لأنفسهم في الحياة، حيث يقولون إنّنا نستمطره، فيمطرنا. إنّهُ إلهنا، إله الخير والبركة والخصوبة و... إلخ وما إلى ذلك من تمنياتهم، ولكن ومع مرور الوقت بدأت الشكوك تغمرهم حول حقيقة هذا الذي يعبدونه، ومتى بدأ الشكّ يصدّع الحقيقة المطلقة، إلى أن وصل بهم الأمر إلى حالة فقدان كلّ القيم المتمحورة حول ذلك الصنم (الدين)، حيث إنّ كتب التاريخ تروي أنّ الكثير من الذين كانوا يبنون آلهتهم من التمر يلتهمونها في حالة الجوع، إضافة إلى أنّ المعبد الذي يأوي الإله والذي كان يوماً من الأيام أفخر وأعظم مكان، تحوّل مع مرور الزمن إلى مكان يغمره الإهمال، ولم يعد يزوره الذين كانوا في السابق يتمنون بركته، لقد فقد المعبد هيئته وقديسيته في أذهانهم، وبالتالي فقد الناس الرادع، فذاك الإله كان رادعاً لهم، والملاحظ أنّ فطنة إبراهيم الخليل كانت في قراءته الدقيقة لأذهان أقرانه، وعلم جيداً أنّ هؤلاء القوم لا يستطيعون أن يستمروا بالقيم المتحطّمة تلك، وبدأ مشواره بتحطيم الأصنام والإعلان عن إله غير مرئي وغير ملموس، له صفات مغايرة، وبذلك خلق للإنسانية قيم جديدة متمحورة حول الإله الجديد، يتربّع على عرش السماوات، ولذلك يسمون دعوة إبراهيم الخليل بانطلاقة إبراهيم الخليل؛ لأنّه انطلق من حالة الفوضى إلى حالة تحكّمها قيم جديدة،

مما أدى الى نوع من الاستقرار والطمأنينة، واستمرّ هذا الوضع إلى مطلع الألفية الجديدة، حيث بدأ الإنسان يشكك في مفهوم القدسية والتقدّيس مرة أخرى.

أما حكاية قوم لوط التي تدّعي الأديان التوحيدية أنّ الله لعن هؤلاء القوم وانقرضوا، ويضعون السبب الأساسي بإفراطهم وانغماسهم في اللاأخلاقيات، سوف نفهم مما كتب أنّهم القوم الذين أصروا و تعاندوا على الاستمرار بتنظيم حياتهم على أساس تلك القيم التي كانت منتهية الصلاحية ومهترئة في أذهانهم، وقد انتهى دورها في أن تكون الرادع الأخلاقي للإنسان، وبإمكاننا أن نعتهم بأنهم كانوا قرايبن للفوضى المعاشة حينذاك.

المثال الآخر الذي فيه وجه التشابه مع الحالة التي نعيشها هو الذي تبلور بعد ثورة التنوير والإصلاح الفلسفي في أوروبا، والتي كانت بنفس الوقت مرحلة ظهور المنهاج العلمي الذي قام بريادته رينه ديكارت وفرانسيس بيكون وروجر بيكون، وتحت اسم العلم هاجموا كافة قيم الشعوب، مما أدى إلى القضاء على القيم القديمة وعدم تبلور قيم جديدة.

والمثال الأخير، بإمكاننا أن نستقيه من الصين وتحت اسم الثورة الثقافية التي قام بها الحزب الشيوعي الصيني، قضوا فيه على كلّ القيم التاوية، ولم يخلقوا قيم جديدة، وإلى اليوم تشتكي الصين من هذه المشكلة.

فقدان القيم الاخلاقية الصفة البارزة للكاوس

قيمتنا كانت متمحورة خلال الخمسة آلاف السنة الأخيرة حول الدين والدولة، واللذان هما بالأساس من نفس الرحم، فالدولة كما الدين وجود لاهوتي وبنائهما هم من رجال الدين؛ أي الرهبان، وقد تحطّم كلاهما في ذهن المجتمع وعلى صحرة العراق، وهذا هو المقصد من أنّ الدوغماتيات الدينية أحد أسباب الكاوس، وخاصة في الشرق الاوسط، والتي بدأت مع منع الإمام الغزالي للنقاش واغلاق باب الاجتهاد، حتى وصل إلى يومنا بأنّه لم يعد بإمكان المرء حتى أن يسأل ذاته سؤالاً عن الدين وعن الله، وأصبح الإنسان يخاف ذاته، فكلّما أصبح الشيء قاسياً وابتعد عن المرونة والنقاشات الحرّة تصير قابلية تحطّمه أسهل ووارداً أكثر، وهذا ما حصل في موضوع الدين، حيث لم يعد رادعاً للمنكر بين نسبة لا يُستهان بها من الناس.

هل الخوف من الله والطمع بالجنة هما الرادع للمرء في وقتنا الراهن؟ من الملاحظ في هذه المرحلة أنّ التشكيك في كلّ القيم والتعاليم الدينية أكثر من أيّ وقت مضى! حيث يرى المرء في نفسه القوة كي يناقش كلّ شيء في هذا المجال ودون أيّ تحفظ. أليس ارتفاع نسبة الإلحاد والملحدين خاصة في بعض الدول العربية التي هي كعبة الدين - كالسعودية مثلاً - مؤشّر على بدء التحقّق والشك بالدين والشريعة؟

باختصار هذه هي الفوضى أو الكاوس الذي كثر عنها الحديث، حيث تحطم وانهارت القيم القديمة وعدم تبلور قيم وعادات وأعراف جديدة.

القيم هي التي تعطي للحياة المعنى والجازبية وقوة الخيال المستقبلي، وتحديد معالم الغد المنتظر، ومن الملاحظ بأنّ الناس يشكون من عدم وجود طعم للحياة بالرغم من إيجاد الكثير من الوسائل التي تسهّل الحياة، ويحثون عن طعم وذوق الحياة فلا يجدونها إلا في الذكريات، ألا يحسّ المرء أنّه يعيش في حالة من الجهول؟ وفي بعض الأحيان يحسّ وكأنّه في الطوفان، وليس باستطاعته أن يعلم ما سيجري حتى في المستقبل القريب، ويعاني الكثيرون من ضعف قوة الخيال وبالتالي الضعف في الجانب المعنوي، لأنّ الخيال يُبنى بالضرورة على القيم التي يؤمن بها، والأنكى من كلّ ذلك هو الإحساس بفقدان الأخلاق والقيم الأخلاقية وهي الصفة البارزة للكاوس، فمثلاً أتذكر أنّه في أعوام التسعينات كانت في هذه المنطقة ثقافة جمع التبرعات للحركات المناضلة من بين الشعب، ومن هذه التبرعات كثيراً ما كانت يجمع من الذهب وبمختلف أنواعه من الأحجام الكبيرة وإلى الصغيرة منها، ويتم وضعها عند أية عائلة دون الشك أبداً أنّهم يمكن أن يفتحوا ذاك الكيس، ولكن الآن من يأتمن وضع مبلغ من المال عند العائلة نفسها، فأضعف الإيمان سوف يقول في نفسه: لماذا يبقى هذا المبلغ هكذا سوف استثماره إلى أن يُطلب مني، فهو يتجرأ أن يستثمرها دون علم صاحبها، لماذا؟ لأنّ القيم التي يؤمن بها الفرد تكون هي الرادع الأخلاقي والضابط له، حيث الحرام والعيب كان له تأثير واضح على الحياة الاجتماعية للإنسان، أما إذا فقد المرء القيم الرادعة فلا يبقى رادع أخلاقي أيضاً.

أليس بإمكاننا أن نربط كثرة ظهور الحركات المتطرّفة في هذه المرحلة بهذه الحالة؟ ألا يمكننا أن نربط ظهور داعش وأمثالهم بأزمة النظام وحالة الكاوس التي خلقتها؟ حتى المهجرة التي عاشها الناس في الفترات الأخيرة سببها الكاوس، وعندما كان يُسأل لماذا المخاطرة في البحار؟ كان الجواب أنّي ميت وما يهمني إن متّ غرقاً

في البحر، لماذا كان يشعر بأنه ميت؟ لأنّ فاقد القيم لا يحسّ بطعم الحياة، ولأنّ ما يُشعرنا بنشوة الحياة هي القيم التي نؤمن بها ونعيش لها.

خاتمة

يمكن لأحدهم أن يسأل وما الضير من تحطيم هذه القيم البالية التي كانت متمحورة أساساً حول تعظيم وتقديس السلطة والصلاحيات وإزالة التقديس عن الدين والدولة، ويمكن أن تكون فرصة سانحة لظهور نظم أكثر اعتدالاً وأقرب إلى طبيعة الإنسان ككائن اجتماعي يطمح إلى الحرية والمساواة، وبالفعل فبقدر المخاطر والمهالك التي يحملها الكاوس لنا، بنفس الوقت فهي مرحلة مثمرة أكثر من أيّ وقت مضى، وهي شبيهة بحالة الرشيم، أي حالة ما قبل الخلق، حيث تقدّم فرصة وأرضية مناسبة لانبعث منهاج جديدة تعيد للحياة معناها ورونقها، وخلق قيم جديدة متمحورة حول الفلسفة الأخلاقية، ولكن بشرط أن تكون لهذه المرحلة قوى ريادية، لها الجهوية الكاملة، وقد قامت بتحليل صائب، وتمتلك توجّهات صحيحة لتجاوز هذه الحالة والانطلاق من الكاوس أو الفوضى، فالنصر سيكون حليف القوى التي تملك البديل من جميع النواحي.

هذه مراحل تحمل بين طياتها الكثير من الاحتمالات، والواضح أنّه وفي مثل هذه الأوقات، فإنّ الاحتمال الأنسب سيكون القيام بثورات عظيمة، حيث أنّ ظروف قيام الثورات كانت سانحة دائماً تحت ظلّ الأنظمة الاستبدادية من آلاف السنين؛ لأنّ حجج قيام الثورات هي عدمية العدالة والمساواة والاستغلال والنهب، وهذا ما كان موجوداً وبوفرة، ولكن ظروف انتصار الثورات لا تظهر دائماً، وحالة الكاوس هذه فرصة عظيمة لانتصار الثورات، حيث أنّ مصالح القوى العالمية والمهيمنة في تضارب، ولم تلد فرصة المساومة والوفاق على المصالح في هذه الفترة، فأصدقاء البارحة يمكن أن يكونوا أعداء اليوم وأعداء اليوم يمكن أن يتحوّلوا إلى أصدقاء في الغد القريب، وفي هكذا ظروف؛ أي انطلاقة تكون لها كوادر يملكون روح المسؤولية، وعلى دراية تامة بمهامهم وسوف تخلق تغييراً جذرياً.

في كثير من الأحيان يتبادر إلى أذهاننا أنّه وفي مراحل المنعطفات التاريخية، وكأتمّ قدر أن يقوم شعب ما، بدور رياديّ لخلاص الإنسانية من هكذا أزمات، ففي بعض الأحيان لعبت القبيلة العبرية أو الشعب اليهودي هذا الدور، وفي بعض الأحيان لعب هذا الدور العرب، وكذا الغرب الأوربي لعب في مرحلة من المراحل هذا الدور الريادي، واليوم وقد شاءت الأقدار أن يكون هذا الدور منوطاً بالشعب الكردي، ليصبح سفينة

ويأخذ بالإنسانية إلى بر الأمان، فحالة الثورة ووجود البديل الناجع متمركز اليوم في كردستان، والشعب الكردي له توجهات الخلاص من الكاوس أكثر من أي شعب آخر، وبدأ بخلق قيمه ذاتياً، بعيداً عن الدين والدولة، لا أقول هذا بهدف الدعاية، بل هي حقيقة وواقع، وهي مسؤولية تاريخية ملقاة على عاتق الكرد، ونحاول أن نعمل على بناء نظام يأخذ من الطاقة المتدفقة أو السيالة أساساً لها؛ أي نظام قابل للتطور الدائم والمستديم، حيث مجتمع ديمقراطي وإيكولوجي حرّ.

وإن لم نكن ذوي كفاءة عند قيامنا بهذه الثورة أو نتأخر في تلبية متطلباتها في الوقت المناسب، فإنّ المجال سوف يسنح للاحتمال الآخر، الذي يمكن أن يظهر في هكذا وضع، وهو ظهور أنظمة ديكتاتورية وشوفينية أكثر فتكاً من هتلر وموسوليني وفرانكو وستالين، وستبدأ مرحلة تفتح الطريق أمام المجازر للشعوب الطامحة لنيل الحرية والعيش بكرامة.

ولكي لا تسنح الشعوب الفرصة أمام ظهور أنظمة الفتك لابدّ من إدراك المرحلة بشكل جيّد والعمل الدؤوب دون كلل أو ملل.

کردستان الحمراء

عبد الله شكاكي - باحث في مركز الفرات للدراسات

تمهيد

لدى دراسة تاريخ وجغرافية كردستان عامة ومأساة شعبها، تبرز أمامنا حقائق تتعلق بالسيطرة التركية على القسم الأكبر من أرض كردستان أولاً، وتليه السيطرة الفارسية ومن ثم العربية، وأخيراً يأتي دور الروس.

المخطّط التركي كان أكثر همجية وأشدّ قسوة من الفارسي، وربما يشبه المخطّط العربي في التكتيك والممارسة والأهداف من أجل بناء "الوطن الطوراني"، لكنّه أعظم هولاً منها، لكونهم غرباء عن هذه الجغرافية وأحدث عهداً من شعوب الشرق الأوسط كافة، ولم يتركوا أيّ أمل للعيش بوثام وسلام لشعوب المنطقة برمتها، فلم يمض شهر واحد من تاريخ قدومهم (سنة ١٠٧١) إلى الشرق الأوسط دون حروب، ويتبين هذا بشكل جليّ من خلال شعارهم: "وطن واحد - شعب واحد - علم واحد - لغة واحدة".

أما المخطّط الفارسي فكان يهدف إلى قيام إمبراطورية شاهانية عظمى وإعادة أمجادها الغابرة بعد زوال السيطرة العربية، لكنّهم انتهجوا أسلوباً أقلّ قسوة من العرب في التكتيك، وعندما يؤسوا من "تفريس" شعوبهم ومع الكرد خاصة تركوا لهم مساحة صغيرة جداً لممارسة القليل من ثقافتهم دون الاقتراب من العمل السياسي، ودعوا إمبراطوريتهم بـ "الإيرانية" كمصطلح مقبول من قبل معظم الشعوب الإيرانية.

وحسب مخططات خلفاء العرب المسلمين الذين استولوا على السلطة بعد النبيّ محمد، وكذلك مفكريهم، كان يتوجب على الكرد والفرس أن يضمحلّوا وينصهروا في بوتقتهم، مثلهم كمثل الشعوب الأصلية الأخرى في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: سوريا، لبنان، الأردن، فلسطين، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر والمغرب الذين انصهروا وأصبحوا عرباً أقحاح.

أما المخطط الروسي فقد كان يهدف إلى تحقيق حلم القياصرة الروس منذ زمن بعيد في إقامة إمبراطورية عظمى في العالم، وبسط سيادتهم على: إيران، آسيا الوسطى، الصين، الدولة العثمانية (بما فيها كردستان وبلاد العرب)، مضيقي البوسفور والدردنيل وبلاد البلقان، وتكون عاصمتها “القسطنطينية” ومن أجل تحقيق الحلم المنشود وضعوا الخطط اللازمة له، فقد كانت المرحلة الأولى من الخطة تقضي بالسيطرة على كردستان، وتنفيذها يستوجب بداية السيطرة على جنوب القوقاز (ما وراء القوقاز حسب المصطلح الروسي).

إنَّ سبب اهتمامنا بهذه المنطقة كونها تعدّ تاريخياً جزءاً من جغرافية كردستان، وكانت كذلك منذ القدم وحتى بدء الحملات الروسية في سنوات (١٨٠٠-١٨٢٧) بغية فرض سيطرتها عليها، وبالتالي فإنَّ تاريخ كردستان القوقازية أو ما دُعِيَ فيما بعد باسم “كردستان الحمراء”، مرتبط بشكل وثيق مع تاريخ الشعب الكردي عامة.

يكمن سبب جذب كردستان لشهية القوى المختلفة عبر التاريخ من المشارب والأصول ولأكثر من خمسة آلاف عام للسيطرة عليها، في أهمية موقعها الاستراتيجي، وجوّها المعتدل وغنى أراضيها بالثروات السطحية والباطنية، لكن الأهمّ من هذا كلّها مناطقها الجبلية العالية التي تشرف على كلّ من: تركيا، إيران، وسهول العراق وسوريا المؤدية إلى الخليج الفارسي (العربي) وخليج الإسكندرونه، وكذلك الطرق المؤدية إلى روسيا عبر منطقة القوقاز، حيث تعتبر كردستان بوابة العبور نحو أوروبا عبر الأناضول، وآسيا الوسطى عبر الصحاري الإيرانية، وبلاد العرب وأفريقية عبر الصحراء الشامية.

نبذة جغرافية

القوقاز منطقة جغرافية جبلية تقع على حدود آسيا وأوروبا، وهي المنطقة المحصورة بين روسيا وإيران وتركيا (حسب التعريف الرسمي)، يحدّها من الشرق والشمال الشرقي بحر قزوين (كاسبي، الخزر..)، ومن الغرب البحر الأسود (بوتنوس)، ومن الجنوب شمال وشرق كردستان المحتلتين من قبل الدولتين الإيرانية والتركية، وقد دعيت هذه المنطقة بالقوقاز والقفقاس وبلاد “القبق” من قبل بلدان العرب والمسلمين.

تتميّز جغرافية القوقاز بأنّها منطقة جبلية وأعلى جبل فيها “جبل البورز” طقسها لطيف صيفاً وبارد شتاءً، وهي منطقة غنية بالثروات السطحية والباطنية، وفيها الكثير من الينابيع العذبة والأنهار أكبرها نهر “كورا”

و”آراس” (آراكس) ، كما أنّ فيها الكثير من أشجار الفواكه والكرمة، وهي غنيّة بمراعيها التي تحوي أنواع كثيرة من النباتات، وتصلح لتربية الماشية الصغيرة (الغنم والماعز) والقرنية (الأبقار)، ولذلك فإن اقتصادها زراعي- رعوي، إضافة إلى ثروة باطنية من البترول والمعادن، وكانت القوقاز منطقة مأهولة بالبشر منذ عصور سحيقة، وقد تم العثور في كهف بالقرب من قرية “أرني” على حذاء جلدي يعتبر الأقدم في العالم، حيث يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد ومصنوع من جلد الثور وسمّوه “چاروخ” ١٠.

عاش منذ القديم على أرض القوقاز عدد كبير من الأعراق والإثنيات والثقافات واللغات والأديان المختلفة، ويضمّ شعوب: الشركس، اللان (آلان)، ليزان، فيلان، شكاء، موقان، سوار، ساسبير، أبخاز، الأبر (أفار)، صنار، كوبان، إضافة إلى الأرمن، الجيورجيين (سماهم العرب الجزران)، الكرد، الأوسيت، والتركان الأذريين حديثاً، حيث ذكر ابن الفقيه: “وجبل القبق فيه اثنان وسبعون لساناً”، ويقول المسعودي: “وفي هذا الجبل اثنان وسبعون أمة، وكلّ أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها” ٢، وإنّ أهم دول القوقاز هي: أذربيجان، أرمينيا، أبخازيا، أوسيتيا الشمالية والجنوبية، جيورجيا، كراسنودار، نخشيفان، أجاريا وأديغيا، أما دينياً فقد كانت الزرادشتية دين شعوب القوقاز عامة، وبعد اعتناق الأرمن والجيورجيين المسيحية بدأت الأخيرة بإزاحة الزرادشتية عن القوقاز، ثم دخل الإسلام مع بدء السيطرة العربية في عهد عمر بن الخطاب.

نبذة تاريخية

كانت كردستان القوقازية جزءاً من مملكة ال”مانا” الكردية منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، وبعد زوالها أصبحت جزءاً من مملكة “خلديا” (أورارتو) التي قامت في القرن الثامن قبل الميلاد، وبدورها انضمت إلى الإمبراطورية الميديّة الكردية في القرن السادس قبل الميلاد، ثم خضعت للفرس بعد قيام الدولة الإخمينية على يد كورش، وعلى أرضها قامت حكومة ميديا الصغرى في ظلّ دولة الفرس، ومع قدوم الإسكندر المقدوني سنة ٣٣١ ق.م بقيت على وضعها السابق تحكّم ذاتها بذاتها بقيادة “أتروپات” بموافقة الإسكندر مكافأة له، لأنّ أتروپات وقف على الحياد في الحرب التي دارت بين الإسكندر وداريوس ودعيت “ميديا الأتروپاتية”، وامتدّ حكمها حسب ما كتبه “بوليبوس” من بحر قزوين إلى جورجيا، وفيها استقرّت قبيلتنا “ساگارتى” و “سانگي بوتو الميديتان العريقتان على ضفاف نهر آراس وجبال “أرفين” و”قره داغ” حيث مركز استقرار الآريين الأوائل، وقد استقرّ قسم منهم وهاجر آخرون إلى أفغانستان واستقروا في “قندهار”.

ونشير إلى أنه أثناء حكم الإسكندر تم حرق القسم الأكبر من كتاب زرادشت “أفيستا”، أما القسم المتبقي فقد تم نقله إلى ميديا الصغرى وكُتِب من جديد على جلود الثيران، وقد وصلت إلى السلالة الساسانية الحاكمة في إيران (٢٢٦-٦٣٥م) ما مقداره ٣٤٥٧٠٠ كلمة، أما اليوم فإن الأفيستا يتكون من ٨٣٠٠٠ كلمة فقط أي أنه تم القضاء على ثلاثة أرباع الكتاب.

وبين عامي (٦٤٣-٦٤٤) تعرّضت كردستان القوقازية للسيطرة من قبل العرب المسلمين بقيادة حذيفة بن اليمان، حيث لقي الجيش العربي مقاومة عنيفة في “أتروبات” (أصبحت بعدها أذربيجان)، وبسبب عدم توازن القوى اضطر حاكمها للتوقيع على اتفاقية مع “حذيفة” تعهد فيها الأخير بعدم قتل أو أسر أحد من السكان، وعدم التعرض على كرد: بلاشجان، سايلان وساتروزان مقابل دفع مبلغ ثمانمائة ألف درهم، وهكذا ضمن سلامة كرد “ميديا الصغرى” وكردستان ولو جزئياً، وإلى جانب الحروب الدموية انتهج رجال الدين العرب نوعاً من الحرب النفسية تجاه الكرد، من خلال مواعظهم وفتاويهم بغية تعريب الكرد الذين لم يرضخوا للسيوف، فقالوا: “إنّ البيت الذي يحتفظ بالمخطوطات والكتب الزرادشتية سيلاقى أصحابها المآسي والخراب” بمعنى أنّ على الكرد أن يقرؤوا كتاب القرآن فقط، لأنّه “يجلب السعادة والخير لأهل البيت”، وبعد مرحلة طويلة من الكفاح ضدّ السيطرة العربية امتدت لثلاثة قرون بدأت الدولة الإسلامية بالتفكك في العصر العباسي وبرزت الدويلات السلالية، حيث تمكّنت قبيلة شدادان (آل شداد) الكردية من تأسيس دولة كردية في القوقاز سنة ٩٥١ م واستمرت إلى سنة ١١٧٤، حيث كتبت الباحثة “شيرين إيكينر” في كتابها (المسلمون في الاتحاد السوفيتي) بهذا الصدد: “حكمت أسرة شداد إيزيدغان الكردية الإيزيدية المنطقة الواقعة بين نهر كورا (في أذربيجان وجورجيا) وأراس (في أرمينيا) بين القرنين العاشر والثاني عشر” ٣، واتخذت مدينة “گنجه” (حالياً في أذربيجان) عاصمة لها ثم مدينة “آني” (حالياً في أرمينيا)، وهم الذين وجّهوا ضربات قاصمة للخزر ووضعوا نهاية لغزواتهم، كما خضعت منطقة القوقاز لحكم العشيرة التركمانية “قره قويون” التي بنت دولتها انطلاقاً من القوقاز مروراً بـ “أرديش” و “سنجار” (شنغال) وحتى بغداد ودامت بين سنوات (١٤٦٩-١٣٨٠) ٤، ونشير في هذا السياق أنّ أسطورة البطل الكردي “رؤش” الذي سماه الأتراك “كور أوغلو”، وهي ملحمة كردية شهيرة تعبّر عن انتفاضة عشيرة الجلالين الكردية في القوقاز ضدّ سلطة أتراك “قره قويونلو”.

ومع بدء الحملات الروسية في مستهلّ القرن التاسع عشر التي استمرت بين سنوات (١٨٢٧-١٨٠٠) والتي تمخّضت في نهايتها باقتطاع كردستان القوقازية وضمّها إلى الإمبراطورية الروسية، كانت بمثابة تقسيم جديد لكردستان أو "التقسيم الثاني" (حسب تعبير مصطفىفايف) وذلك بعد التقسيم الأول الذي حدث بعد معركة چالديران ١٥١٤ حيث قسّمت بين إيران والدولة العثمانية.

كتب المؤرخ "أورييلي" مقيماً دور الكرد عبر التاريخ: "أعطى الشعب الكردي خيرة أبنائه من المحاربين والعلماء والأدباء للعرب والفرس والأتراك"، لكن هؤلاء كافئهم بصهرهم وتجريدهم من ثقافتهم وسلب ممتلكاتهم وتجويعهم، أما الذين أبدوا أدنى نوع من المقاومة، فكان جزاؤهم القتل أو التهجير القسري.

كما نشير أنّ بعض القبائل الكردية عبر بحر قزوين من "كردستان خراسان" وهم قسم من الكرد الذين تمّ تججيرهم بين القرنين السادس عشر والسابع عشر وأغلبهم في عهد الشاه عباس الصفوي، وفي القرن التاسع عشر أصبح كرد القوقاز تحت السيادة الروسية، ثم ازدادت الهجرة إلى روسيا بين سنوات ١٨٧٧-١٨٥٣ بسبب الحروب الروسية - التركية وكذلك أثناء الحرب الكونية الأولى وبعدها إلى سنة ١٩٢٠، كما هاجر بعض الكرد إلى أفغانستان بين سنوات ١٩٣٠-١٩٢٠، ولأنّ معظم الكرد كانوا يعيشون حياة شبه بدوية فقد قامت حكومة الاتحاد السوفييتي بتشغيلهم وتوطينهم في مزارع جماعية، ويعملون في الزراعة وتربية الماشية باستثناء كرد جيورجيا حيث يعملون في الصناعة ويتركزون في العاصمة "تفليس".

تابعية أرض القوقاز

يؤكد الباحث والسياسي "مصطفىفايف" ٥ تبعية أرض القوقاز وخاصة القسم الجنوبي منه لكردستان، استناداً إلى كتابات العلماء اليونان: بوليبيوس، أكرنيفون وهيرودوت، والروس: ليخ، بيكوف، مكارنكو، دياكونوف والباش كورد - علياموف، والأرمن: بولاديان، أبوفيان ويوسف أورييلي، والأذربيجانيين: بهارلي، ولييف وباكيخانوف، والجيورجي مينتشيفيلي، والإنكليزي بيل، والكرد: ابن مسكويه، الاصطخري، مسعود بن نامدار وميرزا أدغيغزال بك گوراني، وكذلك وثائق الإمبراطورية الروسية وإيران وأذربيجان، وقد عاش الكرد في القوقاز حياة شبه مستقرة معتمدة على الاقتصاد الرعوي والزراعي معاً، حيث كان جزءاً من العائلة الكردية تعمل في الزراعة والجزء الآخر في الرعي وتربية الماشية في المراعي الجبلية، وقد استمرّ هذا النمط الاقتصادي

حتى قيام الاتحاد السوفيتي حيث بدءوا بالاستقرار النهائي والعمل في البرامج الجمعية (كولخوزات- سوفخوزات).

كتب الباحث الأثنوگرافي الأذربيجاني أ.الكبيروف: “إنّ وفرة أسماء الأماكن والمناطق في أذربيجان بالكردية يشير إلى أنّ الكرد لعبوا دوراً كبيراً هنا في كاراباخ”، ويثبت ذلك ما كتبه “مصطفىيف” في كتابه (كردستان القوقازية) وهو أنّ معظم أسماء القرى والمدن والأنهار والجبال القوقازية كردية^٦، وتذكر المصادر العربية والأرمنية واليونانية القديمة أخبار عن “بالاسكان” و “بايلاكان” في القوقاز، حيث قضى الساسانيون على المملكة الألفانية (داغستان الحالية) وسلموها إلى الملك الكردي “مرزبان” حاكم مملكة بالاسكان^٧، أما “بايلاكان” فكانت منطقة خاضعة لسلطة “الشكري الفضل بن محمد حاكم الدولة الشدادية سنة ١٠٣٠، وأنّ البايلاكانيين ينتمون إلى التحالف القبلي: بالاجان و بالاشجان، ولا زالت هذه القبيلة تسكن في الجبال الواقعة بين إيران وباكستان ومركزها مدينة “كويتا” في إقليم بلوجستان.

ونشير أنّ مجموعة من الخانات (إمارات- إقطاعيات) الكردية كانت تحكم كردستان القوقازية وهي:

خان إريفان بقيادة “حسين خان” كان يضمّ العشائر الكردية التالية: جلالي، زيلوي، بلخكي، ميزكي، خاليقاني، ساكتي وكولاني.

خان موغان: بقيادة مصطفى خان، كان يشمل قبائل جبراني، شاريان، مراد خان وآخرين.

خان گوران: كان تحت سلطة “شيروان” في حوض نهر كورا في كورانزور (تغيرت التسمية إلى كوريندزور) ومركزها “گوران” (حالياً گوران باي).

خان كاراباخ: كان يحكمه إبراهيم خان جوانشير، من قبيلة جوانشير.

خان شاكين: كان يحكمه صادق خان من قبيلة شاكبي (شكاكي).

خان چوبان: كان يحكمه خان عسكر بك ومركزه شاماخي.

خان كوبان: كان يضم كونفدرالية الكرد اللور (قبائل زنگنه، شادي وآخرين).

خان كولان: كان تحت سلطته شيروان، سيفان، أعالي مجرى نهرگاري، منطقة باكين، دفاچين، أبشيرون، ساير آباد، ساتلين، ساليانسك، وقبائل شادلي الكردية.

وأنوّه أنّ المعلومات المدونة أعلاه موثقة في أرشيف روسيا وإيران وإنكلترا، حيث تُشير خريطة كاراباخ كما أورده “مصطفىيف” في نهاية القرن التاسع عشر بوجود ٦٩ قرية كردية - ٣٥١٠ عائلة كردية - ١٨٣٠٦ شخص كردي، ووجود ٤٧ قرية أرمنية عاشوا فيها ٣٤٠٨ أشخاص أرمن فقط، مما يدلّ أنّ غالبية سكان كاراباخ كانوا من الكرد.

أما إحصائيات ولاية نخشيفان الموجودة في أرشيف الإمبراطورية الروسية فيظهر وجود ٤٤ تجمع سكاني يعيش فيها ٩١٠ عائلات منها ٦٦٣ عائلة كردية و ٢٤٧ عائلة أرمنية، وكان يحكمهم ثلاثة خانات كرد، كما تشير الإحصائيات إلى وجود خمس وعشرين قبيلة كردية في نخشيفان ومنها عشيرة قره چول .. وغيرها، حيث قام الشاه عباس بتهجير تسع قبائل منهم من “دارالز”، ولم يكن فيها تتر (أذربيجاني) واحد، وقد أصبحت نخشيفان جمهورية حكم ذاتي سنة ١٩٢١ حسب الاتفاقية المبرمة بين الاتحاد السوفيتي وتركيا التي دعيت “اتفاقية موسكو”، وضمت إلى دولة أذربيجان المحدثّة، مع أنّها لا تمت بصلة معها لا من الناحية الجغرافية ولا التركيبة السكانية.

أما مدينة “إيجميازين” (مركز البطريركية الأرمنية) فينحدر اسمها من قبيلة چوبان- چوبينا- چوبان كار- شبان كار، وكان “فضلو” زعيم القبيلة الكردية شبانكاره يحكم قسماً من إيران.

وبين عامي ١٣٠٢-١٣٠١ كانت قبائل: كاراباخي، زنگنه، شاه سيفاني، شادلو ضمن الكونفدرالية الكردية اللورية دخلت القوقاز هرباً من هولاء المغولي، وطردت الشداديين الكرد واحتلت عاصمتهم “كنجه”، كما احتلت “آري ساخ لاجين” (كاراباخ الحالية)، كما حكمت قبيلة كاراباخي بلدة “شوشه”.

أما الكرد الكورانيين (كونفدرالية قبلية كردية) أحد أقدم سكان القوقاز، ومن هذه القبيلة خرج الملك الساساني "بهرام گور- بهرام جور" الذي تغنى به الشعراء الكبارين "الفردوسي" و "نظامي گنجوي" الكردي، فهذه القبيلة هي التي دجنت الثور البري (گا) واستحقت تسمية "گوران- گاران" وإحدى اللهجات الكردية باسمهم، وانتشرت هذه القبيلة الكردية في القوقاز عامة ومنهم: گوران شيروان، گوران قاشلاغ، گوران بودي، وفي منطقة شارو قلعة گوران، وفي عاصمة كردستان القوقازية "بردا" اثنان وثلاثون قبيلة كردية ومنها قبيلة گوران.

كتب الرحالة والكردولوجي الروسي الشهير "ليرخ" تحت عنوان "دراسة عن الكرد الإيرانيين وأسلافهم الخلديين" أنه: "في مناطق" لاجين، كلبجار، قوبادلي، زنگلان، جبرائيل والمناطق الأخرى المجاورة، يعيش كرد من قبائل: قره چول، حسنان، كوليكان، شاديمان، حجس ساملي، تھماسب، خانزكلي، جوادي، فريخكاني، سلطاني، بوزلي، بياندر وقبائل أخرى"، كما ورد في كتاب صدر عن المجلس الشعبي الاقتصادي الأذربيجاني في باكو سنة ١٩٢١ بعنوان "الوضع الجغرافي الإثني والاقتصادي لأذربيجان" أن: "أكثر شعب تم إذايته في بوتقة أخرى من شعوب أذربيجان هو الشعب الكردي، وإن قبائل مثل: بوسيان، گورس، قره چول، كورد، بختياري وبرگوشاد أصبحت تركية.

الأطماع الروسية في القوقاز

بهدف تحقيق الحلم الروسي في إقامة امبراطورية عظمى وضعت روسيا الخطط اللازمة لتنفيذها، وكانت المرحلة من الخطة تقضي باحتلال ما وراء القوقاز (جنوب القوقاز)، وكانت الخطوة الأولى هي القضاء على الأديغيين (الشراكسة) وقد تم ذلك في القرن الثامن عشر، فمن أصل سبعة ملايين أديغي (شركسي) لم يبق منهم سوى مائة ألف من الشعب الأصلي، والذين نجوا من الموت فرّوا نحو كردستان (أرزروم، ترابزون، منبج، تل أبيض) وسوريا (خناصر والجولان) والأردن، وفي سنة ١٧٩٦ احتل الروس مدينة "دزبند" (يسمونها العرب باب الأبواب) على ساحل بحر قزوين، وفي سنة ١٨٠١ احتلوا مدينة "تفليس" عاصمة جيورجيا، وفي ١٨٠٤ سيطروا على "إريقان"، وفي العام نفسه احتلوا مدينة "كومر- كيومزد"، وفي سنة ١٨٠٧ سيطروا على كرد "نخشيغان" كما احتلوا المنطقة الشمالية من كردستان العثمانية.

في بداية الأمر انضمت خانات (إمارات) كردستان القوقازية برغبتها إلى الإمبراطورية الروسية لجهلهم بالخطة الروسية، وحسب اتفاقية تركمان چاي- گولستان سنة ١٨٢٨ بين روسيا من جهة وإيران والدولة العثمانية من جهة ثانية، انثُرعت القوقاز وضمّت إلى الإمبراطورية الروسية، بعد أن زرعوا بذور الفرقة بين الشعوب المسلمة والمسيحية حيث قطعوا جزءاً بعد جزء، كتب “مصطفىيف” بهذا الصدد: “كانت القيادة الروسية قد وعدت الأرمن بإقامة (دولة) أرمينيا الكبرى والآشوريين بمملكة في سوريا والعراق، والآذربيجانيين التركمان بكردستان الإيرانية وفارس حتى الخليج الفارسي، ومن أجل حماية حدودها الجنوبية جلبت الأرمن والآشوريين واليونان من أراضيهم الأصلية ضمن كردستان وأسكنتهم في القوقاز”، فقد عمدت الفرق الأرمينية بحماية الجيوش الروسية أملاً في “أرمينيا الكبرى” وقامت بقتل الكرد واعتماد أسلوب الأرض المحروقة سعياً لإفراغ القوقاز من الكرد، ففي تلك الحروب الأربعة الروسية - العثمانية والروسية - الإيرانية تم القضاء على أكثر من مليون كردي، ولما شعر الكرد أنهم يتعرّضون لحملة صليبية من الروس عقدوا العزم على إشهار سلاحهم وقتال الروس، ففي سنة ١٨٥٥ تمكّن الفرسان الكرد من القضاء على الجيش الروسي المتغلغل في شمال كردستان.

لم يكن في نيّة الكرد معاداة الروس، حيث حاول معظم زعمائهم جاهدين من أجل إقامة علاقات صداقة وتعاون معهم، يثبت ذلك ما ورد في التقرير رقم (٢٦) المحفوظ في الأرشيف العسكري الروسي والذي قدّمه الجنرال باسكيفيتش بتاريخ الثاني عشر من حزيران ١٩٢٧ “إنّ عشائر الملائن والقره چول والشداديين وسكان أراضٍ أخرى توجّهوا إليّ عبر الشدادي أصلاً سلطان، وعبروا عن رغبتهم بوضع أنفسهم تحت الحماية الروسية”، لكن محاولاتهم لم تلق آذاناً صاغية، ولكن عندما اجتاحت الجيش الروسي شمال كردستان مرة أخرى في سنة ١٨٧٧، قام مسلحو عشائر: جلاي، حيدري، والكرد الهكاريين بإبداً مقاومة بطولية استمرت لسنتين، وفشل الهجوم الروسي وانهمز جيشه إلى خلف نهر آراس، وأثناء الحرب الكونية الأولى كانت الهجمات الروسية على الدولة العثمانية يتمّ صدها من قبل فرق الحّيالة الكرد، وقد فهم الروس أنّه يصعب الانتصار على العثمانيين في ظلّ وجود الفرسان الكرد الذين يتمتّعون بمهارات قتالية عالية، ورأوا ضرورة كسبهم إلى جانبهم بغية تحقيق هدفهم وتمزيق المخططات التركية في القوقاز، وهذا يعني أنّ الحروب الروسية في القوقاز باءت بالفشل، ولذلك قام كلّ من الدبلوماسي والمؤرخ الشهير “مينورسكي” والجنرال “باراتوف” وآخرون من الضباط والمثقفين الروس بتقديم طلب إلى قادة روسيا مع الرجاء لإقامة علاقات صداقة وسلام مع الكرد تحقيقاً لمصالح روسيا، لكن طلبهم جاء متأخراً.

كانت روسيا في مراحلها المتعددة (القيصرية والشيوعية) تستمر في ضرب الوجود الكردي وتعمل جاهدة للحيلولة دون اكتسابهم لحقوقهم السياسية، فقد كانت تنتقم من الكرد باستمرار، ولكن لماذا؟ هل هاجم الكرد الأراضي الروسية وقتلوا أهلها؟ صحيح أنّ الفرسان الكرد من الأردلانين والمكرين والشكاكين وآخرين شكّلوا خطراً على مؤخرة الجيش الروسي في شرق كردستان (الإيرانية)، وكذلك “الفرسان الحميدية” من الكرد في شمال كردستان، لكنهم كانوا يدافعون عن أرضهم ومكتسباتهم السياسية، كما حدث في انتفاضة عبيد الله النهري عندما هاجمت قواته الجيش الروسي حتى “أورميه” ونتج عنه فرار موظفي القنصلية وأخذ أرشيفهم معهم إلى روسيا، وكان في عداد الجيش الروسي الكثير من المقاتلين التركمان والجيورجيين والأرمن، وفي الحرب الكونية الأولى اعتمد الجيش الروسي على قازاق “كوبان” (منطقة في القوقاز)، وقد زودت ألمانيا وقتئذٍ القبائل الكردية في شرق كردستان بالسلاح، حيث أصبحت القوقاز برمتها في محرقة الحرب.

تمكّن الروس من إقناع الأرمن والجيورجيين والآشوريين والتركمان الذين يعيشون بين الكرد، أنّه بوجود الكرد يستحيل بناء دولهم وعليهم تشكيل فرق قازاقية خاصة بهم لدعم الجيش الروسي وقتل السكان الكرد، حيث اقتنع الروس أنّه دون إبادة الكرد يستحيل احتلال كردستان وتحقيق “الحلم الروسي” وبناء إمبراطورية واسعة، لذا بقي الكرد وحيدين في لظى الحرب الكونية الأولى، ولم يبق أمامهم سبيل سوى التحالف مكرهين مع الدولة العثمانية.

ولذلك فإنّ كافة حملات الإبادة وخنق الانتفاضات الكردية تمت على يد قوات “القازاق” الروس، وهم فلاحون جُلبوا من مقاطعات: ساراتوف، تامبوف، فارونج، بولتاف، موسكو وخاركوف، حيث تشكل منهم أفواج مشاهمة لـ “الكتائب الحميدية” واستقروا في القوقاز، ففي مدينة “إريقان” وحدها كان يوجد عشرون ألف قازاقي، وفي الوقت ذاته تشكل فوج القازاق الأرمن والجيورجيين تمهيداً لمخطط الاحتلال الروسي للقوقاز، وقد تم توطئ هؤلاء القازاق وآخرين من الآشوريين واليونان والتركمان الشيعة في أفضل مدن وقرى كردستان القوقازية بعد طرد الكرد من بيوتهم، وهكذا تم القضاء على خانات الكرد وقبائلهم.

كتب قائد القازاق ف.ي. يلسيف في مذكراته: “القازاق على الجبهة القوقازية ١٩١٧-١٩١٤” ما يلي، بعد أن يصف ميزات الكرد الشكلية والاجتماعية وعاداتهم وأهمّ شعب طيب: “لقد شغلنا أرضهم وهدمنا بيوتهم، وأخذنا قمحهم لإطعام خيولنا وذبحنا أغنامهم وأبقارهم لإطعام جيشنا ..”، ويستطرد “.. كان بإمكان عسكري عادي أن يسلب آخر قطعة خبز لديه، ويطرد ربّ العائلة من بيته ويعتدي على زوجته

وأخواته وبناته ...، وفي هذه الحالة حتى الأوربي كان سيدافع عن عائلته وشرفه ولو بسكين، فكيف بالكرد المتوحش والمحارب، ولذلك كان الكرد يطلقون النار على الجنود الروس ...”.

مع استمرار الهجمات البربرية الروسية بالتعاون مع حلفائها من الأرمن والآشوريين واليونان والقبائل التركمانية وعلى مدى أكثر من مائة عام، لم يتمكنوا من كسر إرادة الشعب الكردي ومقاومته البطولية، وفشل الجيش الروسي في تحقيق حلم القياصرة الروس المتمثل في السيطرة على القوقاز ونقل عاصمتهم من “سان بطرس بورگ” إلى “قسطنطينوبولس - استانبول” والوصول إلى المياه الدافئة وبالتالي فرض السيطرة على العالم.

مشروع الحزام الروسي في القوقاز

بغية التخلص من ضغط قوات القبائل الكردية على مؤخرة الجيش الروسي في القوقاز أثناء غزواته على شمال وشرق كردستان لقطع أواصر علاقات القرى بين كرد القوقاز مع الوطن الأم، حاولت روسيا إقامة حزام أمني مسيحي في القوقاز يفصل روسيا عن كردستان، من خلال توطين الروس والأرمن والآشوريين واليونان إلى جانب الجيورجيين، ويبدو أنّ روسيا قد مهدت لهذا المشروع في مرحلة الحروب الروسية مع إيران والدولة العثمانية، حيث كتب الباحث الروسي “شافروف” بصدد الهجرة أنّه “بين سنوات (١٨٣٠-١٨٠٠) هاجر (٤٠ ٠٠٠) أرمني من إيران و(٨٤٦٠٠) أرمني من تركيا إلى الولايات الروسية (اليزابيت ٨ وإريفان) وأضاف، هاجر فيما بعد (١ ٣٠٠ ٠٠٠) أرمني إلى إقليم القوقاز” وقد أيد ذلك الباحثان الفرنسيان “لويس” و”رامبو” في مؤلفهم “تاريخ القرن التاسع عشر.

لكن غالبية هؤلاء لم يستطيعوا العيش في المناطق الجبلية الوعرة ذات الاقتصاد الرعوي المعتمد على تربية الماشية، إضافة إلى خوفهم في الاستقرار في جغرافية جبلية لا توجد فيها حاميات روسية، وبفشلهم في إقامة الحزام المسيحي وقع الاختيار على التركمان الشيعة الإيرانيين، حيث تم توطينهم في أفضل الأراضي الخصبة في سهول: باكو، موقان وشيروان بالقوقاز، وقد كتب المؤرخ المعروف “ف. مينورسكي” بهذا الصدد: “هاجرت من بلاد فارس أعداد هائلة من العمال إلى القوقاز” ٩ ، حيث تم استخدام قسم من الشباب التركمان الوافدين في مشاريع الصناعات النفطية التي أقيمت حديثاً، واستخدموا الآخرين في تشكيلات “القازاق” حسب النموذج الروسي بهدف الحماية الذاتية، وبغية تحقيق الاستقرار الدائم عمد الروس إلى استعمال القوة للقضاء على قسم من الكرد بالقتل أو التهجير وإبعاد آخرين إلى المناطق الجبلية الصعبة

واضطراب الباقون إلى قبول الصهر والانضمام إلى الجنسية التركمانية (الأذربيجانية)، وقد عمدت الأقوام القوقازية الأخرى مثل: تاليش، لاكيش، تات، لاز والآفار إلى الإعلان عن أنفسهم بأهم أتراك مسلمون تجنّباً لمصيرٍ مشابهٍ للكرد.

مع انحسار الجيش الروسي من القوقاز سنة ١٩١٧ بسبب انهيار الجيش العثماني في الحرب الكونية الأولى وحدوث أزمة سياسية وحرب أهلية في روسيا تمهيداً للثورة البلشفية، بدأت قوات القبائل الكردية بطرد التركمان المستوطنين على أراضيها، إلا أنّ قوات الأرمن الطاشناق (حزب أرمني قومي تأسس سنة ١٨٩٠) تحركت صوب باكو وهي تقتل كل من يصادفها من المسلمين، فاضطر الكرد إلى التحالف مع التركمان، وقد استغل الجيش التركي سنة ١٩١٨ فرصة غياب الروس ودخلت القوقاز بحجة الدفاع عن المسلمين، لكنه بدلاً من محاربة الطاشناق الأرمن قام بإبادة الشعب الكردي، وأسس للتركمان دولة تركية (أذربيجان)، وهكذا أصبحت كردستان القوقازية بين عدوين لدودين روسيا وتركيا قبيل قيام السلطة السوفييتية.

ونشير في سياق تأسيس الكيان "الأذربيجاني" أنه لم يرد في أي وثيقة حتى قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧ ما يشير إلى "القومية الأذربيجانية"، فقد كان يُشير "لينين" إليهم في كتاباته بـ"تتار القوقاز"، ولكن حسب رغبة "ستالين" تم اصطناع مصطلح "أذربيجان - القومية الأذربيجانية" بحجة وحدة الشعب، وقد بحث علماء "باكو" عن الذات القومية على مدار قرن كامل دون نتيجة، ولما يئسوا حاولوا الاستيلاء على الموروث الثقافي والتاريخي للكرد، اللاز، التاليش، التات، الأقر والألبان لتكوين ذاتهم القومي ١٠، اقتداءً بالأتراك الذين أبادوا الكرد ونسبوا تاريخهم وثقافتهم لأنفسهم.

استغل الأرمن الطاشناق في سنة ١٩١٨ الفوضى العارمة في روسيا إثر قيام "ثورة أكتوبر الاشتراكية"، وأعلنوا عن قيام دولتهم القومية على أرض كردستان القوقازية، وفي سنة ١٩٢٠ قضى الجيش الأحمر على حكومة أرمينيا الطاشناقية، وعلى قاعدة هذه الدولة قام البلاشفة الروس بإقامة جمهورية أرمينيا السوفييتية.

ومع ورود أخبار انتصار ثورة أكتوبر في روسيا وتحرك الجيش الأحمر نحو القوقاز، استبشر الكرد خيراً على أمل قيام دولة كردية، ولكن هيهات بوجود العامل الأذربيجاني والأرمني بدعم مباشر من الروس.

تأسيس كردستان الحمراء

تأسست السلطة السوفييتية في كردستان القوقازية مع وصول الجيش الأحمر الحادي عشر، ولذلك دعيت “كردستان الحمراء” ١١، وقد ساهمت فرق الدفاع الذاتي الكردية وجميع الكرد في إقامة السلطة السوفييتية، التي تأسست فعلياً بعد ماطلة طويلة رافقها أعمال القتل والتجويع والإبعاد والتغيير الديموغرافي من قبل السلطة الأذربيجانية وبدعم مباشر من تركيا، وأخيراً صدر قرار من اللجنتين المركزيتين الحزبية والتنفيذية في أذربيجان بتاريخ السابع من تموز سنة ١٩٢٣ يقضي بـ”إقامة كردستان ذات الحكم الذاتي”، ولكن دون تحديد عاصمتها وحدودها، وقد أرسل الكرد البرقية التالية وقتمذ إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذربيجاني جاء فيها: “نحن الكرد أحرار وقربون بطبيعتنا من السلطة السوفييتية، ونحتضن اليوم وللمرة الأولى أمتنا - سلطة العمال والفلاحين، نحن اليوم نزعنا الأغلال والقيود ونمدُّ أيادنا إلى الشقيقة أذربيجان ونتوجّه إلى الجيش الأحمر بالقول: لقد دمجنا الفرسان الكرد الحمر مع الجيش الأحمر والذين سيكونون مثلاً للإخلاص والوفاء”.

بعد تجاذبات ونقاشات استغرقت شهراً وبضغط من سيرغي كيروف سكرتير الحزب الشيوعي الأذربيجاني، صدر قرار تعيين حدود وعاصمة كردستان، حيث ضمت أربع وحدات إدارية هي: كلبجار، بيريجان (لاجين)، قوبادلي وقسماً من منطقة جبرائيل، وست دوائر هي: كلبجار، لاجين، قوبادلي، زنگلان، وجزء من جبرائيل، وأقسام فرعية من: قشلاق، قوتورلي، مرادخانلي، كرد- كنجي وحاجي، بمساحة قدرها (٦٢١٠) كم٢، وتعيين مدينة “لاجين” عاصمة لها، وانتخاب “حسين حاجيف” رئيساً للجنة التنفيذية لكردستان الحمراء، وقد ضمت كردستان الحمراء نسبة ٩٠,١% من مجموع كرد أذربيجان.

مع قيام كردستان الحمراء بشكل قانوني توجّه الكثيرون من كرد أرمينيا ونخشيفان إليها، وعاد الذين غادروها في وقت سابق، وتوطدت علاقات الكرد مع بعضهم ومع الجوار الأذري والأرمني، حيث بلغ تعداد الكرد حسب هيئة الإحصاء السوفييتية لعام ١٩٢٦ إلى ٢٣٢ ألف كردي، ونشطت الحركة التعليمية بغية القضاء على الأمية، حيث افتتحت أكثر من مائة مدرسة كردية ومعهد تربوي لتخريج المعلمين، إضافة إلى افتتاح ثانوية زراعية، ومعهد مسرحي، وطبع الكتب باللغة الكردية، وإصدار جريدة “كردستان السوفييتية”.

انتشر صدى قيام كردستان السوفييتية وافتتاح المؤسسات التعليمية في جميع أجزاء كردستان، وتزامنت مع نشاطات الحركات الثورية والانتفاضات الكردية (شيخ سعيد وساسون) في شمال كردستان، وقد عقدوا الأمل على الاتحاد السوفييتي كمحرّر للشعوب المضطّهدة، بعد أن خذلتهم تركيا الأتاتورية في نكرانها لوعدها بتأسيس دولة مشتركة (تركية - كردية)، وكذلك الدول الغربية جزاء توقيعهم على اتفاقية لوزان سنة ١٩٢٣، وتجاهلهم لاتفاقية "سيفر" سنة ١٩٢١، وإنكارهم لحقوق الكرد في إقامة دولة كردية، وبدلاً عنها قامت بتقسيم وطنهم إلى أربعة أجزاء.

بعد مضي أقل من عام واحد على وفاة لينين (سنة ١٩٢٤)، انفرد "ستالين" ١٢ بالسلطة وتصرف كديكتاتور، وقد تجاوز ظلمه بطش القياصرة، حيث بدأ بحملة مسعورة ضدّ الأقليات العرقية في القوقاز والشعب الكردي خاصة، الذين تعرضوا لحمولات الإبادة والتهجير القسري الأكثر عنفاً، تحقيقاً لرغبات المتطرفين الأتراك الأذربيجانيين (تتار القوقاز حسب تعريف لينين)، وكان "لينين" قد نبّه القيادة السوفييتية والحزبية قبيل وفاته إلى سلوك ستالين المتطرف، حيث كتب في الرابع والعشرين من كانون الأول سنة ١٩٢٤ "إن ستالين مفرط في الفظاظة"، ودعا إلى إبعاده مستقبلاً عن منصب الأمين العام، حيث تجاوز عدد المضطّهدين على يديه عن خمسة وعشرين مليون إنسان، وإن أكثر من ستة ملايين منهم قضوا نحبهم جوعاً، ويثبت ذلك الاحصائيات المتتالية في أذربيجان.

وقف القوميون الآذريون بشدة ومنذ البداية ضدّ تأسيس جمهورية كردستان الحمراء، وعلى رأسهم "جعفر باغيروف" رئيس جمهورية أذربيجان السوفييتية وسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأذربيجاني، بتحريض وضغط من مصطفى كمال (أتاتورك) على السلطات السوفييتية والأذربيجانية، حيث كان أتاتورك يرى أنّ "كردستان الحمراء" تشكل خطراً على تركيا، ويحرّض الكرد في شمال كردستان للمطالبة بحقوق مماثلة، إضافة إلى أنّه كان يوهم السوفييت باستمرار أنّه معادٍ للاستعمار والإمبريالية، ويحارب الإنكليز والفرنسيين، ويأمل منهم المساعدات المادية والمعنوية، ومما يؤسف له أنّ السلطات السوفييتية لبّت مطالبه، كما أنّها أصدرت قرارها المجحف من مؤتمر سوفييتات أذربيجان، بحل جمهورية كردستان ذات الحكم الذاتي في الثامن من نيسان ١٩٢٩، تجاوباً مع آماني المتطرفين الآذريين وأتاتورك والديكتاتور ستالين إضافة إلى تقديم منحة نقدية كبيرة لأتاتورك، وقد كرّر الثنائي المتطرف ستالين - باغيروف الجريمة نفسها في تجربة "جمهورية مهاباد" فيما بعد.

أما الدول الغربية فقد التزمت جانب الصمت حيال التطورات الجارية في تركيا والاتحاد السوفيتي والمعادية للتطلعات الكردية، حيث كان الغرب يعتقد في تركيا أنّها الحليف المستقبلي الأساسي في صراعه ضدّ الاتحاد السوفيتي والشيوعية.

بدأت العناصر الحزبية الآذرية بالاستفزات وتلفيق التهم والأكاذيب ضدّ الكرد ومضايقتهم، وقد نشط الكرد في تلك الفترة وعقدوا عدداً من الاجتماعات العامة في أرمينيا، كما تمكّنوا من افتتاح القسم الكردي في إذاعة "إريشان" لإيصال صوتهم إلى شعبهم والعالم، مما اضطرت معها اللجنة التنفيذية المركزية الأذربيجانية إلى إعادة النظر في قرار حلّ كردستان الحمراء، وإصدار قرار جديد يقضي بإعادة تشكيل مقاطعة كردستان في الخامس والعشرين من أيار ١٩٣٠، مع اقتطاع جزء من مقاطعة كراباخ وإقامة مقاطعة كردستان المستقلة وتبقى عاصمتها مدينة لاجين، بمعنى استبعاد الكرد بعضاً من حقوقهم وأنّ حدودهم أصبحت محاذية لشرق كردستان (إيران)، وأصبحت المناطق التالية: كلبجار، كوتور، لاجين، قوبادلي، زنگلان وقسم من منطقة جبرائيل تشكل مقاطعة كردستان.

بعد الإجراء الأخير عادت الاستفزات الأذربيجانية من جديد بقيادة "مير جعفر باكيروف" مرفقة بسياسة الصهر القومي، وبضغط مباشر من أتاتورك، بسبب تصاعد وتيرة المواجهات في انتفاضة "آكري" بشمال كردستان في محاولة جديدة للقضاء على كردستان القوقازية، وفي تلك الفترة كانت الحكومة الأذربيجانية تصدر قرارات لصالح الكرد نظرياً وتشدّد من سياسة الصهر القومي والتهجير والتنكيل بالكرد عملياً، ولذلك انخفض عدد السكان الكرد إلى النصف، حيث "بدأ حكام أذربيجان النازيون بالبحث عن طرق ووسائل للقضاء على كردستان القوقازية والأمة الكردية، ليس في أذربيجان وحدها بل وفي شمال كردستان" ١٣ لتعاوهم اللامحدود مع أتاتورك، وبالتالي كان عام ١٩٣١ في تاريخ الشعب الكردي عام القضاء على كردستان القوقازية، ففي بداية الاحتلال الروسي (١٨٠٤) للقوقاز كانت نسبة الكرد ٨٠% من مجموع السكان، ومن مرحلة ثورة أكتوبر وحتى انهيار كردستان الحمراء تقلصت نسبتهم إلى ٤٠-٣٠%، وعشية انهيار الاتحاد السوفيتي كانت قرية واحدة فقط في أذربيجان عامة هي "داراكند" تتكلم الكردية.

ونشير أنّ عداة الآذريين الأتراك الشديد للكرد يعود إلى مرحلة الحروب الروسية - الإيرانية عندما تمكن الكرد من طرد الجيش الروسي من شرق كردستان، وقد نزح الآذريون (أتراك - أوغوز) والأرمن وقتئذٍ إلى القوقاز خوفاً من انتقام الكرد حيث كان الآذريون يحاولون إقامة دولة تركمانية على أراضي شرق كردستان،

كما كان الأرمن والاشوريون يعملون من أجل إقامة ممالكهم على أرض شمال كردستان، وقد سكن اللاجئون الأرمن والقبائل التركمانية الشيعة في المدن والقرى الكردية في القوقاز بمساعي الروس.

لقيت ممارسات وقسوة الآذريين على الكرد استحساناً لدى ستالين، حيث كانت تصله معلومات مضللة عن الكرد عبر القنوات الاستخباراتية، وقد كانت معظم قيادات الأجهزة الأمنية للجمهوريات السوفييتية المحاذية لتركيا من الأذربيجانيين أو الأرمن المعادين للكرد، إضافة إلى المعلومات التي كان يقدمها "قره خانين" السفير السوفييتي في استانبول الذي كان عميلاً لتركيا، وأعدم بسببه فيما بعد.

حلّ كردستان الحمراء

أصدر ستالين أوامره بإلغاء "كردستان الحمراء" رغبة منه للأسباب التالية:

١. بسبب التضامن والمشاعر القومية المشتركة بين كرد القوقاز وانتفاضة "آكري" وقد أراد معاقبة كرد الاتحاد السوفييتي بشدة.
٢. نزولاً عند رغبة حكام أذربيجان و "باكيرف" خاصة.
٣. وبشكل أخصّ لتحقيق رغبة أتاتورك.
٤. وآخرها "بطلب من ميگويان والزعماء الأرمن الآخرين" ١٤.

وهكذا بجرة قلم من ستالين أصبحت كردستان القوقازية أرض المائتين والخلديين والميديين تاريخياً ملكاً لأذربيجان المحدثّة وشطب اسم كردستان، واستمرت سياسة محاربة الكرد من قبل جميع الحكومات الروسية المتعاقبة حتى اليوم.

كتب "نادر نادروف" الأمين العام لأكاديمية العلوم في جمهورية كازاخستان السوفييتية (الذي انضم سنة ١٩٩٥ إلى برلمان كردستان في المنفى) بهذا الصدد: "لم تعمر فرحة الكرد بكردستان السوفييتية في أذربيجان حيث تم إغلاق المدارس الكردية سنة ١٩٢٩ فعلياً"، وكتب شكري خدو: "كلّ ما كان يفوح منه رائحة الكرد تم منعه ومصادرته من قبل ستالين"، وأضاف "لقد قطع ستالين أوصال الأمة الكردية وعمل الشيء

نفسه مع شعوب أخرى في القوقاز"، ويضيف "منع ستالين على الكرد أداء الخدمة العسكرية"، وعلل (ستالين) السبب: "... لكي لا يفنوا وينقرضوا ... ومن الظلم أن تفنى أمة كهذه" !!!، إنه لأمر عجيب.

وقد قيم البروفيسور جليلي جليل أسباب تفكك كردستان الحمراء وعزاه لسببين:

١. السياسة الشوفينية واللاإنسانية لباكيروف المقرب من ستالين.
٢. سياسة ستالين تجاه ألمانيا المتحالفة مع تركيا، حيث كان ستالين يعتبر وجود الكرد على حدودها خطراً على الاتحاد السوفيتي.

وهناك أسباب أخرى ربما دفع ستالين إلى حلّ كردستان الحمراء، حيث تزامن قيامها مع قيام انتفاضات عديدة في أنحاء كردستان (الشيخ محمود، سمكو شكافي، شيخ سعيد، ساسون و آكري)، ومن المؤكد أنّ المشاعر القومية لكرد القوقاز قد تحركت تضامناً مع انتفاضات كردستان، وهذا ما أثر على التوازنات الدولية والإقليمية.

كما يمكن أن نعزو معاداة ستالين الشديدة للكرد لدوافع سيكولوجية، حيث قيل (حسب ما نقله شكري خدو عن الشاعر الكردي "هزار" الذي أقام فترة في الاتحاد السوفيتي أيام جمهورية مهاباد): "إن عشيق والدة ستالين كان كردياً يدعى "شيرغو" وأنّ ضريحه بجوار ضريح والدة ستالين".

ونشير أنّ تعداد الكرد في الاتحاد السوفيتي (قبل التهجير القسري) بلغ حسب إحصائية سنة ١٩٢٦ السوفيتية: ٦٩١٨٤ نسمة منهم ٥٤ ٦٦١ مسلم و ١٤ ٥٢٣ إيزيدي، حيث كانت أرمينيا تعتبر الكردي المسلم "كردى" غير مرغوب به، أما الكردي "الإيزيدي" فتعتبره "إيزيدي" مقبول به وكأنّه من إثنية مختلفة، ونشر فيما يلي جدولاً يتضمن توزيع الكرد (المسلمين والإيزيديين) في جمهوريات الاتحاد السوفيتي، حسب دراسة قامت بها الباحثة الروسية شيرين إيكينر:

الجمهورية	مسلم	إيزيدي
أذربيجان	١٩٣ ٤١	—

أرمينيا	٠٢٥٣	٢٣٧١٢
جورجيا	٩٥٥٧	٢٦٢٢
تركمانستان	٣٠٨٢	—
أوزبكستان	١٨٠	٢٤

ونشير أنّ حوالي ٨٠% من كرد الاتحاد السوفيتي مسلمون، بعضهم سنة وآخرون شيعة، ويتوزعون في أذربيجان وقليلون في جورجيا، وشيعة - جعفرية ينتشرون في أذربيجان وتركمانستان، ويشكل الإيزيدية ٢٠% منهم ويتركزون في أرمينيا وجورجيا.

التهجير القسري لكرد القوقاز

لم يمض سوى وقت قصير على محنة "كردستان الحمراء" عندما صدر المرسوم ٢٦٧ - ١١٢٧/١٠٣ في السابع من تموز ١٩٣٧ من قبل "مجلس المفوضية الشعبية للاتحاد السوفيتي" بترحيل الكرد- المسلمين (دون الإيزيديين) من وطنهم، ضمن حدود جمهوريتي أرمينيا وأذربيجان وجمهورية نخشيفان ذات الحكم الذاتي، بحجة إقامة مناطق محظورة في المناطق الحدودية لأرمينيا وأذربيجان، كما أنّهم لم يعدوا الكرد الذين سجلوا أنفسهم آذريين في سجلات النفوس، مع أنّ السلطات تعلم أنّهم كرد، حيث تم تهجير ١٣٢٥ مواطن كردي من منطقة "ميكرين" (أرمينيا) ومناطق زنگلان، جبرائيل، كاريباكين، كردوبلين، بيليا سوفار، استراخان، زوفون، أستارين، ماسالين ولينكوران، منهم ٨١٢ شخص إلى قرغيزيا السوفيتية و٥١٣ شخص إلى كازاخستان، وكانت شعوب آسيا الوسطى ينظرون بازدراء إلى الكرد كونهم عملاء للنازية حسب الدعاية الستالينية.

كانت الدفعة الثانية في بداية كانون أول ١٩٣٧ من منطقة "أبوفيان" الأرمينية التي تبعد ٢٥ كم عن إريفان؛ أي أنّهم ليسوا من سكان الحدود، حيث تعرض المبعدون لكوارث ومآس يصعب وصفها ١٥، وقد اعتقد القرغيزيون أنّهم مناصرون لهتلر، حيث لم يتمكن المبعدون الإجابة على سؤال: "بأي ذنب عاقبوكم"، وبعد مدة تباددت شكوكهم بعد أن لمس القرغيزيون إخلاصهم وحبهم للعمل، أما الأكاديمي الكردي "نادر

نادرُوف” فقد أوجز قصة اسرته بالشكل التالي: “كنا نعيش في نخشيفان، كان عمري خمس سنوات عندما حاصرت الجنود قريتنا وأمهلونا أربع وعشرون ساعة للرحيل، وفي اليوم التالي تركنا وراءنا أملاكنا وماشيتنا ونقلونا عنوة بالشاحنات إلى محطة القطار، وأمرونا بالصعود إلى قاطرة نقل البضائع والماشية، وقد طالت الرحلة شهرا ونصف الشهر وانتهت في بركة خالية بـكازخستان”، لقد تم توزيع الكرد المرخلين على ١٢ مقاطعة و ١١٤ ناحية وتحت حراسة مشددة.

وُنشير أنّ التهجير القسري طال مجموعات إثنية أخرى غير الكرد أيضاً مثل: الشيشان والأنغوش والبلغار، حيث بلغت أعداد المرخلين قسرياً وبشكل منظم من القوقاز بأوامر من السلطة السوفيتية في العقد الرابع من القرن العشرين:

٤٨٠ ٠٠٠ شخص من الشيشان والأنغوش.

٢٠٠ ٠٠٠ شخص من كرد القوقاز.

١٢٠ ٠٠٠ شخص من البلغار القره چاي والأترك الجيورجيين.

وننوه أنّ أسباب الصراع الأذربيجاني – الأرمني تاريخياً كانت من أجل الاستحواذ على الأراضي الكردية، واستمر منذ ذلك الحين وقد أصبح أكثر ضراوة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، ولم تحمد جذوته حتى اليوم.

أما حالة الكرد في جيورجيا السوفيتية فقد أصدر ستالين مرسوماً في سنة ١٩٤٤ يقضي بترحيل الكرد وقوميات أخرى مثل: الأترك، شيشان، أنغوش، قراچي، بلغار، تثار القرم، يونان، كلميك، همشيين، لتوانيين، پولونيين، ألمان وشعوب أخرى إلى كازاخستان، أوزبكستان وقرغيزيا، بهدف تحسين ظروف حماية حدود جيورجيا، وذلك في شهر تشرين الثاني من العام نفسه وهو شهر البرد القارس، حيث لقي كثيراً منهم حتفهم.

ونشير أنّ المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي أدان أعمال ستالين، ورفع الستار عن ظلمه وأعدت للشعوب التي كانت لها دويلاتها قبل التنكيل الستاليني مثل: الأنغوش والشيشان وغيرهم باستثناء الكرد!

مع أنّ الكرد جمعوا عشرات الآلاف من التواقيع، وتوجّهوا بها إلى القيادة السوفييتية والأذربيجانية لردّ الاعتبار وإزالة الغبن وإقامة كردستان الحمراء، ومع أنّ مجلس السوفييت الأعلى قرّر بطلان المراسيم والقرارات المتعلقة بالترحيل، وشكلت لجنة من ستة أشخاص أعضاء في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي، لكنّهم لم يعيدوا الأمور إلى نصابها ورفضوا إعادة حقوق الكرد بسبب علاقاتهم الوثيقة مع أذربيجان وجيورجيا، باستثناء أرمينيا التي لم تمنع عودة الكرد إلى ديارهم، وإقامة دولتهم “كردستان الحمراء”، لأنّها ستشكل حاجزاً منيعاً يحول دون احتكاكهم المباشر مع أذربيجان، ويؤمن حقوق الأرمن في كاراباخ بالتواصل عبر “بمّر لاجين” مع جمهورية أرمينيا.

١. مصطفىايف وكيل، كردستان القوقازية (كتاب الكتروني) ترجمه من الروسية أحمد علي حيدر. واستمر الرعاة والفلاحين الكرد في انتعال هذا النوع من الحذاء والمصنوع من قطعة واحدة حتى بداية القرن العشرين- المؤلف.
٢. ميكيل اندريه، جغرافية دار الإسلام البشرية، ج ٢- ق ٢ ترجمة إبراهيم خوري مطبعة وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٥، ص ١٩.
٣. مصطفىايف وكيل، كردستان القوقازية (كتاب الكتروني) ترجمه من الروسية أحمد علي حيدر. واستمر الرعاة والفلاحين الكرد في انتعال هذا النوع من الحذاء والمصنوع من قطعة واحدة حتى بداية القرن العشرين- المؤلف.
٤. لين بول ستانلي، الدول الإسلامية، ترجمه عن التركية محمد صبحي فرزات، مطبعة الملاح - دمشق ١٩٧٤.
٥. وكيل مصطفىايف: ولد سنة ١٩٣٨ في أوزبكستان من عائلة كردية تعرضت سنة ١٩٣٧ للتهجير القسري في عهد ستالين، ينتسب والده إلى عشيرة جلالتي وقتل من قبل الأرمن واضطرت والدته إلى الالتجاء إلى عشيرة أهلها “قره جول” في أرارات، وتوفي ثلاثة من إخوته أثناء التهجير بسبب الجوع، انضم إلى الجيش السوفييتي سنة ١٩٥٥ وأصبح قائداً عسكرياً وسياسياً، عرض عليه منصباً سياسياً هاماً سنة ١٩٦٠ شريطة تغيير قوميته إلى الأوزبكية أو الطاجيكية لكنه رفض العرض ولم يتخلّ عن قوميته، ثم عرضت عليه أجهزة أمن الدولة (كونه أفضل ضابط) للعمل خارج الاتحاد السوفييتي واقترحت العمل كجاسوس في الصين لكنه

طلب العمل في إحدى الدول المستعمرة لكردستان، ثم تم فرزها في أجهزة أمن الدولة، أنهى مصطفىايف دراسته في كلية الحقوق بالمراسلة سنة ١٩٦٧ من جامعة قرغيزستان وعين نائباً لرئيس أمن الدولة في مدينة "أوشك" ونائباً في مجلس المدينة، حيث فصح فيها ملفات الفساد للقيادات الحزبية في قرغيزيا وشكل هذا خطراً عليه، فترك وظيفته سنة ١٩٨٠ وانتقل إلى أوزبكستان وعمل رئيساً لقسم البحث الجنائي، ثم انتقل في السنة نفسها إلى أذربيجان وعمل بالوظيفة نفسها في إقليم نخشيفان أرض أجداده، وقد اعتبرته السلطات الأذربيجانية سياسياً متطرفاً وحاولت اعتقاله لكن احتجاجات مواطنيه الكرد حالت دون اعتقاله، لكنها سلمته إلى السلطات الأوزبكية لتصفيته، وقد تمكن من إنقاذ نفسه، ناضل مصطفىايف من أجل إعادة تأسيس كردستان الحمراء وكان يشغل منصب نائب رئيس اتحاد الجمعيات الكردية "يكون"، حصل على ستة مراتب شرف من السلطات السوفيتية، ويعيش حالياً مع عائلته لاحقاً في إيطاليا. (يعتبر كتابه كردستان القوقازية المرجع الأساسي في بحثي هذا وقد التقيت به في حلب نهاية سنة ١٩٩١ - المؤلف).

٦. ففي أذربيجان نجد أسماء مدن مثل: كنجه- قنجه بمعنى (الغنية- الطيبة)، شيروان (المحارب)، بيست (عشرون)، زنگلان (الأجراس وهي اسم قبيلة كردية)، كرد مير (الأمرء الكرد)، دارالز (بالكردية داراگوز- شجر الجوز) ، وفي أرمينيا: يريشان (بالكردية روان- الروح)، دلجان (القلب والروح- القلب اليافع)، سبيتاك (اسم ابن امبراطور ميديا سستياك).

٧. بالاسكان: بالا يعني عال، سكان: هي "شكا" بصيغة الجمع، حيث الجمع بالكردية تتم بإضافة اللاحقة: "ألف ممدودة أو" "ان" "ألف ونون أو" "كان" "أو" "كا"، وإن شكا- شكى اسم منطقة في القوقاز وهي أصل عشيرة "شكاكا" التي لا زالت موجودة في القوقاز وخراسان وشرق كردستان (سلماس وقوتور) وشمال كردستان (المخاذية لسلماس وفي جبل هرکول) وغرب كردستان (عامودا- قره مانية وعفرين) ، ووردت بالاسكان في المصادر اليونانية باسم "ساكاسينا- ساكاشينا- شاكيا".

٨. مقاطعة إيزابيت هي نفسها ولاية كنجه عاصمة الشداديين الكرد التي استبدلت روسيا اسمها بعد احتلالها سنة ١٨٦٨ وكانت كردستان الحمراء تقع ضمن حدودها الإدارية وفي سنة ١٩٢١ تم تقسيمها إلى ثمانية أفضية بقيت ستة منها ضمن مساحة أذربيجان والقسم الغربي من "زنگه زور" تم ضمه إلى أرمينيا.

٩. مصطفىايف ص ٦٠٦.

١٠. قام الباحث الأكاديمي ضيا بونياتوف بجهود مضمينة بحثاً عن الذات القومية لأذربيجان حيث توصل أثناء بحثه إلى حقيق جذور أسرته التي تنتمي إلى قومية التات، حينئذ سُمي جميع العناصر التركبية دخيلة وأهم مهاجرون غرباء عن هذه الأرض، مما دفع المتطرفين الأذربيجان إلى إشباعه ضرباً وإطلاق النار عليه حتى الموت.

١١. دعيت بالكردية Kurdistana Sor وبالآذرية Qizil Kurdistan وبالروسية Krasnaya Kurdistan

١٢. ولد جوزف ستالين في ٢١ كانون الأول ١٨٧٩ في مدينة جوري بجمهورية جورجيا كان والده اسكافياً يدعى بيسو وأمه فلاحه تدعى إيكاترينا، وقد تلقى القسوة والضرب من والده، ترك والده أسرته ورحل وأصبحت أمه بلا معيل، كانت أمه تريده أن يصبح كاهناً ولذلك أدخلته في مدرسة مسيحية لكنه طُرد من المدرسة بسبب إهماله لواجباته، وكانت علاقته مع أمه شبه مقطوعة ولم يحضر جنازتها وقد كان ينعتها بالعجوزة الرخيصة، اعتنق الإلحاد متأثراً بأفكار لينين وأصبح عضواً في اللجنة المركزية سنة ١٩١٢ وفي سنة ١٩١٣ دعي ستالين بالفولاد لقسوته، وأصبح الأمين العام للحزب في سنة ١٩٢٢ عندما اشتد المرض بلينين وقد طالب الأخير بإقصاء “الوقح” (ستالين). ترك الثورة الاشتراكية العالمية لصالح الاشتراكية المحلية وقام بتصفية اللجنة المركزية سنة ١٩٣٠ حيث قتل كافة معارضيه حتى رفيق دربه “تروتسكي”، كما قام بالتطهير العرقي وترحيل (١,٥) مليون شخص إلى سيبيريا وآسيا الوسطى لعدد من الإثنيات من بينهم الكرد بتهمة التعاون مع النازية، وأعدم حوالي مليون إنسان بين سنوات ١٩٣٨-١٩٣٥ و ١٩٥٠-١٩٤٥ ووقع بنفسه على إعدام ٢٥٧٠٠ شخص من المثقفين البولونيين، حيث قدرت ضحاياه بين الإبعاد والمجاعات والقتل حوالي ٥٠ مليون، وتسبب بإفلاس الخزينة فأمر بمصادرة كامل محصول القمح في أوكرانيا وبيعها مما سبب بمجاعة كبيرة للشعب السوفيتي، وإثر مأدبة عشاء حضره وزير داخلته “بيريا” و”خروشوف” تدهورت صحته ومات بعد أربعة أيام في ٥ آذار ١٩٥٣، حيث يعتقد أنه مات مسموماً على يد بيريا.

١٣. مصطفىايف مرجع سابق ص ٦٤٧.

١٤. مرجع سابق ص ٦٥٣.

١٥. سجل "مصطفى نبييف" رواية ترحيلهم نقلاً عن "مصطفى نبييف" باختصار: "كنا نعيش في منطقة أبو بيان وقد تم دعوة الكرد إلى النادي للاجتماع وبدخولنا المبنى تم تفتيشنا واعتقالنا ونقلنا إلى محطة القطر ، ثم جلبوا عائلتنا ليلاً وأركبونا على قاطرات نقل البضائع عنوة وضربونا بأعقاب البنادق والركلات ، كما جلبوا السجناء الكرد وأصعدوهم إلى القاطرات وبعد ذلك بدأ التحرك تحت الحراسة ، وبقيت بيوتنا وماشيتنا وأرضنا للأرمن ، واستمرت رحلتنا حوالي شهرين ولم يكن في القاطرات دورات مياه حيث كانوا يخرجوننا لقضاء الحاجة أمام الناس وخفر الحراسة وكانت الشابات ينجلن ويرفضن قضاء حاجتهن ، وكان الناس يأكلون ما جلبوا معهم على عجل ولم يمضِ طويل وقت حتى انتفخت بطونهم ، وبسبب الجوع ووباء التيفوئيد فقد نصف الركاب أرواحهم حيث كان يتم دفن الموتى على عجل قرب سكة الحديد بلا كفن ، وبعد مسافات معينة كان يتم فك بعض المقطورات في أماكن مجهولة وانقطعت أوصال الأسر وضاعت ببعض أفرادها لفترة طويلة ، وأخير استقر الأحياء الباقون في منطقة أوشك القرغيزية ، وحذرونا من مغادرة مكان إقامتنا بالسجن لعشر سنوات ، وقد قمت بمساعدة زوجتي وابنتي بحفر جحر في الصخر لنتخذة مسكناً ، ثم أخذوني للعمل في مؤخرة الجيش أثناء الحرب الكونية الثانية ، وأثناء غيابي توفي ثلاثة من أولادي جوعاً" (للاستزادة راجع كردستان القوقازية ص ٦٩٥-٦٩٢).

العلاقات التركية العربية في ظل أزمات "الربيع العربي"

مركز الفرات للدراسات - وحدة الدراسات

كان الرئيس التركي، وهو في الوقت عينه، رئيس حزب العدالة والتنمية ذو التوجه الديني، يحتاج إلى دعم عربي، رسمي وشعبي، كي ينال لقب "أسد السنة"، ولكنه على ما يبدو لم يصل سوى إلى مرتبة "أسد الإخوان المسلمين"؛ إذ اصطدم طموحه العثماني هذا بعدة عقبات لم يكن بالإمكان تجاوزها.

ترى العديد من القراءات أن تركيا برئاسة أردوغان لم تتوقف منذ عام ٢٠١١ عن محاولة توظيف أنشطة جماعات الإسلام السياسي من أجل توسيع مجال نفوذها في العالم العربي، وذلك بعد أن فقد أمله في ضم بلاده إلى الاتحاد الأوروبي، مما أفقدتها ثقة الحكومات العربية، التي كانت قد بدأت ببناء علاقات استراتيجية معها؛ بحكم التجاور الجغرافي الإقليمي، وما يتعلق به من مصالح اقتصادية، ومنافع مادية؛ فضلاً عن ارتباطات تاريخية تتجلى في واقع الاتجاه الديني المشترك بين العرب والترك.

إن هذه العلاقات اليوم تعاني ضيقاً في الآفاق الاستراتيجية والدبلوماسية، بسبب الارتباط الوثيق بين حكومة العدالة والتنمية وجماعة الإخوان المسلمين، مقابل تهميش واضح لدور الدول العربية في القضايا الراهنة للمنطقة، فقد التف حول "العدالة والتنمية" حثالة المذهب السني من المتطرفين وقوى الإرهاب، وارتبطت بعلاقات قوية مع حركة حماس، وجماعة الإخوان المسلمين، وتنظيم القاعدة، وأخيراً تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وقد كانت هذه العلاقات على حساب التقارب مع الدول العربية ذوات السيادة والكيانات المنظمة؛ لا سيما المحور الخليجي - المصري مقابل المحور الإخواني العربي - التركي، وهو أمر يعود إلى تداعيات الدور التركي في الأزمات التي عصفت بالدول العربية وبلدان الشرق الأوسط؛ الأزمة التي يُعتقد بأن تركيا لن تكون بمنأى عنها في مراحل متقدمة - لاحقاً، وفيما يلي سنعرض بعض ما آل إليه الحال بينها وبين تلك الدول منذ بداية هذه الأزمات؛ فضلاً عن دراسة آفاق تلك العلاقات.

أولاً- العلاقات التركية- المصرية:

بلغت الاتفاقيات الموقعة بين مصر وتركيا بين عامي (٢٠١١-٢٠٠٧) أربع عشرة اتفاقية تجارية [١]، ولكن العلاقة لم تتطور إلى تعاون سياسي؛ إذ أن توسع الدور التركي في الشرق الأوسط بات يثير مخاوف مصر التي كانت تحتكر عدداً من ملفاته، كما كانت الجذور الإسلامية لحزب العدالة والتنمية مما لا يستسيغه نظام حسني مبارك الذي قضى فترة التسعينات في ضرب الجماعات الإسلامية وتحجيم أنشطتها في مصر.

إلا أن الملف الأخطر الذي شكل أزمة حقيقية بين تركيا ومصر كان الملف الفلسطيني الذي شهد تطوراً لافتاً بعد فوز "حماس" في انتخابات ٢٠٠٦ ثم سيطرتها على قطاع غزة المتاخم لمصر عام ٢٠٠٧، وهو ما استدعى حصاراً مصرياً إسرائيلياً محكماً للقطاع، وسبب انقساماً فلسطينياً بين السلطة الفلسطينية التي تسيطر عليها "فتح" وبين "حماس".

كان انفتاح تركيا على حركة حماس، التي كانت تتخذ من دمشق مقراً لها حتى عام ٢٠١١، ودخولها في ملف المصالحة الفلسطينية كوسيط بين السلطة الفلسطينية و"حماس"، أو لتخفيف التوتر بينهما، في سبيل تنشيط دورها في الشرق الأوسط، الذي كان منوطاً بمصر والجامعة العربية فقط، وكان "نجاح" تركيا في أداء هذا الدور؛ لا سيما بعد مواجهة أردوغان لشمعون بيريز في مؤتمر دافوس عام ٢٠٠٩ [٢] وإرساله سفينة "مافي مرمرة" عام ٢٠١٠ في محاولة لكسر حصار غزة، كان يستقطب تعاطفاً شعبياً عربياً وإسلامياً، وهو ما كان يشكل حرجاً سياسياً للأنظمة العربية التي شعرت بصعود نجم كل من تركيا وإيران اللتان جمع بينهما دعم حركة حماس، في الوقت الذي انحاز فيه النظام الرسمي العربي للسلطة الفلسطينية، وقد تسبب هذا الأمر بظهور حساسيات لم تستطع القنوات الدبلوماسية من إزالتها، حتى جاءت أزمة "الربيع العربي"، فاتسع الحرق على الراقع.

شهدت العلاقات المصرية التركية انقلاباً كبيراً مع تفجر الاحتجاجات المصرية في كانون الثاني ٢٠١١، حيث دعمتها تركيا منذ الأيام الأولى، ووجه أردوغان خطاباً لحسني مبارك يطالبه بالاستماع لرغبة شعبه [٣]، وأكدت أنقرة ذلك من خلال الزيارة التي قام بها الرئيس التركي عبدالله غول كأول رئيس يزور مصر بعد شهر من تنحي مبارك، وأعقب ذلك قبل نهاية العام الزيارة الشهيرة لأردوغان بصحبة ٢٠٨ رجل أعمال تركي وسط ترحيب كبير من أنصار الإخوان، وتم خلالها توقيع ٢٠ اتفاقية تجارية [٤] ويبدو أن ذلك أثار

حماسة التيار الإخواني المتطلع إلى بلوغ السلطة في مصر، وأسفرت الانتخابات عن فوز مرشحه محمد مرسي، فوجد كل منهما في الآخر ضالته.

فتح وصول مرسي إلى السلطة الطريق واسعاً أمام تركيا لتكوين خريطة جديدة في الشرق الأوسط، فأنقرة ستمثل مع مصر ثقلًا إقليمياً غير مسبوق منذ مائة عام على الأقل، ولم يمض شهران على توليه الحكم، إلا وكان مرسي مدعواً لحضور المؤتمر الرابع لحزب العدالة والتنمية في أيلول ٢٠١٢ [٥]، وحظي هناك بترحيب كبير من أوساط الحزب التركي، كما شهدت تلك الفترة سقفاً مرتفعاً في الموقف التركي - المصري من الحرب الإسرائيلية على غزة في تشرين الثاني ٢٠١٢، مما دعا إلى توجس إسرائيلي من هذا التقارب.

انهارت الأحلام التركية فجأة تحت وقع صدمة الانقلاب العسكري الذي نفذه وزير الدفاع المصري آنذاك عبد الفتاح السيسي، في ٣ تموز ٢٠١٣ [٦]، ولا يخفى على أحد أنه انقلابٌ نفذه المعسكر المعادي لأردوغان في منطقة الشرق الأوسط بدءاً من إسرائيل ومروراً بالإمارات والسعودية، وكذلك إيران التي أزعجها موقف مرسي من الأزمة السورية ولم تجد فيه الخليف المأمول.

كان الموقف التركي حاداً وصلباً تجاه الانقلاب العسكري في مصر، فقد وفرت أنقرة للمعارضة المصرية التي لجأت إليها، وسائل إعلام تهاجم الانقلاب العسكري وسياسته، واستضافت المؤتمرات والفعاليات السياسية لهم، إلا أن ضعف المعارضة وعجزها عن إدارة المعركة مع النظام في مصر انعكس على مستوى التصلب التركي المتمثل بطلب عودة مرسي إلى الحكم، والتراجع تدريجياً إلى المطالبة بإسقاط حكم الإعدام عنه.

أعلنت مصر جماعة الإخوان المسلمين تنظيمًا إرهابياً أواخر عام ٢٠١٣ [٧]، وكان النظام المصري الجديد قد بدأ بشنّ حملات سياسية وإعلامية ودبلوماسية عنيفة ضد تركيا، وخصص العديد من مقدرات مصر ومجهودها لتشويه وإعاقة السياسة التركية، وتحركت المؤسسات المصرية بالتوافق مع إسرائيل والإمارات في محاولة لتحطيم النفوذ التركي، وعقدت مصر اتفاقيات مع قبرص واليونان لترسيم الحدود البحرية، التي تضيّع على تركيا حقولاً نفطية في منطقة شرق المتوسط، وتم تعزيزها بمنتدى "غاز شرق المتوسط" في القاهرة في كانون الثاني ٢٠١٩

لا تزال المسافة بين مصر وتركيا بعيدة، فالعلاقات بين الجانبين تسير في مسارات متقاطعة ومتعاكسة، ولا أفق للتقارب فيما بينها، فالتوجه الإخواني لحكومة العدالة والتنمية في تركيا تلزمها بالسير عكس توجه النموذج العلماني الذي يبدو أنه لن يتصالح مع الإخوان المسلمين في مصر في المستقبل القريب.

ثانياً- العلاقات التركية مع الدول العربية في شمال إفريقيا:

استطاعت حكومة العدالة والتنمية من اختراق الصف العربي في شمال إفريقيا من بوابة تونس، وبالتحديد من خلال حركة النهضة الإسلامية، الإخوانية الاتجاه، التي توصف بأنها "وكيل تركيا في البلاد"، حيث استمرت في الحفاظ على علاقات استراتيجية، واقتصادية، وعسكرية متينة مع هذا البلد، وسط هواجس مختلف الأوساط السياسية والشعبية من التغلغل التركي، وتحوّل تونس إلى قاعدة خلفية لها، فقد تعالت الأصوات التي حذرت من مخاطر هذا التغلغل الذي توسع منذ زيارة أردوغان لتونس في ٢٧ كانون الأول ٢٠١٧ في سياق جولة إفريقية شملت إلى جانب تونس كلاً من السودان وتشاد، حيث كشفت عن طموحات تركية عسكرية في عموم المنطقة، وقد جاءت إحدى هذه التحذيرات من مباركة براهمي، النائبة في البرلمان التونسي بقولها: "إن ثمة مؤشرات تدل على أن السلطات التونسية لم تتعظ، ولا تريد أن تتعظ من تجارب الدول الأخرى التي اكتوت بنار التورط التركي في دعم جماعة الإخوان المسلمين، ومختلف تنظيمات الإسلام السياسي التي تدور في فلكها، والتأمر على أمنها واستقرارها" وأضافت بأن "التورط التركي في تونس كان واضحاً لمختلف الفاعلين السياسيين، ذلك أن المشهد السياسي الحالي الذي يتسم باختلال التوازن لصالح حركة النهضة الإسلامية المحسوبة على جماعة الإخوان المسلمين، ما كان ليتشكل على هذا النحو لولا تدخل المال القطري والتركي" [٨].

إن افتتاح تركيا قاعدة تدريب عسكرية في الصومال، وبناء مرسى لصيانة السفن الحربية في السودان؛ فضلاً عن سماح السلطات القطرية لها بنشر دفعة جديدة من جنودها في قطر في إطار اتفاقية دفاع مشترك بين البلدين، يعني أن المخطط التركي يخفي أطماعاً توسعية تتجاوز في أبعادها تونس لتشمل المنطقة بأسرها.

يظهر هذا الاتجاه بشكل واضح في مسار العلاقات التركية مع ليبيا، فأنقرة تتدخل بجرأة متناهية في ليبيا البعيدة عن حدودها منذ اندلاع أزمتها التي تدخل عامها التاسع، من دون أن تواجه أي اعتراض واضح من المجتمع الدولي.

إن العنوان الأبرز في السياسة التركية تجاه الأزمة الليبية كان التناقض والتعارض، فمع بداية الاحتجاجات في ١٥ شباط ٢٠١١ ضد حكم معمر القذافي تحفظت أنقرة بشكل عام إزاء التدخلات الخارجية في ليبيا، وعارضت فرض العقوبات، وخطط التدخل العسكري بقيادة فرنسا ثم الناتو، وبدت تركيا أقرب إلى تبني

مدخل الإسهام في جهود الإغاثة الإنسانية، مع الإبقاء على قنوات مفتوحة مع طرفي الصراع لأداء دور الوسيط.

ومع سقوط نظام القذافي في تشرين الأول ٢٠١١ اتجهت أنقرة إلى تقديم كافة أوجه الدعم للتنظيمات الإرهابية، الممثلة في "حزب العدالة والبناء"، الذراع السياسي لتنظيم الإخوان المسلمين، ومليشيات مدينة مصراتة بالغرب الليبي، كما قدمت أنقرة دعماً لتحالف "فجر ليبيا" في مواجهة "عملية الكرامة" التي أطلقها الجيش الليبي في مايو ٢٠١٤ بقيادة "خليفة حفتر"، وهو ما تسبب في توتر علاقاتها مع الشرق الليبي، حيث وجه قائد الجيش الليبي في الشرق "خليفة حفتر" اتهامات لتركيا بدعم "الإرهاب" في ليبيا، وأصدرت حكومة الشرق الليبي قراراً بإيقاف التعامل مع كافة الشركات التركية في ليبيا رداً على سياساتها الداعمة لتحالف "فجر ليبيا".

لم تتوقف تركيا عن إرسال السفن المحملة بالأسلحة إلى الميليشيات النشطة في ليبيا، والتي تم ضبط العديد منها أمام مرأى ومسمع العالم بأسره، واكتفت بعثة الأمم المتحدة بتغريدات تويترية تشير فيها إلى أن ليبيا بحاجة إلى السلام وليس للمزيد من الأسلحة" [٩]. ف الأصابع التركية في الأزمة الليبية لم تعد تعمل في الخفاء، لكن هناك تعمد واضح لتجاهل هذا الدور، ولازال الحال ينتظر حلاً، وهو بعيد المنال في المدى المنظور؛ إذ لازالت تركيا تعمل على تقوية وجود القوى الإسلامية، وجعلها عنصراً رئيسياً في المجتمع السياسي الليبي.

إن الغاية التركية تكمن في توسيع النطاق والتمدد في شمال إفريقيا بدءاً من المغرب وصولاً إلى مصر ومروراً بالسودان، لإجبار هذه المنطقة على التسليم بهذه التركيبة، التي ثبت أنها أحد عناصر الخلل في المنطقة، وذلك للحصول على نفوذٍ شبيه بالنمط العثماني من خلال شركائها الإخوان، مهما كلف المنطقة من ثمن. ومن الأسباب المادية الأخرى التي تدفع تركيا في هذا الاتجاه هو السعي للحفاظ على استثماراتها هناك، وضمان الحصول على حصة جيدة للشركات التابعة لها، ومنع خروج الأموال الليبية من تركيا، وتقدر بنحو ٢١ مليار دولار، غالبيتها منذ حكم معمر القذافي [١٠]؛ فضلاً عن أموال الجماعات الإسلامية بمختلف مشاربها، التي حولت تركيا إلى ما يشبه بنوك إيداع لها.

تشير تقارير صحفية إلى أن الأراضي التركية تحتضن أكبر تجمع للإسلاميين في العالم، وفي مقدمتهم إسلاميو ليبيا، وقد قدمت تركيا خدمات لوجستية عديدة، وفتحت خطوط طيران مباشرة بين أنقرة وكل من مصراتة ومطارها معيتيقة، وهي المناطق التي كان يسيطر عليها عبد الحكيم بلحاج زعيم الجماعة الليبية المقاتلة

هناك [١١]. كما كشف موقع ويكليكس في تموز ٢٠١٦ جانباً مهماً عن طبيعة الدور التركي، وهو موضوع نقل أموال بلحاج من خلال رسالة صادرة عبر بريده الإلكتروني عام ٢٠١٣ يطلب فيها من مصرف تركي تابع لحزب العدالة والتنمية الحاكم مساعدته لتهريب مبالغ مالية لأجل المحافظة عليها واستثمارها، مقابل عمولة ٢٥% من المبلغ الذي قُدرت قيمته بـ ١٥ مليون دولار [١٢].

تتحرك تركيا اليوم على الساحة الليبية في خطوط متوازية، فهي تقدم دعماً لافتاً للكتائب المسلحة، وتدعم العناصر الموالية لها، وتستقطب القيادات التي تقبل التعاون معها، حتى لو كانت لا تحمل مواقف أيديولوجية واضحة ومؤيدة لها. كما أنها تعمل في المستوى السياسي والدبلوماسي على تقديم الدعم لـ رئيس المجلس الرئاسي ورئيس حكومة الوفاق فايز السراج، والتيار المؤيد له، وتغض الطرف في التعامل مع خليفة حفتر، قائد الجيش الوطني الليبي، لأنه يعمل ضد التوجهات الإسلامية والدول الداعمة لها، لذا فهي تحاول تقليص نفوذه عبر مواصلة السخاء المادي والسياسي للسراج مقابل جلب المعوقات والمشاكل لحفتر [١٣].

تطالب القيادة العامة للقوات المسلحة الليبية مجلس الأمن الدولي والأمم المتحدة بإدانة تركيا وفتح تحقيق حول هذه الممارسات؛ ولاسيما بما يتعلق بشحنات الأسلحة التي تم ضبطها أواخر العام ٢٠١٨، وبداية عام ٢٠١٩، والتي تشكل خرقاً للقرار الدولي ١٩٧٣ عام ٢٠١١ بشأن حظر توريد الأسلحة لليبي، وقد بدأ عدد من نشطاء المجتمع المدني، والسياسيين والحقوقيين، والإعلاميين، والمهتمين بالشأن العام بإصدار بيانات تخص التدخلات التركية [١٤]، ومن غير المستبعد التحرك باتجاه المجتمع الدولي لمحاسبة أنقرة على جرائمها في ليبيا، مما قد يسمح بفتح ملفات أخرى من سجل التجاوزات التركية في غيرها من الأماكن.

وطالما أن الحديث يدور حول الدور التركي في المناطق العربية في إفريقيا فلا ضير من الإشارة إلى امتداد الأذرع التركية إلى حركة الشباب الصومالية وطبيعة العلاقة بين الطرفين، ففي أدلة جديدة على علاقة تركيا بالتنظيمات المتطرفة، ظهرت معلومات مستقاة من وثائق قضائية أن وكالة الاستخبارات التركية أرسلت مئات الآلاف من الدولارات إلى حركة الشباب الصومالية، وذلك عن طريق أحد المعتقلين السابقين في سجن غوانتانامو، ويدعى إبراهيم شين، وكان قد تم اعتقاله في باكستان لصلته بتنظيم القاعدة، وتبين أنه يعمل لصالح الاستخبارات التركية، وكان يشرف على عملية نقل الإرهابيين من وإلى سوريا [١٥]؛ إضافة إلى تقارير أخرى تشير إلى تمويل قطر، حليفة تركيا الأولى، للمنظمات المتطرفة في الصومال، مما يجعل هذا البلد يعيش مأساة الإرهاب إلى يومنا هذا.

كما تم تسريب بعض المعلومات السرية حول تورط تركيا في تسليح جماعة بوكو حرام، ولم تعلق أنقرة بشكل رسمي على هذه المعلومات، إلا أنها قامت بتجميد أصول وأرصدة مملوكة للحركة في تركيا، وهو ما يثير الكثير من التساؤلات حول مدى العلاقة التي تربطها ببوكو حرام خلال الفترة الماضية، وكيفية حصولها على هذه الأموال. وقد جاء قرار تجميد الأصول المملوكة للحركة بعدما صنفتها كمنظمة إرهابية في ١٠ حزيران ٢٠١٤ [١٦]، إلا أن تقارير إعلامية حديثة لازالت تثير الشبهات حول تلك العلاقة.

ثالثاً- العلاقات التركية الأردنية:

ليست العلاقات التركية- الأردنية بمنأى عن تأثير جماعة الإخوان المسلمين، لكنه سار في اتجاه مغاير؛ فضلاً عن الوضع الاقتصادي للأردن، فإن حاجة عمان في الحصول على دعم هذه الجماعة دفع باتجاه التقارب مع تركيا وبناء العلاقات معها رغم مخاوف القيادة السياسية الأردنية الشديدة حيال أهداف الإخوان المسلمين، فقد ظلّ موضوع التغلغل التركي في الأردن عبر تنظيم الإخوان المسلمين، الذي يعتبر الحزب الوحيد الذي يمتلك قاعدة واسعة في المملكة، يشغل بال كبار المسؤولين في عمان، ولكنّ هؤلاء وجدوا أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه بعد تفاقم الأزمة الاقتصادية في المملكة والشعور بالحاجة إلى ضبط الشارع.

تأسست جماعة الإخوان المسلمين في الأردن عام ١٩٤٦ على يد عبداللطيف أبو قورة [١٧]، وتم التصديق على وضعها القانوني باعتبارها جمعية في مرسوم وقع عليه رئيس الوزراء، وفي عام ١٩٩٢ صدر قانون تنظيم عملية تشكيل الأحزاب السياسية وكوّن الإخوان حزب "جبهة العمل الإسلامي"، الذي بات الذراع السياسي للحركة [١٨].

إن بوادر أزمة سياسية بين الأردن وتركيا تلوح في الأفق، وذلك من خلال مؤشرات عدة منها: أولاً، سياسة التوسع التركية في شمال إفريقيا والقرن الإفريقي والخليج العربي وسوريا، وثانياً: اعتبار الناتو الأردن بديلاً مناسباً فيما لو تم إغلاق قاعدة أنجريك التركية.

ويضاف إلى ما سبق سعي أردوغان للتوغل في الأحياء العربية في مدينة القدس بطرق غير مباشرة، وقد أعربت الجهات العربية عن قلقها من أن التمرکز التركي يهدف إلى السماح لأردوغان بأن يكون مسيطراً على القدس، وهو أمرٌ يعكس غايات أنقرة السياسية. فقد أشارت صحيفة "هاآرتس" الإسرائيلية بأن إسرائيل تراقب هذه الظاهرة، وتعمل على اجتثاثها، حيث اكتشف الأمن الإسرائيلي بأن الأتراك يحاولون شراء عقارات لترسيخ مكانتهم بواسطة جمعيات تدعم المواطنين في القدس الشرقية، وهو أمر يثير قلق السلطة

الفلسطينية نفسها؛ فضلاً عن القلق الذي يساور المملكة الأردنية الهاشمية، التي تخشى أن يتم تسخير النشاطات التركية لزعزعة مكانتها ومسؤوليتها عن الأماكن المقدسة في القدس، وأن تسيطر حماس وجهات إسلامية تعارض سياسة الأردن في المنطقة وفي القدس الشرقية [١٩].

رابعاً- العلاقات التركية الخليجية:

١-العلاقات التركية السعودية:

وقفت السعودية وتركيا في بدايات الأزمات العربية مواقف متباينة؛ ولا سيما أثناء سقوط حسني مبارك، إذ امتعضت السعودية ل سقوط حليفها، في حين أن أردوغان ظهر بمظهر الحليف والداعم لهذا الحراك، ولم تتوافق الرؤى إلا في الحالة السورية ولفترة قصيرة ومؤقتة، ولعل ما جمع الطرفين هو فقط التوافق على إسقاط النظام السوري، بينما اختلف الطرفان كثيراً حول طريقة التعامل مع الفصائل المقاتلة، فقد رفضت السعودية على لسان وزير خارجيتها حينذاك سعود الفيصل عام ٢٠١٣ أي دور لتركيا في الملف السوري، وقد أدى ذلك إلى أزمة استخباراتية بين الطرفين آنذاك.

بعد وفاة الملك السعودي عبد الله بن عبد العزيز عام ٢٠١٤، بدا خليفته الملك سلمان بن عبد العزيز وكأنه يتخذ نهجاً مغايراً لنهج سلفه، فقد حاول أن يرمم العلاقات مع تركيا، وكانت تركيا تتشوق لهذه اللحظة، أنها باتت تعاني العزلة السياسية؛ بسبب زوال حكم مرسي، وتأزم الثورة السورية، والتباعد المستمر في المواقف التركية الأمريكية [٢٠]، في الوقت الذي ظل الملف المصري أحد الملفات العالقة بين الجانبين، فالسعودية لم تشهد تغييراً يصل بها إلى حدّ التفكير في مراجعة سياستها إزاء مصر، ولهذا بدأ الموقف التركي يتغيّر تدريجياً ف يتراجع عن اشتراط عودة مرسي إلى اشتراط الإفراج عن مرسي من السجن قبل فتح علاقة مع مصر، ثم إلى اشتراط إسقاط حكم الإعدام عن مرسي، وبدأ التلويح بإمكانية استمرار العلاقات الاقتصادية أو حتى العلاقات على المستوى الوزاري. ولتعزيز هذه العلاقات قام أردوغان بثلاث زيارات للسعودية خلال عام واحد، كان أولها عندما قطع جولة إفريقية أواخر كانون الثاني ٢٠١٥ من أجل الوصول للرياض لمقابلة الملك سلمان بعد توليه الحكم [٢١].

توترت العلاقات الثنائية التركية الروسية على خلفية الأزمة السورية، وكانت تركيا تستورد منها أكثر من نصف احتياجها من الغاز الطبيعي، فكان عليها أن تبحث عن أكثر من مصدر للطاقة فتوجهت إلى قطر، والسعودية، وأذربيجان، وكردستان العراق.

إلا أن سياسة الملك سلمان لم تستمر على هذا النهج، بل ظهر تحول كبير وهو محاولته تأمين العرش السعودي ليتولاه ابنه محمد بن سلمان، وهي خطوة تحدث للمرة الأولى منذ تأسيس الدولة السعودية الثالثة على يد الملك الراحل عبد العزيز آل سعود.

تدهورت العلاقات السعودية التركية بشكل متسارع؛ لا سيما بعد أن تبادل ولي العهد السعودي محمد بن سلمان ورجب طيب أردوغان الانتقادات، فقد أفصح أردوغان بأنه ليس هناك ما يسمى "الإسلام المعتدل" أو غير المعتدل "بل هناك "إسلام واحد"، وذلك رداً على ولي العهد السعودي الذي صرح برغبته في إعادة السعودية إلى "الإسلام الوسطي المعتدل" [٢٢]، وكذلك رداً على ما أشار إليه ولي العهد بأن تركيا-العثمانية هي أحد أضلاع "مثلث الشر"، إلى جانب إيران والمتطرفين الإسلاميين [٢٣]، وهو ما يضاف إلى خصومة إقليمية مستمرة بين البلدين منذ عقود، وتمتد جذورها إلى أيام الاستعمار العثماني. فقد حذر محمد بن سلمان من طموحات أردوغان وسعيه لإعادة بناء "الخلافة العثمانية" من أجل السيطرة على مقدرات المنطقة والهيمنة على العالم الإسلامي، ومن مخاطر دعمه للجماعات الإرهابية المسلحة العاملة في الأراضي العربية، كما عليه الحال في سوريا وليبيا وغيرها.

شنت الصحافة التركية هجوماً عنيفاً على ولي العهد السعودي، واستمر هذا العداء إلى أيامنا هذه، وهو ما يفسر استماتة أنقرة والدوحة في إلقاء اللوم على محمد بن سلمان في قضية مقتل الصحفي السعودي جمال خاشقجي.

تنظر السعودية اليوم إلى تركيا على أنها تقف في محور الأعداء، وكان المسار الذي اتخذته عموماً هو فتح العلاقات مع إسرائيل وتوثيق العلاقات مع الإمارات، فعاد تموضع السعودية في الخريطة الإقليمية ليكون ضد السياسة التركية، وتحدث العديد من المصادر التي لا يمكن توثيقها بشكل مؤكد في الوقت الحالي حول مشاركة سعودية فعالة في محاولة الانقلاب العسكري الذي جرى في تركيا ١٥ تموز ٢٠١٦.

٢- العلاقات التركية الإماراتية:

"إن العلاقات العربية التركية ليست في أحسن حالاتها، ولعودة التوازن على أنقرة أن تراعي السيادة العربية وأن تتعامل مع جوارها بحكمة وعقلانية" هذا ما صرح به أنور قرقاش، وزير الدولة الإماراتي للشؤون الخارجية، في إحدى تغريداته عبر "تويتر" [٢٤]، وهو يعكس ما آلت إليه العلاقات التركية العربية، ومنها الإماراتية؛ إذ تقف الدولتان على طرفي نقيض في الكثير من المجالات، إلا أن المسألة السياسية المرتبطة بالتطورات

الإقليمية الراهنة، وتوسع الخلافات السياسية والمنطلقات الأيديولوجية أسهمت في تفاقم سوء العلاقات التركية الإماراتية، ف المنصات الإعلامية التركية لا تتوانى في الإعلان والتلميح عن تورط الإمارات في مخططات ضد تركيا بشكل مباشر وغير مباشر، كما لم يكن مستغرباً استثناء أردوغان دولة الإمارات من جولته الخليجية في شباط ٢٠١٧، والتي شملت السعودية وقطر والبحرين [٢٥].

إن نقطة الخلاف بين حكومة العدالة والتنمية ودولة الإمارات هي العلاقة التي تجمع بين أردوغان وجماعة الإخوان المسلمين، وهي علاقة قديمة بدأت في حقبة السبعينات من القرن الماضي، وبالتحديد في عهد رئيس الوزراء السابق نجم الدين أربكان، القدوة السياسية لأردوغان، في حين كانت حكومة الإمارات العربية المتحدة في خلاف وصراع طويل مع الإخوان المسلمين، ومن هذا المنطلق فقد أضافت قضية الإطاحة بحكم الرئيس المصري السابق محمد مرسي، الذي عزله الجيش بانقلاب عسكري في تموز ٢٠١٣، سبباً جديداً لاتساع فجوة الخلافات بين أنقرة وأبو ظبي؛ إذ أشار المسؤولون الأتراك إلى أن الإمارات كانت أحد أبرز الداعمين لهذا الانقلاب. وبالمقابل، اعتمد مجلس الوزراء الإماراتي في آذار ٢٠١٤ قائمة بالمنظمات الإرهابية من ضمنها الإخوان المسلمين، وأبرزها جماعة الإخوان الإماراتية (جمعية الإصلاح) [٢٦].

لم تفوت حكومة العدالة والتنمية فرصة الانقلاب الفاشل في تركيا لتوجيه الاتهامات إلى الإمارات بدعمها لهذا الانقلاب؛ بحجة أن بعض القنوات الإعلامية التي تبث من الإمارات (كقناة سكاي نيوز العربية) أعلنت دعمها للانقلاب أو أنها تعاطفت معه.

أرخت الأزمة الخليجية بظلالها على العلاقات التركية - الخليجية، ومنها العلاقات التركية - الإماراتية، فترامناً مع بروز ملامح هذه الأزمة وما رافقها من حصار دبلوماسي واقتصادي من جانب السعودية والإمارات والبحرين ومصر، على قطر، أعلن أردوغان عن دعمه المستمر لقطر، وكان قد تم إرسال أول قوة عسكرية في تشرين الأول ٢٠١٥ إلى قاعدة الريان بالقرب من الدوحة [٢٧].

ومن المستبعد تماماً أن يتخلى أردوغان عن موطن القدم هذا في الخليج، وهو ما يثير مخاوف الإمارات والسعودية، كما أنه مؤشر إضافي إلى مساعي تركيا في التوسع الإقليمي في الشرق الأوسط.

وفي الأزمة السورية، انتقدت الإمارات النهج التنافسي والتحريري لكل من إيران وتركيا لطرفي النزاع في سوريا، الأمر الذي يعكس تطلعات توسعية استعمارية لكلا الدولتين في سوريا وغيرها من الدول. واعتبرت

الإمارات عملية إسقاط المقاتلة الروسية في سوريا عملاً إرهابياً، كما وقفت ضد العملية التي خاضها الجيش التركي والفصائل الإسلامية المتطرفة ضد وحدات حماية الشعب في عفرين.

تباينت مواقف الدولتين حول ليبيا أيضاً، فتركيا وقطر تدعمان الفصائل المسلحة في حين أن المحور المصري-الإماراتي يدعم قوات العقيد خليفة حفتر، كما يصطف المحورين على طرفي نقيض بالنسبة للفرقاء في القضية الفلسطينية.

إن التمدد الذي يجزه الأتراك في منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي جاء على حساب الإمارات أكثر من أية دولة أخرى، وذلك لأن هذا التمدد قد يخدم تنظيم الإخوان في مصر والسودان، ويهدد ممرات الشحن الرئيسية في العالم. وقد منيت الإمارات بخسائر متتالية في هذه المنطقة، بسبب الصراع الاقتصادي والاستراتيجي بينها وبين تركيا، والذي ازداد حدة بعد الانشقاق القطري عن السرب الخليجي، فقد فقدت أكثر من موطن قدم في القرن الإفريقي؛ إذ ألغت جيبوتي- بتحريض تركي- عقد الامتياز الممنوح لمجموعة موانئ دبي العالمية الذي يقضي بأن تتولى تشغيل محطة "دوراليه" لحاويات الشحن لمدة خمسين عاماً، كما ظهرت بوادر أزمة سياسية بينها وبين الصومال ل إبرامها عقداً مع إقليم "أرض الصومال" غير المعترف باستقلاله دولياً [٢٨].

٣- العلاقات التركية- القطرية:

لجأت تركيا إلى قطر لتزويدها بالغاز عقب أزمة إسقاط الطائرة الروسية على الأراضي التركية، بعد أن قامت موسكو بفرض عقوبات تجارية على تركيا، وكان لقطر دور مهم في تخفيف حدة تأثير هذه العقوبات على تركيا، خاصة في مجال الطاقة. وفي ظل احتدام الصراع الجيوسراتيجي في منطقة الشرق الأوسط، بين موسكو وواشنطن من جهة، والسعودية وإيران من جهة أخرى.

وجدت تركيا في قطر الحليف الاستراتيجي الوحيد المتبقي لها في منطقة تشهد سياسة استقطاب قوية، وقد جاءت اتفاقية التعاون العسكري بين البلدين عام ٢٠١٥ لتؤكد عمق العلاقة بينهما؛ إذ وقفت قطر مع تركيا في مواجهة محاولة الانقلاب التركية، وردّت تركيا بدعم سريع وغير محدود ل حليفها قطر بعد تعرضها للحصار خلال الأزمة الخليجية، وتمثل في مد جسر جوي وبحري لنقل البضائع والمعدات إلى السوق القطرية، كما أن حجم التبادلات التجارية وصلت لمستويات قياسية [٢٩]، وقد جمعت اجتماعات القمة بين الرئيس

التركي وأمير قطر ما يقارب ١٥ قمة، وأبرزت توقيع نحو ٤٠ اتفاقية في مجالات مختلفة [٣٠]، ولكن ما سر هذا التقارب؟

إن أكثر ما جعل التقارب ممكناً وقوياً بين هذين البلدين، هو تبني قطر لمنظمة الإخوان المسلمين، وتأمين الحماية والملاذ لها، وقد تمكنت هذه الجماعة من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وعبر العديد من دعايتها أمثال يوسف القرضاوي وغيره، من الوصول إلى شريحة واسعة من العالمين العربي والإسلامي، وترافق هذا النشاط مع بروز اتجاهات حزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا، وقد اتضح ملامح هذا التلاحم مع بداية أزمت "الربيع العربي"، حيث تم كشف العديد من التقاطعات التي كانت تجمع هاتين الدولتين في تعاملهما ودعمهما لقوى الإرهاب في العالم العربي، وهي الآن أصبحت مكشوفة. كما إن المصالح الاستراتيجية، والاقتصادية، والسياسية جمعت الدولتين اللتين أصبحتا تعانيان من العزلة أكثر من دول الأزمت نفسها، وكان ذلك كافياً ليزيد من حالة التقارب الذي استغلته تركيا في خدمة سياستها التوسعية؛ إذ تمكنت من نشر آلاف الجنود الأتراك على الأراضي القطرية، حسب بنود اتفاقية عسكرية سرية تم الكشف عنها مؤخراً، وتبين أن أحد أهم بنودها، يفيد بعدم جواز ملاحقة أي جندي تركي متواجد في قطر، ولا محاكمته في حال ارتكابه أي انتهاكات قانونية، كما تبين أيضاً بأن هذه الاتفاقية لا تجيز اللجوء إلى طرف ثالث، دولة كانت أو منظمة دولية، من أجل فض النزاعات أو الخلافات التي يمكن أن تنشأ عنها بين الدولتين [٣١].

ثمّة مؤشرات عدة على علاقة ما، تجمع بين الإخوان المسلمين وإيران، وهو تحالف خفي بينهما، ولا يظهر إلا عندما يشتد الخطر على أحدهما، وأحد خيوطه استضافة إيران لقيادات إخوانية، وسماعها للإخوان الإيرانيين بالتظاهر في أحد أشهر ميادين طهران للتنديد بالرئيس المصري عبد الفتاح السيسي، والعلاقة الجيدة بين إيران وحماس؛ فضلاً عن تلقف إيران لقطر، على اعتبارها الملاذ الآمن للإخوان، وفتح الباب أمامها أيام الأزمة الخليجية والحصار الخليجي - المصري عليها، ثم أن قطر أصبحت الآن تقف في الصف الإيراني - الحوثي في مواجهة التحالف العربي بقيادة السعودية في اليمن. وبالإجمال فقد تشكّل محورين أساسيين من هذه العملية وهما: المحور السعودي - الإماراتي - المصري - الإسرائيلي، والمحور التركي - القطري - الإيراني.

خامساً- العلاقات التركية - العراقية:

اتسمت العلاقة التركية - العراقية بالتجاذب والتنافر الدائم نتيجة الجوار الجغرافي والمصالح المشتركة بين البلدين من جهة، وبين الأطماع التركية التي ورثتها من تركة السلطنة العثمانية من جهة أخرى؛ لا سيما مسألة ترسيم الحدود بين البلدين منذ عام ١٩٢٦ التي لم ترض أي من الطرفين وبالأخص تركيا التي ظلت متمسكة بفكرة أحقيتها بامتلاك كركوك والموصل من خلال "الميثاق الملّي" [٣٢].

تركيا كانت من أوائل الدول التي اعترفت بالعراق عام ١٩٢٧ وشهدت العلاقات بين البلدين نمواً لافتاً بسبب مصالحتها المشتركة حيث نهري دجلة والفرات وروافدهما، وأيضاً امتلاك العراق خزائناً نفطياً؛ فضلاً عن الوجود الكردي والتركماني في العراق.

وقفت تركيا ضد الدخول الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣، ومنعت من استخدام قاعدة أنجريك منطلقاً للجيش الأمريكي، وبذلك أصبحت في موقف المعادي للحكومة العراقية الجديدة، إبان إسقاط نظام صدام حسين، وأخذت تركز بعد ذلك على وجودها في إقليم كردستان العراق، واستكمال هدفها في محاربة حزب العمال الكردستاني وفق الاتفاقيات السابقة بينها وبين الحكومة العراقية وحكومة الإقليم، فقد استمرت من جانبها بالتوغّل داخل الأراضي العراقية لمرات عدة دون إخطار الحكومة العراقية، ناهيك عن إنشائها ٢١ قاعدة عسكرية وأمنية في كردستان العراق، رغم المعارضة الشعبية والحكومية العراقية لها.

مع ظهور بوادر ضعف جماعة الإخوان المسلمين، كقوة معارضة، وفشلها في تغيير مجرى الأحداث على غرار ما حدث في مصر وتونس، قرّر أردوغان، الذي كان حينها رئيساً للحكومة، ومأخوذاً بحلم بسط النفوذ الإخواني في منطقة الشرق الأوسط، التوجّه إلى الجناح الدموي المتطرف لتحويل وجهة الصراع في سوريا من ثورة سلمية لإسقاط النظام إلى حرب مسلّحة، ففتحت أنقرة الحدود التركية السورية للمقاتلين الأجانب للتدفق إلى سوريا، ومنها إلى العراق لاحقاً، وسهّلت تنقل الجهاديين عبر مناطقها الجنوبية المفتوحة على الشمال السوري مع تقديم الإمدادات اللوجستية، ومنحهم حرية حركة الأموال، ولم يعدّ هناك شكّ من أنه لولا تلك المساعدة، لما تمتّع تنظيم داعش بالقوة التي مكّنته من الاستيلاء على تلك المساحة الشاسعة بين سوريا والعراق [٣٣].

دعمت تركيا التنظيمات المتطرفة، وتحالفت معها بشكل وثيق في سوريا والعراق، وهو ما أكّده الرئيس التركي السابق عبد الله غول بقوله: "إن جاره الداعشي لا يشكل خطراً على الأمن القومي التركي، وبأنه لا

يشكل تهديداً أيديولوجياً على تركيا"، ووصف غول، داعش بأنها "حركة سياسية لا دينية". ومن جهة أخرى، فقد حدّر القنصل التركي في مدينة الموصل، من تقدم تنظيم "الدولة الإسلامية" نحو الموصل، وجاء الرد من أنقرة بأن: "داعش ليس خصماً لنا" [٣٤]. وعندما شنّ التنظيم الهجوم على شنكال والموصل عام ٢٠١٤، تم اعتقال عددٍ من الدبلوماسيين الترك وموظفي القنصلية التركية ومن سائقي الشاحنات التركية مع عائلاتهم، بلغ عددهم نحو (٤٦) فرداً، وما لبث أن أطلق التنظيم سراحهم بطريقة غريبة، في سابقة غير معتادة من تعامل التنظيم المتطرف مع مخطوفيه [٣٥].

تتوغل القوات التركية في العراق بحجة ملاحقة عناصر حزب العمال الكردستاني، وتبرر ذلك باستهداف "جماعة إرهابية شمال العراق"، وهي حجة تغضب الشارع العراقي الذي يرفض التجاوزات التركية في البلاد. كما وقفت الدولة العراقية بكل قوة أمام طموحات أردوغان وسعيه للتدخل عسكرياً في شنكال، ورفضت أي عمليات عسكرية تركية داخل الأراضي العراقية.

لم يتوقف التأمر التركي على العراق بالتدخل عسكرياً ومحاولة الدفع بقوات عسكرية ضخمة إلى إقليم كردستان، بل وصل بها الأمر بالتدخل في الحياة السياسية العراقية واحتضان اجتماعات تضم عناصر تتبع جماعة الإخوان، وبعض القوى المتحالفة معها في العراق، وذلك بهدف رسم سيناريو يعزز موقف الإخوان خدمة للمشروع التركي الذي يسعى لنهب ثروات الدولة العراقية، وكان التدخل عبارة عن مخطط تركي - قطري يهدف إلى دعم جماعات الإخوان والقوى السنية العراقية التي تدور في فلكها، وذلك بإنشاء هيئة سنية. وأكدت تقارير إعلامية عراقية أن المخطط التركي يهدف إلى إقامة إقليم سني مواز لإقليم كردستان [٣٦].

هذا بالإضافة إلى استخدام حكومة العدالة والتنمية ملف المياه للضغط على بغداد لتحقيق أجنداتها السياسية والاقتصادية في العراق، مثل اللجوء إلى سياسة "النفط مقابل المياه"، وهو ما قد يضع البلدين أما اختبار حقيقي للعلاقات الدبلوماسية بينهما.

خامساً- العلاقات التركية- السورية:

لم تطل سنين العسل بين تركيا وسوريا، حيث تفجّرت أزمات "الربيع العربي"، وامتدت نحو سوريا، حيث دخلت تركيا على خط الحدث السوري وقررت سحب العاملين في سفارتها بدمشق، وإعلان موقفها الذي

تمثل بـ "نصرة الشعب السوري"، والوقوف إلى جانب "الثوار"، ف أسهمت تركيا في الأزمة السورية بشكل فعال جداً وكانت من أكثر المحرضين- إلى جانب قطر- على تأجيج الأوضاع، حتى وصل الحال على ما هو عليه، فقد دعمت وساندت معظم الفصائل المسلحة، وكانت البوابة الرئيسية لدخول المتطرفين إلى سوريا والخروج منها، وتم توثيق علاقاتها مع معظم الفصائل المقاتلة، وعلى رأسها الأكثر تطرفاً، داعش والنصرة وحركة نور الدين الزنكي وغيرها، وهو موضوع شائك ومعقد، وبحاجة إلى دراسة خاصة.

تدخلت عسكرياً فاحتلت المنطقة ما بين جرابلس واعزاز في عملية "درع الفرات" عام ٢٠١٦، مقابل بيع مناطق كانت تحت سيطرة قوات المعارضة (مدينة حلب)، ثم احتلت عفرين مقابل آخر جيوب المعارضة في الداخل السوري والجنوب منها (الغوطة الشرقية ودرعا) عام ٢٠١٨، وها هي الآن تستميت في سبيل دخول شرق الفرات، وكل ما سبق هو لضرب الوجود الكردي، الذي أسماه الرئيس التركي بـ "المستنقع الذي لن يسمح بتكرار حدوثه".

عندما انتهى النظام السوري من السيطرة على الغوطة الشرقية والمناطق الجنوبية من درعا، التي باعها الترك للروس مقابل دخول عفرين، أرسل تعزيزات كبيرة باتجاه إدلب التي اكتظت بمقاتلي المعارضة الذين تم نقلهم إليها بعد طردهم من مناطق سيطرتهم في الداخل والجنوب السوري، عندها أدرك أردوغان أن مخططاته تسير نحو الهاوية، وبأن مصير حلفائه بات في خطر، استمات في العمل مع الرئيس الروسي بوتين لوقف العمليات العسكرية السورية في إدلب، فتوصل معه في ١٧ أيلول ٢٠١٨ إلى اتفاق يتضمن إنشاء منطقة آمنة منزوعة السلاح، بين المعارضة ومناطق النظام، وكان قد تم تعيين حدود المنطقة بعمق ١٥-٢٠ كم في إدلب، و ٢٠ كم في ريف حماه الغربي، وقد نص الاتفاق على انسحاب الفصائل المتطرفة من هذه المنطقة، وكانت تركيا قد ثبتت نقاط مراقبة منذ مطلع العام ٢٠١٨، وتعهدت حسب بنود الاتفاق بإخراج جميع الفصائل الجهادية، ونزع الأسلحة الثقيلة منها، وأن تقوم وحدات كل من الشرطة العسكرية الروسية والتركية بمراقبة المنطقة منزوعة السلاح [٣٧].

كان ذلك فرجاً لمخططات أردوغان فهو بسط سيطرته على مناطق يحلم بها دون عناء، وقد انتشرت القوات التركية في المنطقة بشكل كبير، بعد أن دعمها بعناد وأسلحة ثقيلة، وهو لن يخرج بالسهولة التي قد يتصورها الروس وقادة دمشق، بدليل البطء الشديد في تنفيذ بنود الاتفاقية؛ فضلاً عن التمدد الأخير ل هيئة تحرير الشام (النصرة سابقاً) على حساب فصائل المعارضة، وهو أمر لا يهتم به أردوغان كثيراً، فكلهم شركاؤه، كما أن روسيا بدأت بالتذمر، وأصبحت تطلق تصريحات أن تركيا لم تقم بتنفيذ بنود الاتفاق.

كانت سوريا المستقرة والديمقراطية ستمثل مصدر استقرار لتركيا ولأمنها أيضاً، في وضع جيوسياسي شديد الحساسية، وهذا ما أكدته مجريات الصراع وتعقيداته بعد ثمان سنوات، إلا أن عقدة الكيان الكردي تقض مضجعها، وتشغل أذهان السياسة الترك، فسيرتهم في متاهات يبدو أنه لم يعد العودة منها ممكنة.

إن التدخل العسكري التركي في سوريا هو مشروع عثماني توسعي، وهو ذو حدين، فضرب المشروع الديمقراطي في شمال سوريا أحد أهم أهدافه، وتبين الآن أن فكرة التدخل التركي تعود إلى ما قبل النضج الذي وصل إليه مشروع الإدارات الذاتية، فقد أكد القضاء التركي مؤخراً، تسجيل صوتي لمسؤولين أتراك اجتمعوا يوم ٣١ آذار ٢٠١٣، لخلق ذريعة مفبركة تتيح التدخل في سوريا عسكرياً، وكانت هذه الذريعة "حماية قبر سليمان شاه".

تركيا خسرت النزال بخصوص المنطقة الآمنة، فالتجهدت نحو تفعيل اتفاقية أضنة التي عفى عليها الزمن، والتي ستسمح لسوريا في الدخول لعمق الأراضي التركية- قبل السماح لتركيا- لأنها اخترقت الأمن القومي السوري منذ ثمانية أعوام.

توصيات واستنتاجات:

إن الخلافات بين العرب والترك ذات جذور تاريخية، بدأت حين أخذ الترك زمام الخلافة الإسلامية وأخرجتها من يد العرب، وأصبحوا قوة توسعية بحجة "الفتوحات الإسلامية- العثمانية"، وعندما عاد العرب إلى استذكار ماضيهم، وأدركوا حقيقة كينونتهم، ارتكب الترك المجازر بحقهم، وأعدموا نخبهم السياسية، وشرّدوا ذويهم؛ فضلاً عن ترسيخ أفكار مسيئة للعرب، فالكثير من أمثالهم كانت تتقصّد تحقيراً واضحاً لهم.

كانت تركيا ومازالت تبني علاقاتها مع العالم بالعربي بذهنية التسلط والوصاية، فهي تعمل على إعادة إحياء المصطلحات التي من شأنها تأجيج الصراعات والنزاعات في المنطقة، وتحملي ذلك في سياساتها حيال الأزمة الأخيرة التي عصفت بالحكومات العربية، وليس انتهاءً بسوريا، خاصة الدور الذي لعبته حكومة العدالة والتنمية طيلة العقدين الماضيين، واتباعها سياسة الدمج بين مفهومي (الكمالية- الطورانية) والعثمانية، والتلاعب بهما وفق مخططاتها التوسعية في المنطقة، وما التحالفات التي جمعت بين حزب العدالة بحزب الحركة القومية إلا ترسيخاً لا ابتداء نظام يجمع بين الشوفينية التركية والتطرف الإسلامي، لتتناسب بالتالي مع المرحلة السياسية المعاشة، ك تدخلها المباشر في سوريا والعراق بذريعة حماية الأمن القومي التركي دون تحديد حدود

معينة لذلك، وخطتها بمصطلحات تعود للعهد العثماني وأحياناً ما قبلها (الدخول المغولي للعراق). ولم يأت - مثلاً- تزامن احتلالها لجرابلس مع ذكرى معركة مرج دابق.

إن مسارات النزاع في كل من سوريا واليمن وليبيا، ومدى ثبات العلاقة بين تركيا والإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية المتطرفة الأخرى، وتطور العلاقة بين تركيا وإيران، وكذلك طبيعة الصراع القادم بين إيران وإسرائيل ستحدد طبيعة العلاقة بين تركيا والعرب؛ لا سيما أن تركيا حاولت طيلة العهد الجمهوري العمل وفق سياسة التوازنات بين القوى الإقليمية والدولية، ولم يسجل لها أي موقف واضح وصريح وحقيقي في أي من القضايا في هذه المنطقة إلا بما يخدم قضاياها ومصالحها، وحتى في دعمها للمعارضة السورية.

يقف المرء حائراً أمام طبيعة العلاقة بين حلفاء أستانة وهم يشبكون أيديهم منتصرين في كل قمة تجمعهم، وهم في الوقت نفسه مشاركين في النزاع أو داعمين لأحد أطرافه.

تدرك أنقرة، التي تدهورت علاقتها مع واشنطن، أن أبو ظبي والرياض حليفان متلازمان، تدعمهما أمريكا، لكن لا يُتوقع أن تتخذ الولايات المتحدة أي خطوة أو موقف صريح حيال التوتر العربي- التركي الجاري، خاصة وأن العلاقة بين الحكومات العربية وأنقرة لم تصل إلى حد القطيعة بعد.

كما تدرك أنقرة بأن روسيا حليف غير موثوق به، ف سبب العلاقة التي تجمعهما واضح، وهو يشارف على النفاذ فيما لو كانت واشنطن جديدة في مسألة الانسحاب من شمالي شرق سوريا، وتدرك أيضاً بأن حليفها الروسي لن يدعمها في أي حرب تركية قادمة، وهي أضعف من أن تشن حرباً ضد أي أحد، سوى على الكرد فيما لو تخلى عنهم حلفاؤهم في التحالف الدولي.

إن الدور الذي تؤديه حكومة العدالة والتنمية ليس آتٍ عن عبث، بل هو آمال وأحلام لازال العثماني الجديد أردوغان يعتقد في إمكانية تحقيقها، وهو من دون شك أمر يشكل خطورة جديدة على الأمن القومي العربي ككل، ومن هنا فإننا نعتقد بأنه يتوجب تفعيل تعاون جدي ما بين الإدارة في شمال وشرق سوريا، التي استطاعت التنبه إلى هذا الدور في مراحلها المبكرة، وبين الحكومات العربية التي عانت من هذا الدور، للوقوف في وجه هذه السياسة التي تدعو إلى قضم مناطق جغرافية جديدة (كردية وعربية)، وتقوم بقيادة روحية وفعالية لجماعة أظهرت فشلها في قيادة أمة ما، لأنها تسير في التوازي مع فكر التنظيمات المتطرفة، ولا تختلف عنها إلا في جزء بسيط من التفاصيل.

إن غرور أردوغان جعله يعمل على دعم الجماعات الإرهابية، انتقاماً من الولايات المتحدة، وحلفائها، ومن أوروبا التي رفضت انضمام تركيا إلى اتحادها، وانتقاماً مزدوجاً من دول المنطقة العربية، التي رفضت شعوبها تطبيق نموذج "العدالة والتنمية" عليها، واثارت ضدّ تنظيمات الإخوان المدعومة من الحزب الحاكم في تركيا، ناهيك عن الطموح التاريخي لأردوغان وأنصاره من "العثمانيين الجدد" الذين أرادوا غزو الشرق الأوسط من جديد، ولكن على حسان الإخوان هذه المرّة، إلا أن مخططهم كان مصيره الفشل، فتحولوا إلى تمويل الإرهاب.

لازالت تركيا تشكل خطراً كبيراً على الدول العربية، فهي تسخر كافة إمكاناتها السياسية والعسكرية والاقتصادية في سبيل إضعافها، وإخراجها من دائرة الدول الإقليمية المهمة في المنطقة والشرق الأوسط، والإبقاء عليها كدول فاشلة.

المصادر:

[١] - محمد إلهامي، العلاقات المصرية التركية: الجذور والثمار، المعهد المصري للدراسات، ١٠ كانون الأول ٢٠١٧.

[٢] أردوغان يغادر دافوس غاضباً بعد مشادة كلامية مع الرئيس الإسرائيلي dw

[٣] - رجب طيب أردوغان يدعو مبارك إلى الإصغاء إلى مطالب شعبه، نشرت في: ٢٠١١/٠٢/٠١.

[٤] - محمد إلهامي، العلاقات المصرية التركية: الجذور والثمار، المعهد المصري للدراسات، ١٠ كانون الأول ٢٠١٧.

[٥] - محمد إلهامي، العلاقات المصرية التركية: الجذور والثمار، المعهد المصري للدراسات، ١٠ كانون الأول ٢٠١٧.

[٦] - الانقلاب المصري ٢٠١٣، المعرفة،

[٧] - مصر تعلن الإخوان المسلمين جماعة إرهابية يحاكمها القانون، وكالات، ٢٥ كانون الأول ٢٠١٣.

[٨] - الجمعي القاسمي، التغلغل التركي في تونس يثير مخاوف متصاعدة، صحيفة العرب، ٢٠١٨/٠٧/١٢.

[٩] - أحمد جمعة، تركيا تواصل دعم جماعات الإرهاب في ليبيا..، اليوم السابع، ٢٠١٨/١٢/٠٢.

[١٠] - محمد أوب الفضل، الصمت الأممي والدولي يرسخ الدور التركي في ليبيا، صحيفة العرب، ٢٠١٨/١٢/٢٣.

[١١] - مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، الصمت الأممي والدولي يرسخ الدور التركي في ليبيا، ٢٠١٨/١٢/٢٣.

[١٢] - جهاد ضرغام وصوفيا الهمامي، ويكيليكس يفضح علاقة عبد الحكيم بلحاج مع حكومة أردوغان، إرم نيوز، ٢٠١٦/٠٧/٢٠.

[١٣] - مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، الصمت الأممي والدولي يرسخ الدور التركي في ليبيا، ٢٠١٨/١٢/٢٣.

[١٤] - أحمد جمعة، تركيا تواصل دعم جماعات الإرهاب في ليبيا..، اليوم السابع، ٢٠١٨/١٢/٠٢.

[١٥] - وثائق تكشف تمويل استخبارات تركيا لحركة الشباب الصومالية الإرهابية - العين الإخبارية

[١٦] - شكري، نبيل، بوكو حرام- السلفية الجهادية في إفريقيا، المكتب العربي للمعارف، ص ١١٩.

[١٧] - المجالي، سعدون نورس، الإخوان المسلمون والنظام السياسي في الأردن- دراسة في العلاقة وتطوراتها، دار الخليج للنشر والتوزيع، عمان، ط ١، ٢٠١٩، ص ١٢٥.

[١٨] - الإخوان المسلمون في الأردن.. من أركان المملكة الهاشمية إلى أعداء للنظام؟، الشروق، ٢٠١٧/١٠/٢٥.

[١٩] - محمود محيي، أردوغان يستفز العرب ويدس أنفه في القدس..، اليوم السابع، ٢٠١٨/٠٧/٠٢.

[٢٠] - محمد إلهامي، العلاقات المصرية التركية: الجذور والثمار، المعهد المصري للدراسات، ١٠ كانون الأول ٢٠١٧.

[٢١] - مستقبل العلاقات السعودية التركية بعد صعود الملك سلمان، نون بوست، ٢٠١٥/٠٢/٠٤.

[٢٢] - بعد صمت طويل...أردوغان ينتقد محمد بن سلمان، سبوتنيك عربي، ٢٠١٧/١١/١١.

[٢٣] - رغم محاولة السعودية الیائسة لتبريرها.. "رويترز" تؤكد تطاول "ابن سلمان" على تركيا و"أردوغان" في تصريح "مثلث الشر"، وطن يغرد خارج السرب، ٢٠١٨/٠٣/٠٧.

[٢٤] - مسؤول إماراتي كبير: العلاقات العربية التركية ليست في أحسن حالاتها، النهار، ٢٠١٨/٠٣/١٠.

[٢٥] - علاء عبد الرحمن، لماذا استثنى أردوغان الإمارات من جولته الخليجية؟، عربي ٢١، ١٣ شباط، ٢٠١٧.

[٢٦] - مروة نظير، القائمة الإرهابية: قراءة في دلالات قرار مجلس الوزراء الإماراتي، المستقبل، ٢٠١٤/١١/١٨.

[٢٧] - تركيا والخيارات المكلفة في الأزمة الخليجية، BBC عربي، ٢٠١٧/٠٦/١٢.

[٢٨] - وكالات، الصراع مع تركيا وراء خسائر الإمارات بإفريقيا، العرب القطرية، ٢٠١٨/٠٤/٢١.

[٢٩] - جسر جوي غذائي بين إزمير والدوحة، ترك برس، ٢٠١٧/٠٦/١٢.

[٣٠] - وكالة الأناضول للأنباء، حول الاجتماع الرابع للجنة الإستراتيجية التركية القطرية العليا، Daily Sabah، ٢٠١٨/١١/٢٦.

[٣١] - محمود رشدي، الاتفاق العسكري بين قطر وتركيا.. احتلال بوثيقة سرية، رؤية، ٢٠١٩/٠١/١٢.

[٣٢] الميثاق الملي أو الميثاق الوطني أو ميثاق الأمة: تشكلت الخطوط العريضة لهذا الميثاق في مؤتمري أرضروم وسيواس ١٩١٩، وقد تمت صياغته في اللقاء الذي جمع بين مصطفى كمال وبعض ممثلي مجلس التمثيل الدنيوي (عكس ديني) في بدايات شهر كانون الثاني ١٩٢٠، وتم اعتماده في مجلس المبعوثان العثماني في ١٢ شباط ١٩٢٠، وبالرغم من الغموض الذي يحيط بالميثاق وبنوده الستة، فإنه لا يزال باقياً؛ إذ أن

البند الثلاثة الأولى تشير إلى حالتين وهما: أن المناطق التي تسكنها أغلبية تركية فهي ستكون ضمن "الوطن القومي" للأمة التركية، بينما الأراضي التي فيها أغلبية غير تركية سيتم تحديد مصيرها عن طريق استفتاء أو بتصويت سكانها. أما البنود الأخرى فتتعلق بأمن اسطنبول ومرمره، وحقوق الأقليات، وقضايا التطور والاستقلال. انظر:

الميثاق الوطني، المعرفة.

ويبدو أن الحدود التي تنسب إلى هذا الميثاق هي الحدود الواردة في الخطاب الذي ألقاه مصطفى كمال لمؤسسات الميثاق الوطني (الملي) وقد جاء فيه: "حدود أمتنا، من جنوب خليج الإسكندرونة، من أنطاكية، وجنوب جسر جرابلس ومحطة سكة الحديد، وجنوب حلب ثم تسير جنوباً مع نهر الفرات حتى تضم دير الزور، ثم تتجه شرقاً لتضم الموصل، وكركوك والسليمانية".

[٣٣] - لماذا يدعم العدالة والتنمية التركي تنظيم الدولة الإسلامية، صحيفة العرب، ٢٧/١١/٢٠١٤.

[٣٤] - لماذا يدعم العدالة والتنمية التركي تنظيم الدولة الإسلامية، صحيفة العرب، ٢٧/١١/٢٠١٤.

[٣٥] - ريم عبد الحميد وإنجي مجدي، الصحف الأمريكية: تركيا وعدت داعش بمساعدته في مهاجمة أكراد سوريا...، اليوم السابع، ٢٢/٠٩/٢٠١٤.

[٣٦] - أحمد جمعة، الانتهاكات التركية لسيادة العراق عرض مستمر...، صحيفة العرب، ١٢/٠٦/٢٠١٨.

[٣٧] - تركيا تدخل "كرفانات" إلى نقاط المراقبة شرقي إدلب، عنب بلدي، ٢٦/١١/٢٠١٨.

الإدارات اللامركزية بين التاريخ والواقع الراهن

نوريات حفطارو - باحث في مركز الفرات للدراسات

"في مكان ما لا تزال هناك شعوب وجيوش، لكن عندنا هنا يا إخوتي توجد دول." فريدريك نيتشه [1]

الدولة السلطة - المجتمع الديمقراطي

"المجتمع ممكن بلا دولة، لكن الدولة غير ممكنة بلا مجتمع." عبد الله أوجلان [2]

سنسلط الضوء في دراستنا هذه على مفهوم الإدارات اللامركزية عبر التاريخ، وسنستحضر بعض الأمثلة التي تعايشت ضمن النظام العالمي التاريخي وبالتوازي معه، فالأزمة الدولية التي تعصف بيننا السياسية والاجتماعية، تحملنا مسؤوليات البحث عن البدائل المعقولة والحلول السوسيوثقافية.

تعتبر الثورة الزراعية Agricultural Revolution حوالي عشرة آلاف قبل الميلاد، أهم مرحلة بالتاريخ الإنساني، كونها شكلت النواة الأولى لتبلور مفهوم الإدارة، وارتقت البشرية معها، من مجموعات جامعة-صيادة صغيرة جواله، إلى القبائل والعشائر ذات التنظيم الإداري المحكم، واعتمدت على إدارة الذات على كافة الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية، ويمكن اعتبار الوعي الذاتي في الإدارة، وليدة هذه الثورة المجتمعية. يضرب المؤرخ اليهودي "يوفال هراري" مثلاً على ذلك في إحدى محاضراته قائلاً: "لو أتينا بشمبانزي مقابل كائن بشري واحد، فسينتصر الشمبانزي بالتأكيد.. ماذا لو أتينا بمجموعة من الشمبانز مقابل مجموعة من البشر، سينتصر البشر بشكل مؤكد. لأن هذا التجمع البشري، سيفكر، سينبني وسيدافع. أما التجمع الحيواني للشمبانزي، فلا معنى له سوى الفوضى." يكمن الفرق الحقيقي بيننا وبين الشمبانز في

الصرغ الأسطوري الذي يربط معاً أعداداً كبيرة من الأفراد والعائلات والمجموعات؛ هذا الصرغ هو ما جعلنا أساتذة الخلق. [٣]

ومع ظهور الدولة أو ما يمكن تسميتها "الطبقة الإيديولوجية والاقتصادية المسيطرة الجديدة"، تشعبت الإدارة المجتمعية على شاكلة جهازين بالحكم. فكان للمجتمع مؤسساته الذاتية، التي يدير بها شؤونه الخاصة قبائلياً وعشائرياً وكانت تتخذ من الأرياف والسهول والجبال ملاذاً، أما الدولة فكانت تفرض مؤسساتها الدينية الإيديولوجية والاقتصادية على المجتمع الداخلي والخارجي (المستعمرات)، والمدينة كانت مركزها الإداري. ثنائية السلطة – الديمقراطية تتجلى بشكل واضح في هذه الأنماط الإدارية بالمجتمع، وهي مستمرة إلى يومنا الراهن، بأشكال مختلفة.

هنالك لفظ كبير جداً في تعريف الإدارة من الناحية السوسولوجية، حيث تداخل علوم الإدارة مع موضوع التجارة والتسويق والرأسمال. من ناحية أخرى، وعلى المستوى الدولي، يستخدم اصطلاحاً الإدارة والسلطة كمرادفين توأمين، سواءً عن قصد أو دونه. حيث تدعي كل الدول، بأنها سلطة وإدارة في آن معاً. لكي نتخلص من هذه الإشكالية، علينا تعريف الإدارة من منظور سياسي جديد.

الإدارة: هي بكل ببساطة تعني العقل التشاركي؛ وإيجاد الحلول للمشاكل والقضايا اليومية، الخدمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وفي نفس الوقت، يحوي تعريف الديمقراطية أيضاً على مغالطات جمّة؛ بسبب تحوله لشعار طنان يستخدم في البرامج السياسية للكثير من الأحزاب والدول. وبدافع الضرورة الاجتماعية كان التيار المقاوم للسلطة الدولية حاضرًا دائماً، ويتخذ أشكالاً إدارية تتوافق مع النموذج الذاتي للمجتمع الذي يمكننا تسميته بالديمقراطية. ومصطلح الديمقراطية إغريقي الأصل ويعني "حكم الشعب" لنفسه، هو مصطلح قد تمت صياغته من شقين (ديموس) "الشعب" (كراتوس) "السلطة" أو "الحكم، بمعنى آخر تعني الديمقراطية "قيام المجموعات التي لا تعرفُ الدولة أو السلطة بإدارة نفسها بنفسها". [٤]. إدارة الذات، هي الشكل الديمقراطي

للإدارة المجتمعية، أما الحكم من قِبل فئة أو مجموعة معينة فهو الشكل السلطوي للحكم الذي يفضي إلى استفحال القضايا الاجتماعية.

الدولة وبكافة أنماطها، مركزية بالضرورة وتشكل بؤر السلطة بالأطراف لتقوية حكمها. الصراعات بين أشكال الحكم المركزية واللامركزية قديمة قدم التاريخ، وهي مستمرة إلى يومنا، ألا يقال إن الوقت قد حان للبشرية أن تتخلى عن جهاز الدولة...! الدولة لا تتوافق مع الديمقراطية جينياً، لأن الديمقراطية تعني اللامركزية والمشاركة، التي بدورها تقوض مصالح الفئة المسيطرة. وحتى أكثر الدول عصرية أيضاً، لا تستطيع التخلي عن الحكم السلطوي الذي هو سبب وجودها. فلا شكل الحكم الليبرالي (الوسط) الذي يسمى الديمقراطية الليبرالية الذي اعتبره المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما نهاية التاريخ السياسي، ولا المحافظ (اليمين) ولا اليساري أو ما يسمى الديمقراطية الاجتماعية، استطاع التخلص من سحر السلطة وأصلاً كانوا بإحدى المعاني شكلاً مموهاً وشرعياً للسلطة الدولتية.

التاريخ السياسي للبشرية على مفترق طرق وأشكال الإدارة المجتمعية تتجه نحو شكل توافقي يرضي كافة الأطراف إن صح التعبير.

جدلية تاريخية

مازال الجدل محتدماً حول مفاهيم المركزية واللامركزية وتطبيقاتها السياسية اليومية، حيث يبرر الفريق المؤيد للمركزية في الحكم بالمحافظة على النظام وضبط الفوضى والسيطرة على مفاصل الحياة (السلطة الحيوية). أما التيار الذي ينادي باللامركزية فيحاجج على قدرة الوحدات المجتمعية على إدارة الذات ومناهضة السلطة الاقتصادية والاحتكارية التي تجتمع في النظام المركزي بيد القلة الأوليغارشية.

المركزية

تعني المركزية الإدارية بكل بساطة، تركيز وتكاثف السلطة في مركز معين (دولة، فئة، أشخاص) حيث تدار كافة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية من هذا المركز الذي يكون هرمي بالضرورة، ولا يمكن

للمستويات الإدارية الأخرى أن تتصرف إلا بناءً على أوامر وتعليمات المركز، حيث صلاحيات اتخاذ القرار محصورة في أشخاص أو مؤسسات محدودة. تمارس المركزية في الدول عن طريق جهاز رئاسي وحكومي مضبوط بشكل صارم، وأي قرار؛ مهماً كان أم بسيطاً يخضع لرقابة وموافقة المركز حصراً، أما الدستور هو الآلة القانونية التي تشرع هذه الممارسات.

الجغرافيا أيضاً تلعب دوراً مهماً في ممارسة السلطة المركزية، حيث تنبثق كل القرارات من مركز جغرافي واحد وهو العاصمة. وبذلك تصبح المناطق المحيطة مهمشة من كافة النواحي الخدمية والإدارية. يمكننا القول على المستوى الدولي بأن السلطة المركزية تمارس على دول المحيط وشبه المحيط أيضاً، ويتدفق رأس المال الاقتصادي والمعرفي من المحيط إلى المركز وبالتالي يصبح المركز القوة الاحتكارية الكبرى في المجتمع والنظام الدولي. هذا النسيج من العلاقات السلطوية تفرضها الحكومات بالبيروقراطية الصارمة على شعوبها داخلياً.

من آفات النظام المركزي أنه يعرقل عملية الإدارة الاجتماعية، وهذا ما يسبب حالة من الاستياء عند المجتمع. حيث البطيء في إنجاز المعاملات نتيجة الروتين الإداري والتعقيد بسبب كثرة الرئاسات المتعددة في الإدارة المركزية. من ناحية أخرى تفرض الإدارة المركزية حلول موحدة على قضايا مختلفة، كون القرار يكون بيد قلة قليلة من الأفراد الذين ينظرون إلى كافة القضايا من منظور واحد.

لم تشكل المركزية حلاً إدارياً للقضايا المطروحة، بل أدت إلى تراكم المشاكل والقضايا وبالتالي تكون النتيجة الحتمية هي "الأزمة".

اللامركزية

أصبحت اللامركزية من الاصطلاحات الدارجة كثيراً في الإعلام والرأي العام وخاصة بعد أزمات ما يسمى بالربيع العربي. اللامركزية تعني مشاركة الإدارة مع الكل وممارسة الديمقراطية المباشرة. حيث توزع الوظائف الإدارية بين الأقاليم والوحدات الإدارية الصغيرة. وفي الأدبيات السياسية المعاصرة، تعني إعطاء دور أكبر للمجتمع المدني. بشكل جوهري اللامركزية تعني تفويض السلطة.

تعطي اللامركزية دوراً رئيسياً للإدارات المحلية التي تعتمد على المجالس والكمونات وممارسة الديمقراطية المباشرة نوعاً ما. ويعاد ترتيب العلاقات الاجتماعية وعلاقات القوة من أصغر الوحدات الاجتماعية إلى المؤسسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى.

ومن مقتضيات اللامركزية هو أن تكون السلطات المحلية متمتعة بالاستقلال الإداري والاقتصادي والخدمي عن المركز. وتفعيل دور الكمونات والتعاونيات والبلديات المحلية. اللامركزية تعني مشاركة أكبر عدد ممكن من الناس في صنع القرار والتفاعل والمشاركة.

بعكس الإدارات المركزية، تفسح الإدارة اللامركزية المجال أمام إيجاد أفضل الحلول وفي زمن مختصر لأكثر القضايا تعقيداً. فلو كانت مدينة ما أو شارع ما بحاجة للكهرباء، فالإدارة المحلية ستسرع في إيجاد الحل وسيشارك أبناء ذلك الحي أو تلك المدينة في هذه العملية دون اللجوء لموافقة العاصمة.

كون الكل يشارك في الإدارة في النظام اللامركزي، فالحلول المتنوعة والأفكار المبتكرة تكثر للمشاكل اليومية والقضايا الكبيرة العالقة، ويتم التخلص من الأسلوب الواحد المتبع لحل كل المشاكل كما في الإدارة المركزية.

للنظام اللامركزي ميزة أخرى مهمة جداً تفتقدها الأنظمة المركزية، ألا وهو "انخفاض نسبة المخاطر الناجمة عن قرار خاطئ"، حيث تكون النتائج محصورة فقط في القطاع المحلي الذي اتخذ فيه القرار الخاطئ. أما القرار الغير صحيح في النظام المركزي، فهو يدفع بكامل جسم النظام للمرض والتضرر.

وأخيراً يمكننا القول بأن كل إدارة تتجه نحو اللامركزية، بحاجة للدستور الذي تكمن وظيفته في وضع الترتيبات القانونية بين الإدارة المحلية والمركز.

فلنتعرف على بعض من أنماط اللامركزية في الحكم.

أنماط اللامركزية في الحكم

ثُرْتُكب الكثير من المغالطات أثناء الانعكاف على شرح أنماط اللامركزية بالحكم، والقانون الدولي لم يعط التعريف الكافي والواقي لهذه الاصطلاحات السياسية. فاصطلاحات الحكم الذاتي والإدارة المحلية والإدارة الذاتية وشبه الاستقلال الديمقراطي تختلف عن بعضها من ناحية المعنى السياسي الإداري، وهنالك تشويش بصدد ذلك في القانون الدولي. الإدارة الذاتية تعني بكل وضوح إدارة المجتمع لشؤونه الخاصة (الاقتصادية والإدارية) من تلقاء ذاته، عن طريق المجالس والكمونات دون اللجوء لمؤسسات الدولة وتعتمد على الديمقراطية المباشرة. وتحترم الوحدة الترابية للدولة. الإدارة المحلية أيضاً تشبه نوعاً ما الإدارة الذاتية ولكنها جزء من مؤسسات الدولة، ولا تتمتع بالاستقلالية السياسية أو ما شابه. لتتعرف على شبه الاستقلال الديمقراطي والحكم الذاتي بشكل مفصل.

شبه الاستقلال الديمقراطي

استخدم اصطلاح شبه الاستقلال الديمقراطي من قبل المفكر عبد الله أوجالان الذي طرح هذا المفهوم ضمن إطار نظرية العصرية الديمقراطية (الأمة الديمقراطية - الاقتصاد الكومونالي - الصناعة الإيكولوجية)، حيث يمثل الجسد السياسي والإداري لمجتمعات الأمة الديمقراطية.

تعتمد هذه النظرية من الناحية النسقية على جدلية المدنية المهيمنة المركزية - الحضارة الديمقراطية، حيث يمثل شبه الاستقلال الديمقراطي الشكل المعاصر من الإدارة الذاتية للمجتمع البشري ضمن مسيرة تاريخ الحضارة الديمقراطية (الذاكرة الجمعية). وإن كانت تشترك مع الحكم الذاتي والإدارة المحلية ببعض الخصائص ولكنها نموذج مختلف من حيث الممارسة السياسية والجوهر الديمقراطي.

يعتمد شبه الاستقلال الديمقراطي على الديمقراطية المباشرة والمشاركة الفعالة في الإدارة ويتخذ من الكومونات والمجالس الذاتية الوحدة الأصغر للقرار السياسي والإداري في المجتمع. "فمجتمعات شبه الاستقلال الديمقراطي هي مجتمعات سياسية كومونالية فعالة تأخذ من النظام اللامركزي أساساً في نشاطاتها الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية ككل متكامل. وتؤمن بأن السلطة المركزية واقع استثنائي، بينما السلطة المحلية هي القاعدةُ الرَّاجحةُ." [٥]

لا ترفض الدولة ولا تسعى للتدول بل تحافظ على شكلها شبه المستقل، وتسعى للتوافق الديمقراطي مع الدولة حيث الدستور الديمقراطي الضمانة القانونية لأقاليم شبه الاستقلال الديمقراطي. وللسياسة الديمقراطية دور كبير في إيصال التوافق الديمقراطي مع الدولة إلى أعلى مستوياته. السياسية الديمقراطية تعتمد على شقين في النضال السياسي مع الدولة والسلطة، حيث تعمل جاهدة على الوصول لتوافق دستوري قانوني وتدفع كافة الشرائح المجتمعية لمزاولة السياسة بفعالية وحرية تامة. حيث تمارس الديمقراطية وتعمل على ديمقراطية مؤسسات الدولة والعمل معها ضمن إطار "الجدلية الإيجابية" إذ تعترف بالوحدة الوطنية الديمقراطية للدولة والمجتمع الديمقراطي.

يجب الانتباه إلى أن مجموعات شبه الاستقلال الديمقراطي هي مجموعات اجتماعية متعددة ومختلفة ثقافياً وإثنيةً ودينياً وهويتها الاجتماعية هي الأمة الديمقراطية كتعبير ذهني عن كافة الشرائح والمكونات، وتنظم الشرائح ذاتها ضمن إطار المجتمع المدني الديمقراطي.

الحكم الذاتي بالقانون الدولي؛ الاصطلاح والتعريف

اصطلاح الحكم الذاتي هو الأكثر تداولاً في القوانين الدولية والرأي العام، وكما أسلفنا سابقاً، للإدارات اللامركزية بنية تاريخية عميقة، وإن كان يعتبر من المفاهيم الحديثة في العلوم السياسية، ولكنه كان دائماً وأبداً، حاضراً في الذاكرة الجمعية للمجتمع.

من الناحية الاصطلاحية، الحكم الذاتي هو ترجمة للكلمة الإنجليزية «self-law أي القانون الذاتي أو self-government» بمعنى الاستقلال الذاتي أو القدرة على الحكم الذاتي. يتشابه اصطلاحاً الأتونومي والديمقراطية، سيمَنطِيقياً (علم المعنى) ومن ناحية المنشأ. فاصطلاح الأتونومي *autonomia* إغريقي الأصل، ((auto بمعنى الذات، و (nomia أو nomos) الذي يعني القانون أو الحق، أي

القدرة على أن يحكم الإنسان نفسه بنفسه، أو بمعنى آخر، القدرة على سن القوانين للذات. أما الديمقراطية، التي تعني حكم الشعب، فتأتي في السياق نفسه، من حيث البنية الاصطلاحية والعملية.

اكتسب مفهوم الحكم الذاتي، بعداً قانونياً دولياً، وتم التنصيب عليه في ميثاق الأمم المتحدة، الفصل الحادي عشر، المادتان ٧٣/٧٤. ينص في المادة ٧٣ على أن يقرر أعضاء الأمم المتحدة - الذين يوظفون في الحال أو في المستقبل بتبعات عن إدارة أقاليم لم تنل شعوبها قسماً كاملاً من الحكم الذاتي - المبدأ القاضي بأن مصالح أهل هذه الأقاليم لها المقام الأول، ويقبلون أمانة مقدسة في عنقهم، الالتزام بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم إلى أقصى حد مستطاع في نطاق السلم والأمن الدولي الذي رسمه هذا الميثاق. [٦]

إذاً يمكن اعتبار الحكم الذاتي، كشكل من أشكال الإدارة اللامركزية الشبه استقلالية، التي تعتمد على إدارة الشؤون الخاصة، بالتوازي مع الحكومة المركزية، أي توزيع السلطة بأشكالها الثلاثة (التنفيذية والتشريعية والقضائية)، بين المركز والأطراف.

تجدر الإشارة إلى أن الليبرالية تصبغ أشكال الحكم اللامركزية هذه بالصبغة القومية أو الدينية تحت مسمى "الحقوق الفردية"، وبدل الحل السياسي تتعمق الأزمة ويزداد الطين بلة. ومن أسوأ تطبيقات هذا النموذج الشاذ والمنحرف هما مثلاً البوسنا والعراق، حيث إلى الآن تتنامى النعرات الطائفية والعنصرية في هذين البلدين، الذين أهلكتهما الحرب الأهلية.

النقطة الثانية التي يجب التطرق إليها هو دفع الليبرالية لهذه الإدارات نحو التدوّل، وهنا يظهر أمامنا نموذجاً كردستان العراق وكتالونيا الإسبانية، حيث فشلت محاولة الإقليمين في التعبئة القومية والخطاب الشعبي المبتذل، الذي تم من خلاله تطعيم مطالب المجتمع الديمقراطية بمصالح الفئة البرجوازية المسيطرة، وطبعاً جوبه بعنف شديد من قبل السلطات المركزية. وهذا ما يمكننا تسميته بسفسطات الليبرالية بخصوص حق تقرير المصير.

الحكم اللامركزي والاتحادي عبر التاريخ

شكل نظام الاتحادات القبائلية والعشائرية الطوعية فترة طويلة جداً من التاريخ البشري، بالتوازي مع النظام المركزي المهيمن. كانت دول المدن السومرية تتمتع بشبه استقلالية إدارية واقتصادية، حيث لكل مدينة معبدها ورموزها وآلهتها المقدسة، لكاش، أوروك، إريدو وغيرها من المدن المستقلة التي مازالت تمثل أهم معالم الحضارة العالمية. حافظت مدن وقرى ميزوبوتاميا العليا تجاه الحضارة السومرية على استقلالها وشبه استقلالها الإداري والسياسي، حيث كانت آلهة الجبل نينهورسانج هي الحامية لبلادها من الاستعمار الأجنبي.

تعتبر دولة المدن الرومانية والإغريقية (ديمقراطية أثينا) وحتى دول المدن الإيطالية أثناء عصر النهضة استمراراً للتقاليد الإدارية السومرية الشبه استقلالية، واستمر هذا النمط من الحكم إلى يومنا الراهن، بأشكال مختلفة.

تمتعت الأنظمة الإمبراطورية الموناركية المركزية، بنوع من المرونة فيما يتعلق بإعطاء دور للإدارات المحلية، خلافاً للدولة القومية التي تعتمد على المركزية المفرطة والهوية النمطية المتجانسة.

يمكننا تعداد أسباب تمتع الإدارات المحلية بنوع من شبه الاستقلال في ظل الإمبراطوريات كما يلي:

١. الجغرافيا: كان التباعد الجغرافي إحدى العوامل المهمة التي كانت تحد من المركزية في الحكم، لذا خفت السيطرة والتحكم بالأطراف من قبل المركز، وأعطى بعض الدور للإدارات المحلية في إدارة شؤون العامة.
٢. الهوية: لعبت الهوية الدينية أو القبائلية الجامعة دوراً كبيراً في استقلالية المناطق بالأطراف. الهويات في الإمبراطوريات مرنة ومتفاعلة، بعكس الهويات القومية التي تتمحور حول أمة واحدة.

يجدر الإشارة إلى أن أنظمة الحكم في هذه الإمبراطوريات لم تكن ديمقراطية، بل مركزية موناركية أو ثيوقراطية مثل الدولة الإسلامية، وكانت تسمح للأقاليم بحيز من الإدارة بشرطين أساسيين:

١ . الولاء للحاكم والإمبراطورية.

٢ . دفع الضريبة.

التاريخ الإسلامي حافل بمهذه الأشكال في الحكم، حيث تمتع نظام الحكم في الحضارة الإسلامية بنوع من الاستقلال المحلي والإداري بحكم توسع نفوذها على أراضي جغرافية شاسعة واختلاف الثقافات والإثنيات المنضوية تحت راية الإسلام.

تعتبر وثيقة المدينة أو دستور المدينة، الذي تمت كتابته فور هجرة النبي محمد إلى يثرب (المدينة المنورة) ٢٧ أيلول من عام ٦٢٢م، من أهم إنجازات الحضارة الإسلامية. ويمكن تسميته بالدستور المدني أو التوافق الديمقراطي إن جاز التعبير. كانت المدينة المنورة أو طيبة الطيبة كما يسميها المسلمون، تحوي ثقافات وقبائل شتى وكلها ذات منشأ سامي. حيث كان سكانها من القبائل العربية واليهودية كقبيلتي الأوس والخزرج العربيتين والقبائل اليهودية (قبائل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة)، ومع هجرة نبي الإسلام محمد إليها، ازداد عليهم المهاجرون وأنصار الإسلام من المدينة. هذا التنوع الثقافي والقبلي والإيديولوجي أفرز معه الحاجة إلى عقد اجتماعي ينظم العلاقات والشؤون الإدارية السياسية للمجتمع، وما صحيفة المدينة سوى تعبير عن الوحدة السياسية في ذلك الزمن.

أنشئ دستور المدينة نتيجة محادثات نبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم مع رؤساء القبائل العربية واليهودية في المدينة ونتيجة لذلك تم وضع بنود الدستور الذي يتألف من ٥٢ بنداً حسب اتفاق العلماء، بمشاوراة واتفاق جميع الفرق والقبائل. نص الدستور على احترام العقائد والاختلافات والوحدة بينهم، حيث يشار وفي أكثر من بند إلى القبائل اليهودية والعربية وإن لها ما غيرها، حيث يقال في إحدى البنود "وَبُنُو عَوْفَ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، كُلٌّ طَائِفَةٌ تَقْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ".

معاهدة المدينة أهم عقد اجتماعي مكتوب في التاريخ الكوني للمنطقة، حيث كانت تعتمد على المشاركة في الإدارة (الديمقراطية) والاتحاد الطوعي بين القبائل والعقائد المختلفة (الإدارة الذاتية).

بعد وفاة النبي محمد، دخلت الحضارة الإسلامية طوراً جديداً من أطوار السلطة وتوسع نفوذها الإمبراطوري. كانت الخلافة الراشدية بادئها والإمبراطورية العثمانية خاتمها إذ بدأت بعدها مرحلة التحول القومي والدولة القومية. كان الصراع محتدماً بين الفرق والمذاهب الإسلامية على شكل الحكم والإدارة، بين السلطة المركزية والمجموعات المصرة على الديمقراطية واللامركزية (الخوارج - العلويون - المتصوفون - الفلاسفة والعلماء المسلمون وغيرهم).

شهد عصر الخلافة الراشدية تحولات جمة في المفاهيم وخارطة النفوذ الإسلامي في المنطقة آنذاك، وكانت المناطق الداخلة تحت النفوذ الإسلامي بالأطراف تتمتع بحكمها الذاتي، بالإضافة لدفع الضرائب من قبل غير المسلمين. فكانت الأقاليم أو ما كانت تسمى الولايات تدار من قبل والي يعينه الخليفة، وتدار الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والإدارية بالتداخل مع الحفاظ على المبادئ العامة للشريعة الإسلامية.

وحق العصور العباسية كان هنالك حيز للأقاليم بتشكيل مجالسها الذاتية وإدارتها بما كان يسمى مجلس ديوان الشورى. وظلت المجموعات المجتمعية والفكرية محافظة على حالة المقاومة لديها تجاه الحكم الإمبراطوري، بدءاً من الفلاسفة المسلمين إلى المجموعات المقاومة كالقرامطة.

فتح شبه الاستقلال الممارس في ظل الإمبراطورية العباسية الطريق للتطور والنهضة الفكرية أيضاً، حيث أعيد البحث في الفلسفات الشرقية القديمة واليونانية. وما عصر النهضة الإسلامية ما بين القرنين الثامن والثاني عشر سوى تعبير ذهني عن تلك المرحلة.

كانت الإمبراطورية العثمانية أو ما كانت تسمى الدَوْلَةُ العَلِيَّةُ العُثمَانِيَّةُ (١٢٩٩م - ١٩٢٣م)، تعتمد على نظام الإيالات أو الإدارات الذاتية (المختارية) في الحكم، منذ دخول العثمانيين للقسطنطينية ١٤٥٣م، وتوسع الإمبراطورية العثمانية جغرافياً، ووجود الكثير من الثقافات (العربية والكردية والتركية) تحت سقف الإمبراطورية، ولّد معه نوعاً من شبه الاستقلال المحلي للثقافات والشعوب الموجودة في كنف الإمبراطورية، ومن هنا بدأ نظام الإيالة (وهي كلمة مشتقة من كلمة "EÎ" الكردية ويستخدمها الفرس أيضاً). كانت الإيالات تقسم إلى ألوية أو ما كانت تسمى بالـ "السنجق"، وأما السناجق، فكانت تتكون من عدد من

الأقضية، والقضاء كان يقسم لعدد من النواحي، يتبع لها عدد من القرى، ولكل سنجق، حاكم تعينه السلطة المركزية للإمبراطورية، وكانت الإمبراطورية تتألف من حوالي ٥٠ إيالة.

تمتع الكرد بنوع من شبه الاستقلال، في ظل الإمبراطورية العثمانية، وكان عدد الإمارات الكردية، يزيد على العشرين إمارة، ويسمى المؤرخون، تلك المرحلة، بمرحلة الإمارات. كانت كردستان قبل سنة (١٥١٤م) تسود فيها إمارات مستقلة مشغولة بتنظيم شؤونها الداخلية، لكن سوء معاملة الشاه إسماعيل الصفوي إضافةً إلى الاختلاف المذهبي أدى إلى انضمام أكثرية الإمارات إلى جانب الدولة العثمانية فضلاً عن جهود ملا إدريس البدليسي الذي لعب دوراً كبيراً في استمالة الكرد إلى جانب الدولة العثمانية، في عام (١٥١٥م) قام العلامة إدريس، بعد تفويضه من قبل السلطان العثماني، بعقد اتفاقية مع الأمراء الكرد، يتضمن اعتراف الدولة العثمانية بسيادة تلك الإمارات على كردستان وبقاء الحكم الوراثي فيها ومساندتها عند تعرضها للغزو أو الاعتداء مقابل أن تدفع الإمارات الكردية رسومات سنوية كرمز لتبعيةها للدولة العثمانية وأن تشارك إلى جانب الجيش العثماني في أية معارك تخوضها الإمبراطورية إضافة إلى ذكر اسم السلطان والدعاء له من على المنابر في خطبة الجمعة. تضمن هذا الاتفاق اعترافاً من الدولة العثمانية بالسلطات الكردية.

لم تكن للإمبراطورية العثمانية، هوية قومية محددة و صارمة، بل كانت العثمانية هي الهوية الأعلى لكل الثقافات الأخرى. وأصلاً، رفض العثمانيون، الهوية التركية القومية، حيث كانوا يعتبرونها تخص المقاتلين وفئة معينة من المجتمع العثماني، فقد كان التعدد الثقافي والإثني، هو الطاغى على الهوية الاجتماعية للإمبراطورية، وإن عاشت في الفترة الأخيرة من عمرها، ما نستطيع تسميته بأزمة الهوية.

يجدر بالذكر هنا بأن الشعوب العربية والكردية والأرمنية وغيرها من الشعوب التي كانت تعيش في كنف الإمبراطورية العثمانية، ثاروا ضد سياسات التتريك والطورانية الممارسة من قبل جمعية الاتحاد والترقي وتركزت مطالبهم في الإدارة الديمقراطية اللامركزية (الأمة الديمقراطية) ولكن هذه المطالب أجهضت بمؤامرات دولية محبوكة، ورجحت كفة الدولة القومية الأتاتوركية (الشعب الجمهوري) والبعثية العروبية (عفلق والحواراني وغيرهم) على الميول الديمقراطية، وبالتالي طبق سيناريو الإبادة العرقية والثقافية بحق شعوب وثقافات المنطقة وقصة المجتمع الكردي من الأمثلة البارزة للعيان.

تجارب الحكم اللامركزي والاتحادي في العالم المعاصر

كل الثورات المعاصرة الفرنسية والأمريكية والروسية وغيرها، كانت تحمل الطابع الديمقراطي ضد الاستبداد الإمبراطوري المركزي. وبعد إعدام لويس السادس عشر بأمر الفرنسيون فوراً ببناء مجالسهم وإدارتهم الذاتية الديمقراطية وما الثورة الفرنسية الرابعة وتبنيها بكمونة باريس سوى أهم الأمثلة على الميول الديمقراطية واللامركزية للثورات. كان شعار الثورة بسيطاً "مصدر الحكم والسيادة هو الشعب" الذي حُرِفَ وتحوّل إلى "الدولة تمثل الشعب وبالتالي على الدولة البرلمانية القومية أن تحكم" ..

السوفييتات (المجالس) الروسية التي ظهرت في روسيا أثناء الثورة الروسية الأولى ١٩٠٥م بالمبادرة الذاتية للمجتمع كانت مثلاً ساطعاً على الإدارة الذاتية واللامركزية الديمقراطية.

بعد الحروب الدينية والقومية التي أودت بحياة الملايين من البشر، اتجه المجتمع الدولي نحو الإدارات اللامركزية الديمقراطية وإن بنحو جزئي.

إسبانيا

تعتبر التجربة الإسبانية من أشهر تجارب الحكم الذاتي اللامركزي في العالم، ومن منا لم يسمع بمحاولات إقليم كتالونيا، الهادفة للاستقلال.

من الناحية الجغرافية، تقع إسبانيا في جنوب غرب أوروبا، وتبلغ مساحتها ٥٠٤,٠٣٠ كم²، حيث تعتبر من أكبر الدول مساحة في أوروبا الغربية، ويعتبر موقعها الجغرافي استراتيجياً، إذ تعتبر إحدى بوابات العالم الإفريقي والمغرب العربي على الغرب، ومنذ آلاف السنين مر الهومو نياندرتال Homo Neanderthalensis عبر هذه الأراضي نحو القارة العجوز، وانضمت إلى الاتحاد الأوروبي في عام ١٩٩٢م.

في ثلاثينات وأربعينيات القرن المنصرم وفي ظل التمرد الألماني النازي، والشيوعي الستاليني، اندلعت الثورة الإسبانية التي طغى عليها الطابع الأناركي، وإن سيطرت فيما بعد الجبهة المضادة بقيادة الجنرال فرانسيסקو فرانكو على الثورة، إلا أن الروح الثورية المجتمعية لم تخمد وعادت إسبانيا بدستور جديد للمملكة، يعتمد على الديمقراطية واللامركزية. يعتبر الدستور الإسباني لعام ١٩٧٨ من أهم إنجازات إسبانيا التاريخية، حيث تمتعت الأقاليم بنوع من شبه الاستقلال وإدارة الشؤون الذاتية. تم التصديق على الدستور، نتيجة استفتاء شعبي عليه في ٦ كانون الأول عام ١٩٧٨، حيث صوت ٨٨ ٪ من الناخبين لصالح الدستور الجديد، وصدر الدستور في ٢٩ كانون الأول في نفس السنة.

منذ ذلك الحين، تتألف إسبانيا من ١٧ من مناطق الحكم الذاتي ومدينتين ذاتي الحكم وبدرجات متفاوتة من الحكم الذاتي، وفقاً لدستور البلاد، الذي يؤكد في الحين نفسه، على وحدة التراب الإسباني. لا يوجد دين رسمي للبلاد، وينص الدستور على الحرية الدينية، وللمرأة تمثيل جيد في مجلسي النواب والشيوخ.

نظام إسبانيا هو نظام ملكي دستوري، وراثي من ملك وبرلمان من مجلسين، والمحاكم العامة. السلطة التنفيذية تتكون من مجلس الوزراء برئاسة رئيس الحكومة (مماثل لرئيس وزراء) يقترحه الملك وتنتخبه الجمعية الوطنية بعد الانتخابات التشريعية.

تتألف إسبانيا تنظيمياً من أقاليم ذاتية الحكم حيث إنها إحدى أكثر البلدان غير المركزية في أوروبا إلى جانب سويسرا وألمانيا وبلجيكا. على سبيل المثال، يمتلك كل إقليم برلماناً منتخباً خاصاً إضافة إلى حكومة وإدارة عامة وميزانية وموارد ونظم وغيرها كما تدار الصحة والتعليم إقليمياً، إلى جانب ذلك، تدير بلاد الباسك ونافارا أيضاً مالياً العامة الخاصة بالإقليم. بينما توجد في كتالونيا وبلاد الباسك قوة شرطة تستبدل بعض وظائف الشرطة المركزية. [٨]

ينص الدستور الإسباني، على وحدة الاختلاف ضمن الأمة الواحدة، وهو مكتوب في التمهيد، حيث يقال: الأمة الإسبانية، رغبة في إقامة العدل والحرية والأمن وتشجيع ما هو في صالح شعبها، وفي إطار ممارستها لسيادتها، تعلن عن إرادتها في: ضمان التعايش الديمقراطي طبقاً للدستور والقوانين ووفقاً لنظام اقتصادي

واجتماعي عادل. حماية كل الإسبان وكل شعوب إسبانيا في ممارستهم لحقوق الإنسان وثقافتهم وتقاليدهم ولغاتهم ومؤسساتهم. [٩]

يعترف الدستور الإسباني بحق الأقاليم في الحكم الذاتي وإدارة الشؤون الخاصة، حيث يشدد في المادة الثانية على أن يقوم الدستور على وحدة الأمة الإسبانية التي لا تنفصل، وطن كل الإسبان الذي لا يقبل التجزئة؛ ويضمن ويعترف بحق الحكم الذاتي للقوميات والمناطق التي يتكون منها ويضمن ويعترف بالتضامن فيما بينها. [١٠]

ينص في المادة ١٤٣ من الفصل الثالث، على حق الأقاليم في إنشاء حكمها الذاتي، وفق ما يلي: يحق للمحافظات المتجاورة التي تتمتع بخصوصيات تاريخية وثقافية واقتصادية مشتركة والجزر والمحافظات التي تشكل كياناً تاريخياً أن تتمتع بالحكم الذاتي وتكون مجتمعات حكم ذاتي في إطار ممارسة حق الحكم الذاتي المنصوص عليه في المادة ٢ من الدستور، وفقاً لما ينص عليه هذا الباب وطبقاً لما تحدده أنظمتها الأساسية. [١١]

من المواد المهمة في الدستور الإسباني، هو الحماية القانونية التي تؤمنها الدولة لمناطق الحكم الذاتي، حيث يشار في المادة رقم ١٤٧ من الفصل الثالث إلى ما يلي: تعتبر أنظمة الحكم الذاتي وفقاً لما ينص عليه الدستور بمثابة القاعدة القانونية الأساسية لكل مجتمع من مجتمعات الحكم الذاتي وتعترف به الدولة وتحميه بصفته جزءاً مكوناً لنظامها القانوني. [١٢]

في المادتين الثالثة والرابعة، يعتبر كل من ثراء مختلف الأنماط اللغوية بإسبانيا تراثاً ثقافياً يحظى باحترام وحماية خاصين، ويعترف بموجب الأنظمة الأساسية لمجتمعات الحكم الذاتي بأعلام ورايات تلك المجتمعات. وترفع هذه الأعلام والرايات إلى جانب علم إسبانيا فوق البنايات العمومية وفي المناسبات الرسمية الخاصة بهم. [١٣]

يشار في البند السادس من المادة ١٣٥ في الباب السابع "الاقتصاد والمالية" من الفصل الثاني "سن القوانين"، إلى حق الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتي، في تحديد الميزانية المالية، حيث تتخذ مجتمعات الحكم الذاتي، وفقاً لقوانينها الداخلية وفي الحدود المنصوص عليها في هذا الفصل الإجراءات الضرورية من أجل التطبيق الفعلي لمبدأ الاستقرار في قوانينها وقراراتها الخاصة بالميزانية. [١٤]

أما في حال النزاعات حول الصلاحيات بين الدولة ومجتمعات الحكم الذاتي أو فيما بين هذه المجتمعات، فإن المحكمة الدستورية تتدخل لحل الموضوع.

سويسرا

لا توجد فيها لغة واحدة بل أربع لغات، لا هوية عرقية للبلد، تتألف من ٢٦ كانتوناً مستقلاً، تعترف بحرية الاعتقاد والدين، وتشدد على المساواة بين المرأة والرجل.. الكونفدرالية السويسرية. تقع سويسرا في قلب القارة العجوز بين خمس دول، وهي ألمانيا من الشمال وإيطاليا من الجنوب والنمسا وإمارة ليختنشتاين من الشرق وفرنسا من الغرب، وتبلغ مساحتها حوالي ٤١٣٠٠ كم^٢. ترجع نشأة الاتحاد السويسري الديمقراطي إلى عام ١٢٩١م عندما اجتمعت ثلاثة كانتونات وهي شفيتس وأونترفالدن ويوري، ووقعت ميثاق تحالف دفاعي فيما بينها، يعرف باسم "الميثاق الدائم"، وانضمت المقاطعات واحدة تلو الأخرى للاتحاد وكانت تتمتع باستقلال شبه تام. بعد حروب طاحنة عصفت بالبلاد، انبثق الدستور الجديد لسويسرا عام ١٨٤٨م والذي أقيم بموجبه نظام ديمقراطي فيدرالي، حيث تم اعتماد حكومة فدرالية ذات سلطة وصلاحيات وتحددت مدينة برن عاصمة للفدرالية السويسرية، وما زالت إلى يومنا هذا، وغدت سويسرا تضم اليوم ٢٦ كانتوناً. وفي طوال تاريخها السياسي، حافظت على موقفها شبه المحايد من الحروب والصراعات العالمية.

مر الدستور السويسري بالكثير من التغييرات والتعديلات إلى أن وصل إلى شكله الحالي. تتألف الكونفدرالية السويسرية من ٢٦ مقاطعة شبه مستقلة، ونظام الحكم يعتمد على الديمقراطية المباشرة عن طريق البلديات والمجالس، ويتألف جهاز الحكم من مجلسي النواب والشيوخ. حيث يشار في المادة الأولى من الدستور بأن؛ **الاتحاد السويسري** يتكون من الشعب السويسري والمقاطعات الآتية: زيورخ، بيرن، لوسيرن، أوري،

شفايتز، أوبفالدن ونيدفالدن، جلاريس، تزوج، فرايبورج، سولوتورن، مدينة بازل وريفها، شافهاوزن، ابنزل أوسرهودن وابنزل انزهودن، سانت جالين، جراوبوندن، أرجاو، تورجاو، تسينو، فو، فالي، نيوشاتيل، جينيف، وجورا. [١٥]

في المادة الثالثة يعترف باستقلالية المقاطعة وسيادتها؛ تتمتع المقاطعات بالسيادة طالما أن دستور الاتحاد لم يجد من هذه السيادة. كما تمارس المقاطعات كافة الحقوق التي لم تفوض إلى الاتحاد. [١٦]

الأمة السويسرية ليست أمة عرقية، بل تؤمن بالتعدد الثقافي واللغوي ضمن إطار الأمة القانونية. حيث يشار في المادة الرابعة إلى أن اللغات القومية في سويسرا هي الألمانية، والفرنسية، والإيطالية، والرومانشية. [١٧]

ينص الدستور السويسري على المساواة أمام القانون، ومذكور في البند الثاني من المادة الثامنة بأنه لا يجوز التمييز بين الناس بسبب الأصل أو العرق أو الجنس أو العمر أو اللغة أو الوضع الاجتماعي أو طريقة الحياة أو الاعتقاد الديني أو الفلسفي أو السياسي ولا بسبب الإعاقة البدنية أو العقلية أو النفسية. [١٨]

تتمتع المقاطعات السويسرية بشبه الاستقلال السيادي الدستوري والسياسي والاجتماعي وحتى الاقتصادي، حيث لا يتدخل الاتحاد في شؤون المقاطعات إلا في حالات الضرورة، وللمقاطعات حريتها الإدارية، أي وحسب المادة ٤٧ من الدستور يحترم الاتحاد استقلالية المقاطعات. [١٩]

يعتبر النموذج السويسري من أهم الأمثلة على الأمة القانونية والحكم المحلي الديمقراطي. ولكم هو مؤسف، أن يعيش الشرق الأوسط الذي كان يوماً ما مثلاً على التعددية والديمقراطية والأصالة، في معمران الحروب القومية والدينية القدرة التي أفقدت رونق الشرق الجاذب.

الإمارات العربية المتحدة

نظام الاتحادات اللامركزية ليس مقتصرًا فقط على القارة العجوز، حيث نشهد أنظمة مماثلة في الخارطة الشرق أوسطية أيضاً ومن الأمثلة البارزة للعيان الإمارات العربية المتحدة أو ما كانت تسمى الإمارات المتصالحة أو ساحل عمان. تأسست الإمارات العربية المتحدة واتخذت شكلها الحالي في سبعينيات القرن المنصرم، وبالتحديد استناداً إلى دستور ١٩٧١م، حيث تتكون من سبع إمارات اتحادية ويشار إلى ذلك في

المادة الأولى من الدستور؛ الإمارات العربية المتحدة دولة اتحادية مستقلة ذات سيادة، ويشار إليها فيما بعد في هذا الدستور بالاتحاد. ويتألف الاتحاد من الإمارات التالية: أبو ظبي - دبي - الشارقة - عجمان - أم القيوين - الفجيرة - رأس الخيمة. [٢٠]

تتمتع الإمارات بشبه استقلالية اقتصادية وإدارية ضمن الاتحاد نفسه، حيث تلغى الرسوم الجمركية بين الإمارات وتشكل إمارات الاتحاد وحدة اقتصادية وجمركية وتنظم القوانين الاتحادية المراحل التدريجية المناسبة لتحقيق تلك الوحدة. [٢١] وينص في المادة العاشرة للدستور على ما يلي؛ مع احترام كل إمارة عضو لاستقلال وسيادة الإمارات الأخرى في شؤونها الداخلية في نطاق هذا الدستور.

بالرغم من اعتبار الدين الإسلامي واللغة العربية الدين واللغة الرسميين في الاتحاد، إلا أن جميع الأفراد لدى القانون سواء، ولا تمييز بين مواطني الاتحاد بسبب الأصل أو الموطن أو العقيدة الدينية أو المركز الاجتماعي. [٢٢]

تتكون السلطة الاتحادية من المجلس الأعلى للاتحاد ورئيس الاتحاد ونائبه ومجلس وزراء الاتحاد والمجلس الوطني الاتحادي والقضاء الاتحادي، حيث يتم تمثيل كل إمارة في مجلس الاتحاد الذي يعتبر السلطة الأعلى في البلاد. تدار السلطة في الاتحاد بصيغة تشاركية لامركزية وينوب عن كل إمارة ممثل في المجالس الإدارية، فمثلاً يتكون المجلس الوطني الاتحادي من ٣٤ مقعداً موزعاً بين الإمارات، حيث لإمارة أبو ظبي ٨ مقاعد ودبي ٨ مقاعد والشارقة ٦ مقاعد ورأس الخيمة ٦ مقاعد وعجمان ٤ مقاعد وأم القيوين ٤ مقاعد والفجيرة ٤ مقاعد. أما في حالة النزاعات والمآزق بين الإمارات، فالمحكمة الاتحادية هي السلطة القضائية العليا لإيجاد الحلول المناسبة.

كردستان العراق

تعتبر تجربة الحكم الذاتي في الجزء الجنوبي من كردستان، من التجارب الفتيمة في المنطقة، حيث تم توقيع اتفاقية الحكم الذاتي لإقليم جنوب كردستان، بين الحكومة العراقية آنذاك ومصطفى البرزاني في ١١ آذار ١٩٧٠م مع الإبقاء على قضية كركوك عالقة في الأجندة.

نموذج الفيدرالية العراقية، هو نموذج مشوّه ويعتمد على المحاصصة الطائفية والإثنية في السلطة تحت مسمى الحقوق الفردية وحق تقرير المصير بمعناه القومي الليبرالي. تتكون السلطة الاتحادية في العراق من السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتضم السلطة التشريعية مجلسي النواب والاتحاد.

ينص في المادة ١١٦ من الفصل الأول في الباب الخامس على النظام الاتحادي اللامركزي في العراق وفق ما يلي؛ يتكون النظام الاتحادي في جمهورية العراق من عاصمة وأقاليم ومحافظات لامركزية وإدارات محلية. [٢٣] ويعترف بالإقليم الذاتي لكردستان العراق في المادة ١١٧ "يقر هذا الدستور عند نفاذه إقليم كردستان، وسلطاته القائمة إقليمياً". [٢٤]

سوريا وتجارب اللامركزية بالحكم

بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، سقطت الولايات العربية في السلطنة العثمانية بأيدي دول الحلفاء، وكانت سوريا، كما لبنان، من نصيب فرنسا بموجب اتفاقية سايكس-بيكو مع بريطانيا عام ١٩١٦. [٢٥]

لم تكن الميول القومية هي الطاغية على المشهد السياسي آنذاك، بل الميول الديمقراطية واللامركزية بالحكم هو كان المطلب الرئيس، لثقافات المنطقة. وفي الفترات اللاحقة، سيشارك الكرد والدروز والعلويون مع الإثنيات والطوائف الأخرى، في إنهاء الاحتلال الأجنبي، وبناء الجمهورية السورية. أما الأفهام التي تقلب التاريخ، وتشرحه باللغة العرقية والقومية، فلا تدرك بأن سوريا العربية وكل الدول الأخرى، هي وليدة اتفاقيات دولية، لا تمس الواقع المجتمعي التعددي والديمقراطي للمنطقة. وكل الشعارات الطنانة التي صممو الأذان بها، مثل وحدة - عربية - اشتراكية، هي أصلاً شعارات قومية ومستوردة من الخارج، عفلق لم يبتدعها من رأسه، بل هي لرجل ماسوني قوموي إيطالي، اسمه جوزيبي ماسيني. كل ما فعلوه، هو إعادة تشكيل الوعي التاريخي للمجتمع السوري وصياغته بما يوائم مصالحهم.

في ٨ مارس لعام ١٩٢٠ أعلن عن المملكة السورية، بقيادة الملك فيصل الأول. وتم كتابة أول دستور لسوريا، في نفس العام، حيث شكل المؤتمر السوري لجنة خاصة برئاسة هاشم الأتاسي مهمتها صياغة دستور المملكة وجاء الدستور باثني عشر فصلاً و١٤٧ مادة. وإن كان نظام الحكم حسب الدستور، هو ملكي، ولكنه كان في الوقت ذاته، يشدد على النظام المدني النيابي، حيث كان المؤتمر السوري العام يتألف من

مجلسي الشيوخ والنواب، فالنواب كانوا ينتخبون شعبياً، أما مجلس الشيوخ، فكان ينتخب من قبل مجلس النواب ويعين جزء منهم من قبل الملك. أما المحكمة الدستورية العليا فتتألف من ١٦/ عضواً نصفهم منتخبون من قبل مجلس الشيوخ والنصف الآخر من رؤساء محاكم التمييز. يشار في الدستور أيضاً إلى أن البلاد تدار حسب النظام اللامركزي ولكل مقاطعة مجلسها النيابي وحكومتها الخاصة وحاكمها المعين من قبل الملك ولا يتدخل أحد بإدارتها وشؤونها الداخلية إلا في الأمور العامة التي هي من اختصاص الحكومة المركزية. وهذا هو النص الحرفي للمادة الثانية من الدستور: "المملكة السورية تتألف من مقاطعات تشكل وحدة سياسية لا تقبل التجزئة." [٢٦] لم تدم هذه الحكومة الفيصلية إلا فترة محدودة من الزمن، حيث تدخل الفرنسيون وأقاموا حكومة انتدابية جديدة محل القديمة.

اللافت للانتباه، والذي قد يثير الجدل، في الفترات اللاحقة، هو أن "سوريا" وليست العروبة، كانت الهوية الجامعة للثقافات المختلفة التي كانت تعيش في كنف المملكة. ولم يظهر، مفهوم "الجمهورية العربية السورية" في عام ١٩٤٦، إلا بعد المرور بما يسميه الأستاذ كمال ديب "مرحلة الدولة الوطنية" التي أسسها، العرب والكرد والدروز والعلويون وغيرهم من الإثنيات والطوائف الدينية في هذه البقعة الجغرافية.

سوريا من الناحية التاريخية والسوسولوجية، غير صالحة لأن تكون دولة قومية، فالتعددية المذهبية والإثنية لا تسمح بذلك. ضمت سوريا في الحدود التي انتهت إليها عام ١٩٤٦ جماعات دينية وإثنية ولغوية متعددة: فقد بلغ عدد الجماعات المذهبية ١٦ طائفة، ومثل السنة زهاء ٧٥ بالمئة من السكان يليهم العلويون بنسبة ١٢ - ١٥ بالمئة، ثم الروم الأرثوذكس بنسبة ٥ بالمئة فالدروز ٣ بالمئة، ثم بقية الطوائف المسيحية من موارنة وروم كاثوليك ولاتين وبروتستانت وسريان، إضافة إلى الإسماعيليين في جبل السلمية إلى شرق جبال العلويين، وأقلية صغيرة جداً من الشيعة الإثني عشرية والإيزيديين وعدد ضئيل من اليهود، وبلغ مجموع المسيحيين في سوريا نسبة ١٢ بالمئة من السكان. [٢٧] أما على الصعيد الإثني، فقد بلغ عدد الإثنيات خمساً: عرب وكرد وأرمن وتركممان وسريان/أشوريون وشركس. [٢٨]

كان التنظيم الإداري السياسي للمجتمعات - الثقافات الكردية والعلوية والدروزية في سوريا تنظيماً ذاتياً، معتمداً على البنية القبائلية العشائرية، وشارك أبناؤهم في حرب التحرير والاستقلال وبناء الجمهورية السورية، بل كانوا من بناء سوريا الفتية والديمقراطية آنذاك.

تعرضت جغرافية كردستان للتجزئة القسرية التي فرضت من قبل الاحتلال الأجنبي والنظام الدولي آنذاك، حيث قسمت كردستان إلى أربعة أجزاء وفق معاهدات سايكس بيكو ١٩١٦م وسان ريمو ١٩٢٠م ولوزان ١٩٢٣م، ولم تكن سيفر إلا وعوداً معلقة بالهواء، وتعبيد الأرضية للإبادة بحق الكرد.

وقع الجزء الغربي من كردستان تحت نفوذ الحدود المرسومة للدولة التي سميت لاحقاً سوريا، حيث توزع الكرد جغرافياً من ديرك أقصى الشرق السوري، إلى عفرين (جبل الأكراد) في أقصى غربه، وينتشرون في المدن السورية الكبرى كحلب ودمشق. يشكل الكرد ٢٠ بالمئة من سكان سوريا ولعبوا دوراً تاريخياً في تأسيس سوريا، التي بقوا مهمشين فيها مثلهم مثل إخوانهم في الأجزاء الأخرى من كردستان.

شارك الكرد السوريون بشكل فعال في بناء صرح الجمهورية السورية، وكان لهم دور بارز في مرحلة ما يمكننا تسميته التحول الديمقراطي. ولكنهم تعرضوا للتهميش على يد الحزب البعثي العربي وعانوا الولايات، وتم تجريدهم حتى من حق المواطنة والجنسية السورية، ونسوا بأن الكرد في سوريا مثلهم في تركيا، كانوا من أهم مؤسسي سوريا المعاصرة، ومن منا لا يعرف قصة الشاب الكردي سليمان الحلبي ذو الأصول العفرينية من قرية كوكان بالتحديد، الذي قتل قائد الجيش الفرنسي كليبر.

تصدى الكرد مع المكونات الأخرى في سوريا للاحتلال الفرنسي، حيث كان لهم مساهمتهم الجديرة بالذكر، من معركة ميسلون إلى الثورة السورية الكبرى. قاتل وزير الحرب في المملكة السورية أيام فيصل، يوسف العظمة ببسالة وشجاعة كبيرة ضد الاحتلال الفرنسي ١٩٢٠م فيما يسمى واقعة ميسلون. وعندما سئل هل تستطيع إيقاف الزحف الفرنسي؟ فأجاب: لن أدع التاريخ يسجل إنهم دخلوا سوريا بدون مقاومة!

مثل المكونات الأخرى طالب الكرد أيضاً بحكم ذاتي محلي يديرون به شؤونهم الخاصة. حيث أرسل وجهاء عشائر الجزيرة، أثناء توقيع فرنسا معاهدة مع الحكومة الوطنية في دمشق في ثلاثينيات القرن المنصرم، مطالبهم إلى فرنسا، طالبين فيها إعطاء دور أكبر لمكونات المنطقة لإدارة شؤونهم الذاتية، وقد سلم الدكتور كاميران بدرخان وحاجو آغا مذكرة وقع عليها أكثر من مئة شخصية من رؤساء العشائر والمختاتير والتجار الكرد والوجهاء المسيحيين، باليد إلى المندوب الفرنسي في بيروت. وبسبب عدم موافقة الفرنسيين والحكومة في دمشق على مطالبهم، نزلت مكونات الجزيرة إلى الشوارع وأعلنوا عن تمسكهم بمطالبهم، التي سرعان ما تحولت إلى مقاومة مسلحة. وعن مطالب الكرد يقول الشاعر جيكو خوين ما يلي "في الحقيقة كان هدفنا أن ينال الكرد في سوريا حقوقهم القومية والإنسانية، أي أن نتمتع بحقوقنا في سوريا في ظل العلم السوري

مع إخواننا الآخرين بعد رحيل فرنسا، لأننا نخشى أن يصيبنا ما أصاب إخواننا الكردي في ظل حكم الأتراك والفرس، وفي النهاية حدث ما كنا نخشاه." [٢٩]

الدور الذي لعبته فرنسا لم يكن يختلف عن الدور البريطاني في العراق ومناطق نفوها الأخرى، فهي بريطانيا نفسها التي قسمت الهند إلى هند هندوسية وباكستان إسلامية، ومارست فرق تسد بوحشية لا مثيل لها في التاريخ السياسي للعالم. هذا ما فعلته فرنسا، دفعت سوريا إلى القومية ومارست فرق تسد بنجاح موفق، إلى أن ظهرت البعثية الشوفينية التي أدخلت سوريا إلى عصور مظلمة.

مر العلويون السوريون بتجربة حكم ذاتي بدعم الفرنسيين ولكنها لم تكتمل، بسبب الميول الدولتية لبعض زعمائها وتحرير القوى القومية (التي تشكلت خارجاً مثل العربية الفتاة) وغيرها من المؤامرات السياسية. حتى القرن العشرين كان العلويون معروفين باسم النصيريين، وتم تداول اصطلاح العلويين من قبل الفرنسيين. عانى العلويون من المذاهب السنية المتسلطة خلال كافة العهود الإسلامية وآخرها العثمانيون الأتراك، لذلك تمركزوا في الجبال مثل الأقليات الأخرى.

مع بداية دخول الفرنسيين لسوريا، وخاصة الساحل السوري، جوهوا بمقاومة شرسة من قبل العلويين بقيادة صالح العلي. ولكن هذه المقاومة لم تدم ومع حلول ١٩٢١م سيطر الجيش الفرنسي بشكل كامل على جبال العلويين. في عام ١٩٢٢م أقام الفرنسيون في تلك الجبال "الدولة العلوية" المرتبطة عضواً باتحاد مع الدوليات السورية الأخرى، حيث كان الهدف إقامة حكم اتحادي فيدرالي، ولم يصل المشروع لمبتغاه.

كان للعلويين دور كبير في الجيش السوري حيث تمتعوا برتب ومناصب عليا، وانتهت التجربة الديمقراطية للعلويين، أما سيطرة العلويين على الدولة السورية بعد انقلاب حافظ الأسد، وانحسار الميول الديمقراطية، فجلب معه مذهبية باطنية تحت غطاء القومية العروبية الخرافية التي أوصلت سوريا إلى حرب الأرمجدون، التي ذهب ضحيتها الآلاف والآلاف..

طائفة الموحدين الدرزي من أهم طوائف سوريا ويتمركزون في السويداء وبعض مناطق حوران في الجنوب السوري وشمال غرب سوريا. ويعود أصل الدرزي إلى الشيعة الإسماعيلية وإلى مصادر صوفية في الإسلام. [٣٠] حيث جمعوا بين الإسلام والمذاهب الصوفية الشرق أوسطية، وحتى تأثروا بالفلسفة اليونانية القديمة، وما تسمية "شيخ عقل" لكبار رجال الدين عند الدرزي إلا تيمناً بفلسفة "العقل" إن صح التعبير.

كما للكرد والعلويين والعرب والمسيحيين وغيرهم من الثقافات والإثنيات الأخرى، فللدروز أيضاً دور مهم جداً في بناء الجمهورية السورية (الدولة الوطنية)، ومن منا لم يسمع ببطولة سلطان باشا الأطرش الدرزي زعيم الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥م.

كانت الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧) ثورة وطنية ضد الاحتلال الفرنسي وبمشاركة كافة الإثنيات والطوائف. كان الحس الوطني الديمقراطي وميول الأمة الديمقراطية المتعددة، طاغية على ميول الأمة - الدولة التي ترسخت بفضل ميثولوجيات جمال عبد الناصر وحزب البعث العربي الاشتراكي. حيث وتحت مسمى الدولة الواحدة، تمت ممارسة إبادة ثقافية بحق المكونات الأخرى في سوريا. واتهم كل ميل ديمقراطي لامركزي بالانفصالية، وتجدرت القومية والشوفينية الحزبية.

أعلنت سوريا استقلالها في ٢٥ نيسان عام ١٩٤٦م، وكانت الجمهورية المتأسسة حديثاً تعيش صراعاً داخلياً بين الديمقراطية والتيار القومي السلطوي. ظهرت آنذاك في سوريا العشرات من الأحزاب السياسية، من الحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي بقيادة أنطون سعادة. نشطت الأحزاب القومية كثيراً في سوريا ولكنها لم تلقَ الحاضنة الشعبية المرجوة، كون الفكر القومي كان غريباً جداً بين السوريين المتعددي الهويات والإثنيات والمذاهب. والمثير للاستغراب والخليق بالبحث هو أن قواد الفكر القومي كلهم على وجه التقريب كانوا قد درسوا وعاشوا في فرنسا فترة طويلة متأثرين بالقومية والثورة الفرنسية. كانت الطبقة الجديدة المتشكلة للتو، طبقة هوجاء واستشراقية لا تعي تاريخ شعوب المنطقة بعمق، كل ما سعوا إلى فعله هو إعادة إنشاء الوعي التاريخي للمجتمع السوري، كانوا مهندسي النظام الاستعماري الجديد، فلا يمكن تعريف القومية سوى إنها ذهنية استعمارية فظة، لا تمت بصلة للواقع السوسولوجي للمنطقة. وإن أردنا التعبير عن الموضوع بلغة السياسة، فانتشار الفكر القومي والدولة القومية، يعني تعبيد الأرضية الإيديولوجية لإسرائيل في المنطقة، التي ولدت بالتزامن مع انتشار هذا السرطان في الجسد الاجتماعي للشرق الأوسط.

"مدرسة واحدة لجميع المواطنين، والمدرسة الواحدة كفيلة بأن تخلق عقلية متجانسة موحدة"، هذا هو شعار الدولة العروبية القومية المثالية التي نادى بها زكي الأرسوزي (١٨٩٩م - ١٩٦٨م)، التجانس والوحدة والتنميط والأمة الواحدة واللغة الواحدة والتاريخ الواحد والعرق الواحد، كأنه يراد إنشاء أمة اعتماداً على علم الوراثة حسب المفهوم النازي الهتلري. كل شيء بدأ مع ما كان يسمى "عصبة العمل القومي" التي أسسها زكي الأرسوزي الضابط العلوي من لواء إسكندرون، الذي تدرب ودرس في السوربون الفرنسية. إنه

السلف المشترك لكل التيارات العروبية القومية الخرافية، وأصلاً هذا النوع مع الفلسفات كان غريباً عن المجتمع الشرق المتعدد الإثنيات والأديان والمذاهب، ولكنه كان البضاعة الرائجة في السوق العالمي وقتها، فلا رأسمال بدون قومية، بدون سوق قومية وميثولوجيا الروح الوطنية والحدود والأمة.. الرأسمالية (الشبكة الاحتكارية التي أمسّت نظاماً عالمياً ونسقاً متكاملًا منذ القرن السادس عشر) كانت بحاجة لخرافة الروح القومية والدولة القومية، حيث كانت الدول ذات السيادة، تدفع تكاليف الإنتاج وتحمي أموال الرأسماليين في البنوك وتؤمن لهم الشرعية القانونية، وما الدول القومية سوى شركات خرافية منشأة ذهنيًا، وسرطان اجتماعي يتناقض والطبيعة التعددية للمجتمعات البشرية. تأثر الأرسوزي بالفلسفات الفرنسية والقومية الشائعة في القارة العجوز، وآمن بأن السيادة يجب أن تكون للشعب (أهم مبدأ في الثورة الفرنسية ١٧٨٩م) وأخذ عن الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون (١٨٥٩م - ١٩٤١م) المثالية الفرنسية وترجم تلك الروح إلى العروبة والأمة العربية الخالدة...! كيف يؤمن الناس بذلك، كأن تؤمن مثلاً بأن الاستهلاك يجلب السعادة، إنها أضحوكة حقاً أن يصل العقال (الإنسان العاقل) إلى هذه المرحلة...!

لا ننكر الحركة التي قادها الأرسوزي ضد الاحتلال التركي للواء إسكندرون في ثلاثينيات القرن المنصرم، ولكنها لم تعط نتائجها المطلوبة، حيث احتل اللواء من قبل الأتراك وبمباركة فرنسية عام ١٩٣٩م. يمكننا اعتبار الأرسوزي الأب الروحي للقومية العربية والبعث العربي الذي أنتج ديكتاتوريات مثل جمال عبد الناصر وصادق الحسين.

كانت اللبنة العقائدية الإيديولوجية قد وضعت، فبنى عليها كل من ميشيل عفلق (١٩١٠م - ١٩٨٩م) وصلاح البيطار (١٩١٢م - ١٩٨٠م)، القوة التنظيمية والترجمة العملية لهذه الأفكار التي ستحول سوريا فيما بعد إلى دولة الأمة الواحدة المذهبية والاستخباراتية العسكرية. درس عفلق والبيطار أيضاً في السوربون الفرنسية وتخرجوا منها عام ١٩٣٤م وتعلموا على يد زكي الأرسوزي. يعتبر ميشيل عفلق اسماً بارزاً جداً في الإنشاء التنظيمي والإيديولوجي لحزب البعث ومطور للفكر القومي العروبي، ويشكل منعطفاً هاماً وتاريخياً لسوريا. ينتمي عفلق إلى أسرة مسيحية أرثوذكسية ذات أصول يهودية حسب بعض المؤرخين، ولد في دمشق وأكمل دراسته الجامعية في باريس. بعدها عاد إلى دمشق وتقل بينها وبيروت والقاهرة وبغداد. توفي في مشفى في باريس عام ١٩٨٩م. تأثر عفلق بحركة الانبعاث الإيطالي بزعامة جوزيبي مازيني فحملها بأهدافها إلى الواقع العربي واستورد من الفكرة الإيطالية أهداف (الوحدة - الحرية - الاستقلال) ثم استبدل الاستقلال بالاشتراكية. [٣١]

في البداية أنشأ الثنائي عفلق والبيطار ما يسمى "حركة الإحياء العربي" وسرعان ما تخليا عن ذلك واستخدما اصطلاح "الانبعاث" حيث قررا أن ما يجري في الأمة العربية هو انبعاث وليس إحياء فقط، وسبق أن استخدم هذا الاصطلاح من قبل الأرسوزي. تم الإعلان عن حزب البعث العربي في ٧ نيسان عام ١٩٤٧م، وتم فتح فروعه في أغلب البلدان العربية. اندمج حزب البعث العربي مع الحزب العربي الاشتراكي الذي يقوده أكرم الحوراني عام ١٩٥٢م، وبهذه الشاكلة ولد ما يسمى "حزب البعث العربي الاشتراكي".

أسس حزب البعث لمفهوم العروبة الصارمة والعنصرية، حيث اعتبر عفلق الأمة العربية فوق كل الأمم ووجودها أزلي ومنها ظهرت كل الحضارات، وما الإسلام سوى هدية العروبة للبشرية. كما أتاتورك تركيا وهتلر ألمانيا، حاول عفلق إعادة بعث الأمة العربية من جديد بالعمل الأخلاقي والروحي (برغسون) واعتبر الحس العربي حساً فطرياً ومتعالياً، وليست الأمة العربية طبقات حسب المفهوم الماركسي بل مجتمع أمة يتكون من أفراد متجانسين واعين لذواتهم العروبية. فكل شيء يخضع للمصلحة العليا للأمة العربية المجسدة في الحزب الطبيعي مثل تجسد الإله في المسيح لنصرة المظلومين، فيضع الحزب الشمولي المجتمع في عزلة تامة عن الخارج وكأنه مراقب من الأخ الأكبر كما وصفه جورج أوريل في روايته المشهورة "١٩٨٤". فنحن أمام ثلاثي مقدس الأمة - السوق - الوطن على شاكلة الثلاثيات اللاهوتية المقدسة مثل الإله - الملك - العبد في الملكيات العبودية القديمة والأب - الابن - الروح القدس في المسيحية الكاثوليكية.

كان الشعار الطنان الأهم للبعثية هو الوحدة العربية، حيث أصبح هوساً للبعثيين الذين ما فتئوا يبحثون عن آلية لتطبيق هذه الأفكار العنصرية تحت سقف واحد وعلم واحد وملك واحد ووطن واحد وجيش واحد. وهذا ما حصل فعلاً حيث اتحدت مصر وسوريا بين عامي ١٩٥٨م و١٩٦١م. وهنا بدأت الفاجعة ودولة الانحطاط وانعدام الديمقراطية وخرافة الأمة الواحدة في سوريا، وبلغت السوسيولوجيا ولجنا عصر رأسمالية الدولة والأمة العربية. فرضت الناصرية السلطة الاستخباراتية العسكرية على سوريا وتم حل كل الأحزاب السورية وكانت وحدة اندماجية ناصرية، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر وشكري القوتلي عن ولادة الجمهورية العربية المتحدة في ١ شباط عام ١٩٥٨م من القاهرة، وفي ٢١ شباط وافق استفتاء شعبي شكلي على الوحدة الاندماجية بين البلدين وأصبح عبد الناصر الرئيس المنتخب بنسبة ٩٩,٩٩ بالمئة للجمهورية العربية المتحدة. وبهذه الشاكلة تم تصفية الديمقراطيين والشيوعيين وكافة الميول الديمقراطية واللامركزية التي كانت موجودة إلى وقتها في سوريا. وبعد صراع طويل بين الناصرية والبعثية نفسها ونتيجة ظروف دولية ودعم

إقليمي للانقلاب النحلاوي ضد الاندماج، انتهت الوحدة بين البلدين، ودخلت سوريا في مرحلة دولة الظلام البعثية..

بعد الانفصال الذي وقع في ٢٨ أيلول من عام ١٩٦١م، تغير اسم الجمهورية العربية المتحدة، إلى الجمهورية السورية ولكن سرعان ما أصبحت الجمهورية العربية السورية. وبعد سلسلة انقلابات عسكرية، عاد البعث للمشهد السياسي والعسكري بقوة بعد أن تم حله أعوام ١٩٥٨م. حصل الانقلاب العسكري البعثي بقيادة الضباط صلاح جديد وحافظ الأسد ومحمد عمران، مدعومين من ميشيل عفلق والقيادة المدنية للبعث، في الثامن من آذار عام ١٩٦٣م وسميت "ثورة الثامن من آذار".

دمّرت الأفكار القومية وممارساتها الفظيعة من قبل حزب البعث العربي الاشتراكي بنية المجتمع السوري التعددي، ومارس نوع من الهندسة الاجتماعية تحت مسمى الأمة العرقية الصافية أو ما يصح تسميته بفاشية الدولة القومية. وتم تهجير الآلاف من الكرد من قراهم وبيوتهم ومورست عليهم سياسات الإقصاء والدمج والحرمان من المواطنة والحقوق الإنسانية بكافة أشكالها. حيث يشكل مشروع الحزام العربي أهم إنجاز لحزب البعث العربي الاشتراكي وإيديولوجيته الوضعية المبتذلة. تم تطبيق هذا المشروع الفاشي المقترح من قبل الملازم البعثي محمد طلب هلال في سبعينيات القرن المنصرم الذي كان يهدف إلى تغيير ديمغرافية المنطقة وبناء الأمة الخالدة الصافية. اقترح المشروع في عام ١٩٦٣م ودخل حيز التنفيذ في أعوام ١٩٧٣م. حيث يقول هلال في مسودة مشروعه ما يلي: "إذاً يمكننا القول، إنه ليس هنالك شعب بمعنى الشعب (الكردية)، ولا أمة بكاملها، بمعنى الأمة الكردية. ليست المشكلة الكردية الآن، وقد أخذت في تنظيم نفسها، إلا انتفاخ ورمي خبيث، نشأ، أو أنشئ في ناحية من جسم هذه الأمة العربية، وليس له أي علاج، سوى بتره." ويقترح سياسات التجهيل والتجريد وممارسة الإبادة الثقافية والعطالة عن العمل والتهجير الداخلي والخارجي على الكرد في سوريا وخاصة مناطق الجزيرة السورية. والباقي معروف بالتاريخ بوصلة الحقيقة دائماً وأبداً.

بعد صراعات طويلة بين الأجنحة العسكرية والسياسية في الدولة السورية وخاصة بعد خسارة حرب ١٩٦٧م مع إسرائيل، قاد حافظ الأسد مع بعض الضباط البعثيين انقلاباً عسكرياً في ١٦ تشرين الثاني عام ١٩٧٠م ضد الضباط صلاح جديد ورئيس الجمهورية آنذاك نور الدين الأتاسي وسجنهما وسمى الانقلاب في الأديبات البعثية بـ "الحركة التصحيحية". ودخلت سوريا مرحلة الدولة البعثية الشمولية التي يقودها الحزب الواحد، ثم تحولت لدولة العائلة والمذهب. لن ندخل في تفاصيل الأحداث بعدها، حيث كان الحكم يعتمد على المركزية المفرطة والعسكراطية الاستخباراتية والنظام الشمولي وغياب تام للديمقراطية بكافة أشكالها.

الهدف من هذا السرد المقتضب لتاريخ سوريا، هو الإشارة إلى أن الطبيعة المجتمعية لسوريا، غير قابلة لأن تضبط في دولة قومية أحادية، بل اللامركزية والأمة الديمقراطية والجمهورية الديمقراطية التعددية هي النموذج المناسب لهذا الموزاييك الثقافي. حيث إن أسطورة الدولة القومية والعروبة، هي التي أوصلت سوريا إلى باب هادس (الجحيم) وعبدت الأرضية لظهور جحافل العصر ودولتهم الداعشية المهزومة.

هل نموذج الإدارة الذاتية اللامركزية هو حل للمعضلة السورية؟

أفرزت الأزمة السورية التي بدأت ٢٠١١م وباتت على مشارف دخولها عامها التاسع، نماذج جديدة بالإدارة لا سيما الدولة المركزية أصبحت هشة وغير مستساغة من قبل المجتمع السوري بكافة مكوناته. حافظت مكونات شمال وشرق سوريا على مناطقها منذ مطلع ٢٠١٢م وبالتحديد من تاريخ التاسع عشر من تموز وأعلنت الإدارات الذاتية التي تعتمد على الديمقراطية المباشرة عن طريق الكومونات والمجالس. بُعيد الانتهاء العسكري من داعش ودولته المزعومة على يد قوات سوريا الديمقراطية (قسد)، تدخل سوريا مرحلة جديدة من تاريخها، أو ما يمكن تسميته مرحلة "البحث عن الحل".

مازال الخطاب الإقصائي المتعالي والقوموي لحكومة دمشق مستمراً رغم سنوات الحرب التي أهلكت المجتمع وراح ضحيتها أكثر من ٥٠٠ ألف شخص ودمرت البنية التحتية بما يقدر ٤٠٠ مليار دولار، وهجرت أكثر من نصف المجتمع إلى الخارج بالإضافة لظاهرة الهجرة الداخلية، وارتفاع نسبة البطالة وشح الموارد الرئيسية الحياتية، بالإضافة لانقسام سوريا على مستوى النفوذ حيث النظام ومن ورائه روسيا وإيران يسيطر على قرابة ٦٠ بالمئة من الأرض، أما الاحتلال التركي والمجموعات المسلحة التابعة له فيحتل قرابة ١٥ بالمئة من الهلال الشمالي الغربي في سوريا، و ٣٠ بالمئة تحت نفوذ الإدارة الذاتية لشمال وشرق سوريا وقوات سوريا الديمقراطية المدعومة من التحالف الدولي بقيادة أمريكا. بالرغم من ذلك ما زالت الحكومة المركزية الهشة في دمشق، مصرة على لغة التهديد والفوقية والالتزام بالانفصالية والتزعم بالسيادة (اعترفت أمريكا ٢٥ آذار ٢٠١٩ بشكل رسمي بالسيادة الكاملة لإسرائيل على هضبة الجولان)، حيث اجتمعت قيادات أركان الجيوش السورية والإيرانية والعراقية في ١٨ آذار ٢٠١٩ في دمشق، وهدد وزير الدفاع السوري العميد علي أيوب

مناطق شرق الفرات وعرض خيارى ما سماه المصالحات الوطنية أو تحرير الأراضي التي تسيطر عليها قسد بالقوة بطريقة غير لائقة تعمل على تأزيم الوضع السوري أكثر فأكثر .

لن تحل الأزمة السورية إلا بسبل الحوار الديمقراطي السوري ودمقرطة الدولة السورية. لا أحد سيقبل بسوريا مركزية تحكمها دولة البوليس والاستخبارات بعد الآن، وأصلاً طبيعة المجتمع السوري المتعدد لا تتوافق مع هكذا نظام صارم ومنغلق على ذاته (كما ذكرنا سابقاً). يجب العمل على إجراء انتخابات ديمقراطية حقيقية وبناء دستور حقيقي يتخذ من اللامركزية والديمقراطية والتعددية أساساً، وفتح الأبواب للأحزاب السياسية والمجتمع المدني للعب دوره، حيث ستلعب الأحزاب دوراً مهماً في سوريا المستقبل.

يمكن للمكونات العلوية والدرزية والكردية والسريانية وغيرها من الشعوب المكونة للموزاييك السوري، العمل على توحيد الجهود المشتركة ودمقرطة الدولة وحثها على الاعتراف الدستوري بالإدارات المحلية الذاتية والديمقراطية التشاركية، حيث الهوية السورية الديمقراطية هي الهوية الجامعة لشتى الإثنيات والمذاهب والأديان.

"نحو الدولة الوطنية" كيف ستصاغ العلاقة مع الحكومة المركزية؟

الدستور الديمقراطي هو الذي يحدد شكل العلاقة بين الحكومة المركزية ومناطق الإدارات الذاتية. حيث يجب أولاً الاعتراف القانوني والدستوري بشبه استقلالية هذه المناطق، وترتيب العلاقات الإدارية في ظل الحكم الاتحادي الديمقراطي. نستطيع اعتبار العقد الاجتماعي لشمال وشرق سوريا كمسودة مشروع متكاملة، تعتمد على اللامركزية الديمقراطية والتعددية السياسية والاتحاد - التوافق الديمقراطي.

كشبه الاستقلال الاقتصادي، السياسي، العسكري والثقافي. منها أيضاً رفع علم الحكومة المركزية على المؤسسات، دمج القوى العسكرية بالقوات العامة مع الإبقاء على خصوصية القوى المحلية الذاتية، مشاطرة الاقتصاد والثروات، تطوير التعليم الذاتي والمتوافق مع تاريخ المنطقة والبلد، إعطاء صلاحيات أكبر للمجالس والسلطات المحلية، وكل هذه الخطوات تبدأ من الاعتراف الدستوري والقانوني.

ما هو شكل الحكم المناسب للتوافق الديمقراطي؟ هي الدولة الوطنية. إذاً ما هي الدولة الوطنية؟ هي الدولة المرتكزة على أساس المجتمعات المحققة لِتَحْوُلُهَا الوطني. وهي دولةُ العصر الحديث (العصر الرأسمالي بمعناه الضيق). ولا تقتصر على العصر الرأسمالي فحسب، بل وتُشكِّلُ الوضع السائد أساساً في العصر الديمقراطي أيضاً، أو بالأحرى تؤدي دورها بإدارة دفة الحكم بالوفاق (الدولة + الديمقراطية). هذا وبالإمكان القول بوجود الدولة الوطنية عندما تتواجد كلتاها، أي عندما يسود نظامُ الدولة + الديمقراطية. وهي تختلف عن دولة الأمة من حيث قدرتها على احتضان العديد من الأمم. [٣٢]

لا يختلف مشروع النظام السوري الذي يتخذ من الدولة القومية المركزية أساساً عن مشروع المعارضة، التي تروج لمشروع "دولة المواطنة" التي تصب في نفس خانة النظام السوري ومشروعه. المهم هو النقاش ودعم الوفاق الديمقراطي بين جميع القوى، والدولة الوطنية أو الجمهورية الديمقراطية هي حل توافقي لكل الشعوب والمكونات.

لا يمكن التكهن بمستقبل سوريا في ظل الصراع الإقليمي والدولي على أرضها، حيث تتصارع خمس قوى إقليمية ودولية فيها "أمريكا - روسيا - إسرائيل - إيران - تركيا"، ولكل قوة مصالحها الخاصة في خوض الحرب ووضع شروط السلم. لذا على السوريين الحوار والتوافق على أسس الدولة الوطنية الديمقراطية، فالكرد والعرب والدروز والعلويون وغيرهم، هم أصحاب سوريا الحقيقيون وبنّاءو الجمهورية السورية الديمقراطية، وإلا لن يختلف مصير سوريا عن البوسنة والعراق.

على سبيل الخاتمة

نمر مرحلة عصبية من تاريخ ما يسمى "حضارتنا الإنسانية"، التي تطوي في داخلها أيما توحش وبربرية وحتى همجية أكثر من همجية جنكيز خان نفسه. في ظل أزمة "المنظومة العالمية" بكافة بنائها وهيكلها السياسية والاقتصادية والمعرفية، تظهر لدينا خيارات متعددة من رحم أزمة النسق القائم، وكل ما هو مطلوب هو الاختيار الصحيح والممارسة السياسية الصحيحة.

بالرغم من تعنت الدولة القومية وانغلاقها الأيديولوجي، ولكن يمكن العيش معها تحت سقف قانوني، يعتمد على العقلية التشاورية. حيث إن النضال القانوني والدستوري مهم جداً للمجتمعات الديمقراطية التي تسعى لإنشاء نظامها الخاص، وطبعاً من غير المنطقي أن تتطلع المجموعات إلى التدول والسلطة على غرار ما تحاول الليبرالية عرضه وكأن الانفصال أو التدول هو الشكل الوحيد لممارسة حق تقرير المصير.

يتحدث يورغن هابرماس عما يسميه "المواطنة الدستورية" و"العقلانية التوافقية" التي تشكل الإطار أو الفضاء الأنسب للمجتمعات لممارسة حقها الديمقراطي قانونياً، ومن الأجدر تسميته بالتوافق الديمقراطي بين القوى الدولية والمجتمعية الديمقراطية.

النظام الرأسمالي العالمي ينهار من الناحية البنيوية والمعرفية، وبات المجتمع العالمي الكوني أمام خيارات جديدة وقد تكون أسوأ من السابقة، ومن الناحية الكوانتية قد يكتب المناضلون الحقيقيون التاريخ هذه المرة أو لا، فلا شيء مؤكد في ظل هذه الفوضى الكونية...!

المراجع

[١] - نيتشه، فريدريش، هكذا تكلم زرادشت، قسم "عن الصنم الجديد" ترجمة علي مصباح ص ١٠٢

[٢] - أوجالان، عبد الله، مانيفستو الحضارة الديمقراطية، المجلد الثالث "سوسيولوجيا الحرية"، ص ١٨٥

[٣] - هراري، يوفال، العاقل؛ تاريخ موجز للنوع البشري ص ٥٣

[٤] - أوجالان، عبد الله، المجلد الخامس من مانيفستو الحضارة الديمقراطية، القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية "دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكيّ الإبادة الثقافية" ص ٣٣

[٥] - أوجالان، عبد الله، المجلد الخامس من مانيفستو الحضارة الديمقراطية، القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية "دفاعاً عن الكرد المحصورين بين فكيّ الإبادة الثقافية" ص ٦١٧

[٨ - ٩ - ٠١ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤]

إسبانيا ١٩٧٨ (المعدل ٢٠١١) constituteproject

[١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ - ١٩]

سويسرا ١٩٩٩ (المعدل ٢٠١٤) constituteproject

[٢٠ - ٢١ - ٢٢]

الإمارات العربية المتحدة ١٩٧١ (المعدل ٢٠٠٩) constituteproject

[٢٣]

العراق ٢٠٠٥ constituteproject

[٢٤]

العراق ٢٠٠٥ constituteproject

[٢٥] - ديب، كمال، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، ص ٣٦

[٢٦] دستور المملكة السورية العربية الصادر في ١٣ تموز سنة ١٩٢٠ wikisource

- [٢٧] - ديب، كمال، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، ص ٤٢
- [٢٨] - ديب، كمال، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، ص ٤٢
- [٢٩] - خوين، جكر، سيرة حياتي، ص ٢٥٢
- [٣٠] - ديب، كمال، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، ص ٥٥
- [٣١] - ديب، كمال، تاريخ سوريا المعاصر من الانتداب الفرنسي إلى صيف ٢٠١١، ص ٩١
- [٣٢] - أوجالان، عبد الله، المجلد الثاني "المدنية الرأسمالية"، مانيفستو الحضارة الديمقراطية، ص ١٩٣

تركيا والأزمة السورية..

بين دعم التنظيمات المتطرفة وغزو الأراضي السورية

الباحث ستالين أوسو

محاور الدراسة:

مساعي تركيا لإيجاد موطأ قدم لها في الأراضي السورية دون التدخل عسكرياً:

الخطوات التي أتبعتها تركيا، لغزو الأراضي السورية:

بداية التدخل العسكري التركي في سوريا:

اتفاقات تركيا مع روسيا والهدف منها:

احتلال تركيا لعفرين وتحويلها لأكبر ساحات الصراع على الإطلاق:

تركيا وأهدافها في إدلب:

أسباب تعاون تركيا مع جبهة النصرة:

كيف اثبتت تركيا أن أهدافها في المناطق التي دخلتها احتلالية، ولا علاقة لها بمزاعم مساندة الثورة السورية:

أطماع تركيا في منبج وشرق الفرات واعلان واشنطن "الانسحاب من شرق الفرات"

تمهيد: يتوجب على كل متابع للأوضاع في الأزمة السورية معرفة الدور التركي في هذه الأزمة، فبدون معرفة هذا الدور لا يمكن للمرء أن يفهم الأسباب التي أدت إلى تدهور الأوضاع في سوريا وظهور كل هذه التنظيمات المتطرفة على الأرض، كما أن الدور التركي في سوريا مر بالعديد من المراحل، فهي بدأت بالتدخل من خلال دعم جماعات متطرفة دون التدخل العسكري ومن ثم بدأت تخطط للتدخل العسكري إلى جانب دعم تنظيمات متطرفة ومسلحين.

كما أدى التدخل التركي في الأزمة السورية إلى تدهور العلاقات بين أنقرة وواشنطن، إضافة لتوطيد العلاقات التركية الروسية.

وكان للتدخل التركي في سوريا دوراً في ترخيص صفوف مسلحي داعش، من خلال دعمها عسكرياً ولوجستياً وتنظيماً، وهو ما تم تثبيته من خلال أدلة دامغة، أبرزتها صحف عدة وأكدتها أيضاً وسائل إعلامية واستخباراتية.

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في التعريف بالدور التركي في الأزمة السورية، والتي أثرت سلباً وعلى جميع الجوانب على سوريا، كما أن دور تركيا في دعم المتطرفين لا يمكن إخفاؤه من خلال إثباتات عدة قدمتها مصادر موثوقة، إضافة لتسجيلات أبرزتها العديد من الوسائل الإعلامية.

أهداف الدراسة: بالطبع من أهم الأهداف التي نسعى الوصول إليها من خلال هذه الدراسات هي إبراز الانتهاكات التركية، ومساعدتها لاقتطاع أراضٍ من الجغرافية السورية، كما نسعى لجمع أدلة كافية في هذه الدراسة عن أسباب دعم تركيا لمسلحين، تحت مسمى "المعارضة السورية" وأيضاً دعمها لداعش من خلال إثباتات عدة.

التعريفات الإجرائية للدراسة:

درع الفرات: هي فصائل تدعمها أنقرة، سلمت مناطق من الداخل السوري للنظام، بعد صفقات بين روسيا وتركيا، وانتقلت إلى شمال سوريا لمحاربة مشروع الإدارة الذاتية، وتشكل من عدة مجموعات متطرفة منها "فرقة الحمزة، فيلق الشام، فرقة السلطان مراد، حركة نورالدين الزنكي، الجبهة الشامية، أحرار الشرقية".

الاتفاقيات التركية الروسية: اتفاقيات عدة أبرمتها روسيا مع تركيا، تمت بموجبها انسحاب فصائل "المعارضة" من مناطق عدة، مقابل منح الأتراك من الجانب الروسي ضوء أخضر بغزو مناطق في الشمال السوري (هذا التعريف وصفه وسائل إعلام دولية وعربية).

المنطقة العازلة: هي مساحة معينة من أراضي دولة تحدها الأمم المتحدة أو أطراف دولية بغرض السيطرة عليها عسكرياً وفرض الحماية والوصاية الأمنية عليها تحت مسمى حماية السلم والأمن الدولي ومن ثم تحقيق أهداف عسكرية وسياسية انطلاقاً من هذه المنطقة العازلة.

المدخل

يتساءل العديد من المراقبين عن دور تركيا الدولة التي تحتل مساحات واسعة من الأراضي السورية، في ظل الازمة التي أطاحت بالبلاد.

فكيف تدخلت تركيا في الأزمة السورية، وما هي أهدافها، ومن هي الجماعات التي تحصل على دعم من هذه الدولة.

فمن المعروف لدى الجميع أن تركيا بدأت بـ "استنكار" ما سمته بعنف نظام بشار الأسد بسبب الاحتجاجات في يوليو ٢٠١١، وتدهورت علاقاتها مع النظام السوري، بعد تلك الردود، إضافة لإيوائها ما تسمى بالمعارضة، وفتح الطريق لهم للدخول إلى سوريا، كما زودتهم بحسب العديد من التقارير لوجستياً وعسكرياً اعتقاداً منها بأن تلك الاحتجاجات ستؤدي إلى إسقاط نظام الأسد.

وتقول العديد من التقارير أن تركيا فتحت أبواب حدودها لإدخال كل من يريد الالتحاق بـ "المعارضين"، سواء "المعتدل" منهم أو المتطرفين.

مساعي تركيا لإيجاد موطأ قدم لها في الأراضي السورية دون التدخل عسكرياً:

بالرغم من عدم دخول تركيا بعساكرها إلى الأراضي السورية في بادئ الأمر إلا أنها حاولت بكل الامكانيات، من خلال عدة خطوات لإيجاد موطأ قدم لها في المنطقة.

ونستعرض لكم من خلال هذه الدراسة تلك الخطوات بحسب تسلسلها الزمني.

ففي ١ يونيو/ حزيران من عام ٢٠١١ عقدت فصائل ما تسمى بالمعارضة مؤتمراً في مدينة أنطاليا برعاية تركية، تحت عنوان أعمال المؤتمر السوري للتغيير زعمت آنذاك أن المؤتمر يهدف لـ "صوغ خطة الإصلاح الديمقراطي في سوريا".

وأعلنت السلطات التركية آنذاك أن جماعة الإخوان المسلمين حضرت المؤتمر، وهو ما أكده أيضاً القائمون على المؤتمر.

وجاء عقد مؤتمر انطاليا بعد اجتماع أول شارك فيه "معارضون" في اسطنبول في السادس والعشرين من نيسان/ابريل بدعوة من منظمات تركية تحت رعاية استخباراتية، لبحث مجريات الأحداث في سوريا.

بكل تأكيد فإن هذا المؤتمر (المؤتمر السوري للتغيير) عقد برعاية تركية، حيث أن الحكومة التركية كانت تعتقد بأن أيام حكومة الأسد معدودة، وأرادت أن تدخل في سوريا من خلال نقل الحكم من عائلة الأسد، إلى جماعة الاخوان المسلمين، المحظورة في سوريا، والتي تدعمها تركيا بكل وضوح حتى الآن.

وبالرغم من دعم تركيا لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا كما فعلت ذات الشيء في تونس، ومصر وليبيا، إلا أنها لم تعلن في ذلك العام عن نيتها من التوغل العسكري في سوريا، ففي تاريخ ٩ نوفمبر/تشرين الثاني قال وزير الخارجية التركي آنذاك أحمد داود أوغلو إن بلاده لا تحبذ التدخل العسكري في سوريا، لكنها مستعدة لكل السيناريوهات، بما في ذلك إقامة منطقة عازلة على الحدود.

ومع مطلع عام ٢٠١٢ بدأ سجال حاد بين النظام التركي والسوري، ففي تاريخ ٢٦ آذار بدأت تركيا بإغلاق سفارتها في العاصمة دمشق، وزعمت أن اغلاق السفارة كانت نتيجة لتدهور الأوضاع الأمنية في المنطقة، إلا أنها كشفت في وقت لاحق قطع كامل علاقاتها مع النظام السوري، وأعلنت مساندتها لمسلحين تحت مسمى المعارضة.

وفي شهر آب من ذات العام دعت تركيا لإنشاء منطقة عازلة داخل سوريا، لإيواء اللاجئين، حيث قالت أن تركيا استقبلت عدداً كبيراً من اللاجئين السوريين، ومن هنا وبحسب العديد من المراقبين بدأ سيناريو الأطماع التركية ضمن الأراضي السورية، وبكل تأكيد وبالنظر إلى مصطلح منطقة آمنة بالمنظور الدولي، فإن هذه الخطوة تعني فرض حظر جوي على المنطقة إضافة لتدخل عسكري، وهو ما لم يتحقق آنذاك نظراً لصعوبة تحقيق الأمر.

وفي ذات العام وافق البرلمان التركي على التوغل العسكري التركي في سوريا بحجة حماية أمنها القومي، كما اعترفت بـ "الائتلاف" كممثل رسمي للشعب السوري.

الخطوات التي أتبعها تركيا، لغزو الأراضي السورية

وشهدت تلك الفترة العديد من الانتهاكات التركية بحق أبناء الشعب السوري، فقد استغلت العديد من الجوانب تحضيراً للتدخل في سوريا، وبرز لكم من خلال هذه الدراسة ثلاث خطوات قامت بها تركيا تحضيراً لغزو سوريا:

الخطوة الأولى: هذه الخطوة تتطلب المزيد من الدراسة لكننا سنكتفي معكم بالقدر الذي نطرحه لكم.

فقد دعمت الحكومة التركية مسلحين للضغط على حكومة الأسد وإضعافها، واستغلت العامل الطائفي لكسب شعبية أبناء المناطق السنية، وبرز نقاط دعم تركيا للمتشددين من خلال العديد من التفاصيل أبرزتها مصادر موثوقة عن دعم تركيا لداعش.

وتضمن الدعم التركي لداعش من خلال.

١ - دعمها بالسلح: ففي يوليو ٢٠١٤ على سبيل المثال قدّم رئيس بلدية ماردين آنذاك أحمد تورك إلى سفير الاتحاد الأوروبي في تركيا ومجموعة من الصحفيين، في جلسة عقدت في ماردين، تقريراً مفصلاً وموثقاً ومدعوماً بالأدلة الدامغة من صور واشرطة فيديو عن الدعم الرسمي الذي تقدمه تركيا لتنظيم "داعش"، ومنها تنقل أفراد منه يرتدون البزة العسكرية التركية، والآليات العسكرية التركية داخل البلاد، وكيف أن رئيس بلدية جيلان بينار، وهو من "حزب العدالة والتنمية"، يلتقي داخل أحد الخيم مقاتلين من مسلحي "داعش".

محمد نورالدين وهو كاتب مختص في العلاقات التركية العربية كتب في مقالة له بجريدة السفير اللبنانية في يوليو ٢٠١٤ "لم يعد السؤال هل أنقرة تدعم "داعش" أم لا، فهذا بات محسوماً، ومنذ زمن طويل. لكن السؤال هو لماذا تدعم تركيا، بقيادة "حزب العدالة والتنمية"، هذا التنظيم الخطير والعنيف، والذي لا ينسجم أبداً مع القيم التي يحملها الإسلام".

٢ - دعمها تنظيمياً: هذا وأكدت أيضاً مصادر موثوقة آنذاك أن تنظيم داعش الإرهابي وأثناء تشكله طلب من كل الذين يريدون الالتحاق بهم، أن يبقى قسم منهم في تركيا لينشؤوا نواةً مستقبلية من الممكن الاستفادة منها، وهو ما حصل بالفعل، فقد كان الإرهابيون ولا يزالون حتى الآن ورقة ضغط لتركيا تهدد بها بلدان العالم.

ومن أبرز النقاط الأخرى التي تؤكد دعم تركيا لمسلحي داعش أيضاً، هي أفراج داعش عن ٤٩ رهينة تركية في مدينة موصل العراقية، فقد زعمت تركيا بأن عملية سرية أودت إلى الافراج عنهم، وأكدت تركيا أنها لم تدفع أي فدية مالية لداعش.

وكانت هذه العملية هي أول عملية تفاوض من قبل طرف معين مع مسلحي داعش، حيث أن المسلحين لم يتفاوضوا بشأن الرهائن مع أي جهة بل كانت تقدم على إعدام كل الرهائن التي بحوزتها" وكانت هذه العملية مصدر تساؤل لدى العديد من المراقبين.

وبالتأكيد فإن تركيا كانت ترغب في جعل مسلحي داعش، طرفاً قوياً على الأرض السورية، ولذلك فأنها لم تحاربهم على الإطلاق، وأهمل الأمن التركي ملاحقة أفراد التنظيم في البلاد، على قاعدة أن داعش لم يلحق أضراراً بتركيا وأن عدو عدوي صديقي.

ورفضت تركيا المشاركة في التحالف الدولي لضرب داعش سواء في سوريا أو العراق. وكانت تصريحات المسؤولين الأتراك تشكك دوماً في حقيقة تنظيم داعش ومن يقف وراءه.

وفي أغسطس ٢٠١٥ استهدف مسلحي داعش مدينة سروج من خلال "انتحاري" وأودى الانفجار بحياة أكثر من ٣٠ شاباً كردياً، ورغم ذلك اعتبر مسؤولين في الحكومة التركية أن التفجير استهدف الكرد انتقاماً لكوياي ولم يستهدف تركيا، وأهمل الأمن التحقيق في الهجوم.

وتغير موقف تركيا من داعش فجأة، إذ انضمت للتحالف الدولي وفتحت له قواعدها العسكرية بحجة إطلاق داعشي النار على حرس الحدود وقتل جندي تركي، لكن أنقرة استغلت الأمر لتمرر هجماتها على مواقع لوحدات حماية الشعب، ولم ينل داعش من ضرباتها ضمن التحالف شيئاً يذكر.

٣- دعمها مادياً: بالرغم من ادعاء تركيا بمحاربة داعش ظهر فيما بعد النقيض تماماً، حيث بدأت تركيا بشراء النفط الخام من مسلحي داعش، حيث أصدرت وزارة الدفاع الروسية بداية شهر ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠١٥ أدلة تظهر أن معظم تجارة النفط غير المشروعة من قبل داعش يتجه إلى الأراضي التركية، حيث عرض نائب وزير الدفاع اناتولي أنطونوف في لقاء مع الصحفيين أشرطة فيديو فضلاً عن خرائط مفصلة تبرز الطرق التي يتم عبرها تهريب نفط داعش إلى تركيا.

وأوضحت الوزارة في مؤتمر صحفي عقده في الـ ٢١ ديسمبر/كانون الأول أن عائدات "داعش" من الاتجار غير الشرعي بالنفط كانت ٣ ملايين دولار يومياً.

وقال أناتولي أنطونوف نائب وزير الدفاع الروسي في المؤتمر: "تعتبر العائدات من الاتجار بالنفط من أهم مصادر تمويل أنشطة الإرهابيين في سوريا. وتبلغ عائداتهم قرابة مليار دولار سنوياً، إذ يتم إنفاق هذه الأموال على تجنيد المرتزقة في أنحاء العالم كافة، وتسليحهم وتزويدهم بالمعدات. وهذا هو السبب وراء حرص تنظيم "داعش" على حماية البنية التحتية للإنتاج النفطي اللصوصي في سوريا والعراق".

وشدد المسؤول العسكري الروسي على أن القيادة التركية العليا والرئيس رجب طيب أردوغان متورطون شخصياً في الاستخراج غير الشرعي للنفط السوري والعراقي وتهريبه إلى أراضي تركيا.

الخطوة الثانية:

أما النقطة الثانية تحضيراً للتدخل العسكري في سوريا فكانت ما يلي:

استغلت تركيا قضية اللاجئين السوريين، في المحافل الدولية، وحصلت على مبالغ مالية طائلة من الاتحاد الأوروبي، ففي ٢٩ نوفمبر عام ٢٠١٥ على سبيل المثال وقع الاتحاد الأوروبي اتفاقاً مع تركيا وعرضت عليها مبلغ ٣ مليار دولار، مقابل وقف تدفق المهاجرين إلى أوروبا، كما حصلت تركيا آنذاك بالإضافة للحوافز المالية على ما سموه بـ "حوافز سياسية".

وبالتأكيد فإن استغلال قضية اللاجئين كانت من بين أهم أوراق الضغط التركية على الاتحاد الأوروبي، وبالرغم من تقديم الاتحاد الأوروبي لمبالغ مالية طائلة لتركيا، إلا أنها استغلت تلك الأموال ودعمت بها فصائل متشددة، وأرسلت شحنات عديدة من الأسلحة إلى سوريا، تحضيراً لتدخلها العسكري في سوريا.

الخطوة الثالثة

أعلنت تركيا أنها وبالتنسيق مع الولايات المتحدة بدأت بعملية تدريب مقاتلي ما تسمى بالمعارضة السورية "المعتدلة" على الأراضي التركية، وذلك تمهيداً لانخراطهم في القتال ضد داعش بحذ زعم تركيا.

وكانت تركيا ترغب من تلك الخطوة إلى ضرب مشروع الإدارة الذاتية، بعد أن تبسط تلك القوات سيطرتها على مناطق في شمال سوريا، والتي كانت تحت سيطرة إرهابيي داعش.

وكشفت تلك القوات نواياها لواشنطن، وكشفت أيضاً نوايا الدولة التركية، بعد أن سلمت أسلحتها لمسلحي النصر، وقال أعضاء جمهوريون في مجلس الشيوخ الأمريكي آنذاك خلال مناقشة برنامج تدريب وتسليح ما يسمى "المعارضة المعتدلة" في سورية أن هذا البرنامج ليس سوى "مهزلة وفاشل تماماً".

وبكل تأكيد وبحسب المعطيات على الأرض فإن تلك القوى كانت من أهم الخطوات بالنسبة لتركيا لتدخل في سوريا عسكرياً.

بداية التدخل العسكري التركي في سوريا:

تركيا بدأت تتحضر للدخول إلى سوريا عسكرياً بحسب العديد من التقارير منذ بداية عام ٢٠١٤، وتم إصدار ملف صوتي في اليوتيوب لمناقشات بين مسؤولين اترك حول الاستراتيجيات التركية السورية في ال ٢٧ من آذار عام ٢٠١٤ ناقش المسؤولون عملية تؤدي إلى غزو سوريا و بالتالي تم حظر الفيديو في اليوتيوب في تركيا .

مصدر هذه المعلومة ويكيبيديا (فقرة خطط الغزو في عام ٢٠١٤)

ومع بداية عام ٢٠١٦ بدأت القوات التركية والتي تحتل الآن مساحات من الأراضي السورية بالتخطيط للتدخل في مناطق سوريا، ففي ١٤ كانون الثاني/ يناير زعمت القوات التركية أن قواتها قصفت مواقع لداعش في سوريا والعراق، إلا أن ذلك القصف بدا يتجلى تفاصيله بشكل أوضح، وتم التوصل للهدف من تلك الخطوة.

فتركيا أدركت أن قوات سوريا الديمقراطية باتت على أعتاب تحقيق انتصار كبير على الأرض، ضد مسلحي داعش، وأصبح حديث العالم وحديث الصحافة هو تضحيات أبناء الشمال السوري، فقصفت تركيا في تاريخ ١٩ شباط من العام ذاته وبالمدفعية الثقيلة مناطق لقوات سوريا الديمقراطية، وأقرت أن قوات سوريا الديمقراطية تشكل خطراً على أمنها القومي، وبدأت باستخدام كافة أوراقها للضغط على التحالف الدولي للاستغناء عن شراكتها مع قوات سوريا الديمقراطية.

وأعلنت تركيا في تلك الفترة بوضوح أنها ستدخل في سوريا، لمحاربة داعش، ومحاربة قوات سوريا الديمقراطية، إلا ان العالم بأسره يعلم بشكل جيد أن هدف تركيا هو الكرد فحسب، وأن داعش لم تشكل لها تهديداً

على الأطلاق بل أن الجميع يدرك بأن تركيا هي الداعمة الرئيسية حتى الآن لداعش، وتجلى هذا الدعم من خلال العديد من المواقف التي ذكرناها.

وبدأ الغزو التركي في شهر آب عام ٢٠١٦ في مدينة جرابلس، و"توغلت تركيا" في غضون ساعتين إلى قلب المدينة، بالرغم من تواجد أكثر من ٢٠ ألف عنصر من مسلحي داعش في المدينة، ومئات الجرحى من داعش، الذين جرحوا إثر معارك طاحنة قادتها قوات سوريا الديمقراطية بالتنسيق مع التحالف الدولي في منبج والتي أسفرت عن تحرير المدينة في ١٢ آب ٢٠١٦.

وقال الصحفي في وكالة أنباء هاوار أكرم بركات في مقالة له "الكثيرون يسألون، أين ذهب ٢٠ ألف مرتزق، أين جثثهم".

إذاً احتلال تركيا لجرابلس كانت عملية لتبديل الألبسة لا أكثر، فعوض الكونغرس الأمريكي عن الحزب الجمهوري وعضو لجنة العلاقات الخارجية للكونغرس توماس غاريت، أثناء خطابه أمام جلسة للكونغرس الأمريكي في ١٩ كانون الأول أوضح بالقول "إحدى القصص التي سمعتها هي كيفية دخول الجيش التركي إلى جرابلس بذريعة محاربة داعش والقضاء عليه، قام الدواعش بتغيير ملابسهم العسكرية فقط، والآن يعملون في تركيا ومع تركيا تحت ملابس عسكرية أخرى ومسميات أخرى".

وقال العديد من المحللين في صحف عربية عدة أن تركيا أيقنت بأن قوات سوريا الديمقراطية ستتوجه إلى جرابلس والباب وغيرها من المناطق لذا بدأت بخطة الغزو قبل أوانها.

واستمرت سلسلة العمليات التركية في مناطق أخرى من الشمال السوري، بعد أن فشل المسلحين المدعومين من قبلها "سواءً المعارضة أو داعش" في تحقيق مرادها لتصبح تركيا تسيطر على مساحات واسعة من الأراضي السورية، متمثلةً بمناطق جرابلس، الباب، وأعزاز، وبعدها كانت عفرين المنطقة الآمنة التي تحولت بعد الاحتلال التركي لأكبر ساحات الصراع بين المسلحين المدعومين تركيا^{١١٣}.

وعلى خلاف ما روجه العديد من المسلحين التابعين للاحتلال التركي، بأن تركيا تهدف لمساندة "الثورة السورية"، وأن أهدافها ليست احتلالية، أكد في أكثر من مرة، محللين سياسيين مقربين من رئيس النظام التركي رجب طيب أردوغان، أن مناطق جرابلس، الباب، وأعزاز ومنبج هي مناطق أجدادهم، وسيعيدون ضمها إلى تركيا.

اتفاقات تركيا مع روسيا والهدف منها:

بالتأكيد فإن دخول تركيا عسكرياً إلى سوريا لم يأت بدون تحضيرات فهي التجأت إلى الاتفاق مع روسيا، لتحقيق مصالحها لأنها أدركت أنها لا تستطيع أن تسير وحيدة، فهي بحسب المعطيات التي نجدها على الأراض تركت كل أمر يتعلق بـ "الثورة السورية" والتجأت إلى تحقيق سياساتها الاحتلالية فدخول الاحتلال التركي إلى مناطق جرابلس والباب وأعزاز تزامن مع حصار حلب من جانب النظام السوري، إذاً هل هذه الخطوة صدفة أم كانت عبارة عن اتفاقية روسية تركية.

فبتاريخ ٥ أيلول ٢٠١٦ أعلن رئيس الوزراء التركي، بن علي يلدريم، "تأمين" ٩١ كم من مساحة الشريط الحدودي السوري-التركي، وتزامن ذلك مع إعادة قوات النظام السوري حصار مدينة حلب.

وقال ناشطون سوريون أن من بين الأسباب التي أدت إلى خسارة حلب، هي توجه فصائل ما تسمى بالمعارضة للقتال في صفوف درع الفرات، وأكد أيضاً الناشطون أن تزامن معركة "درع الفرات" مع معركة حلب، كانت نتيجة صفقة تركية روسية.

صحيفة الشرق الأوسط اللندنية نقلت عن إسماعيل حقي تكين، نائب رئيس حزب الوطن التركي، والدبلوماسي ورجل المخابرات التركي السابق، قال "مع دخول القوات من تركيا إلى سوريا فسرى خلال أيام قليلة أن حلب تعود بواسطة جيش النظام السوري، وبمساعدة روسية".

وأضاف أنه إذا "تقدمت تركيا خطوة واحدة نحو الأسد فسينتقدم الأسد ٤ خطوات"، لافتاً إلى "أن الأسد يبدي توجهاً إيجابياً اتجاه الجهود الروسية المبذولة لإصلاح العلاقات مع تركيا".

وبالنظر إلى تصريحات اسماعيل حقي تكين فإن المرء يدرك بأنها ليست توقعات، أو تحليل سياسي فرجل المخابرات التركي أدرك جيداً أن التدخل التركي العسكري لم يأت بدون تفاوض، وادرك جيداً أيضاً أن تزامن دخول القوات التركية لسوريا، مع دخول النظام لحلب لم تكن صدفة أبداً.

وبدأت بعد تلك الاتفاقية القوات الروسية بالتوصل للمزيد من الاتفاقات مع الجانب التركي، حتى تم تطهير الداخل السوري بالكامل من ما تسمى بالمعارضة مع تعزيز الجيش التركي لتواجده في مناطق الشمال السوري، لضرب مشروع الإدارة الذاتية واحتلال المنطقة.

احتلال تركيا لعفرين وتحويلها لأكبر ساحات الصراع على الإطلاق:

بعد دخول تركيا لمناطق واسعة في الشمال السوري بدأت أنظارها تتجه نحو مدينة عفرين، التي كانت تخضع لسيطرة وحدات حماية الشعب.

وبدأ الغزو التركي لعفرين بتاريخ ٢٠ يناير/كانون الثاني من عام ٢٠١٧ وسط تعامي دولي عن الانتهاكات التي ارتكبتها تركيا ومسلحيها من الفصائل التي سلمت جميع الأراضي التي سيطرت عليها من النظام للانصياع للأوامر التركية والبدء بأعمال إجرامية بحق الكرد.

فمع بدء الهجمات على عفرين، قال مدير المرصد السوري لحقوق الانسان رامي عبد الرحمن أنه يصح إطلاق اسم عملية شلال الدم على الهجوم وليس اسم غصن الزيتون، في إشارة منه لعمجية الاحتلال التركي ومسلحيه.

ونشر المرصد السوري لحقوق الإنسان خلال المنتدى الدولي عن التطهير العرقي والتغيير الديمغرافي حول عفرين تقريراً وثق فيها جميع المجازر التي ارتكبتها تركيا والفصائل التي تدعمها وجاء في التقرير "تنام عفرين على انتهاك وتستفيق على صوت السلاح، وفي كثير من الأحيان لا يكون ليلاً إلا أضواء آليات عسكرية وصباح المتقاتلين المتناحرين على المنهوبات، وفي كل يوم يزداد الانتهاك بشكل أكبر.

وأكد المرصد أن عفرين تعرضت للمجازر حيث استشهد بحسب الإحصائيات التي حصلت عليها المرصد نحو ٣٨٠ مدني بينهم ٥٥ طفلاً و٣٦ مواطنة، من المدنيين من المواطنين الكرد والعرب والأرمن، واستشهد غالبية هؤلاء نتيجة القصف التركي، إضافة لجرح المئات وتشريد مئات آلاف آخرين، فيما بقيت الانتهاكات والممارسات اللاإنسانية حصة من تبقى من سكان منطقة عفرين ممن رفضوا الخروج من المنطقة، وترك منازلهم ومزارعهم للقوات التركية والفصائل التي تناهبت وعفّشت وسرقت واستولت على ممتلكات المدنيين والممتلكات الخاصة والعامة في كامل منطقة عفرين.

ولم تقف الأمور عند هذا الحد فقط بحسب المرصد السوري لحقوق الانسان، إذ أن المسلحين التابعين للقوات التركية وبدعم مباشر من القوات التركية ولعدم وجود ما يردعها، عن ممارسة الانتهاكات بحق المواطنين الكرد من سكان منطقة عفرين، عمدت إلى إيجاد أسلوب انتهاك جديد يتمثل باختطاف السكان وتوجيههم إليهم أولى هذه التهم هي الارتباط أو الانتماء لوحدة حماية، وهذا ما سهل على هذه الفصائل توسعة

نشاطها واعتقال المزيد من المدنيين، وممارسة القتل حتى دون اكتراث أي من الأطراف الدولية أو الإقليمية وحتى المحلية بما تتعرض له المنطقة من انتهاكات.

ووثق المرصد السوري لحقوق الإنسان نحو ٢٣٨٠ مواطناً جرى اعتقالهم، من ضمنهم أكثر من ٨٤٠ لا يزالون قيد الاعتقال، فيما أفرج عن البقية بعد دفع جميعهم لفدية مالية، يفرضها عناصر موالين لتركيا، وتصل في بعض الأحيان لأكثر من ١٠ ملايين ليرة سورية.

ما شهدته عفرين، لم تشهده أي منطقة أخرى، فتركيا التي توجهت - وفي أعينها شرارة الكراهية - إلى عفرين، أبحاث كل شيء لمرتزقتها، فقد استخدمت تركيا في هذه الحرب جميع الاسلحة ومن بينها الاسلحة المحرمة دولياً، دون أن تتلقى أي تنديداً من الأطراف الدولية، التي تدعي الإنسانية.

بالطبع فإن تركيا نفذت جميع هذه المجازر بحجة أنها ستنشأ "منطقة آمنة" على الحدود السورية وانها تهدف لإعادة اللاجئين السوريين، لكن عمليات تركيا أدت إلى نزوح مئات الآلاف من أبناء عفرين، وأبناء جرابلس والباب وأعزاز أيضاً، فجميع هذه المناطق تتعرض لانتهاكات يومية، كما أنها لم تشهد الاستقرار في يوم من الأيام.

ولنثبت مدى كذب الادعاءات التركية التي تدعي أنها تهدف لإعادة اللاجئين السوريين إلى أرضهم لنلقي نظرة على هذه الأرقام، حيث نتحدث فيها عن عدد سكان عفرين قبل الهجمات.

فقد بلغ عدد سكان منطقة عفرين ٥٢٣,٢٥٨ نسمة حسب احصائيات الحكومة السورية في عام ٢٠١٢.

لكن العدد وبحسب الاحصائيات الدقيقة والتي نشرتها BBC والعشرات من المواقع الإخبارية العالمية ارتفع في ظل حكم الإدارة الذاتية بسبب حركة النزوح الداخلية من محافظة حلب والمدن والبلدات المجاورة ليصل إلى أكثر من مليون نسمة، أي أن عدد سكان عفرين تضاعف، أما الآن فالعالم بأسره يدرك أن مئات الآلاف نزحوا، وأسكنت تركيا مسلحين وسكان الغوطة في تلك المنطقة، وبدأت بعملية تغيير ديموغرافي في المنطقة الكردية.

تركيا وأهدافها في إدلب:

بالطبع والمعرفة كيفية جلب تركيا لجميع المسلحين الذين حاربوا إلى جانبها والذين ساهموا في الاحتلال التركي لمناطق عدة في الشمال السوري لا بد من معرفة الوضع في إدلب وكيف حافظت تركيا عليها حتى الآن، فالعالم بأسره يدرك أن جميع الفصائل التي نقلت بالباصات الخضراء من مناطق التسوية (مناطق دخلتها النظام بموجب اتفاقيات أطلقت عليها اتفاقات التسوية) إلى إدلب هي فصائل تدعمها أنقرة.

فمدينة إدلب السورية تحولت من مدينة سورية إلى بؤرة يجتمع فيها جميع المسلحين ومن جميع بقاع العالم، ممن يطلقون على أنفسهم اسم المعارضة السورية، وعمدت أنقرة من خلال تلك المدينة إلى جمع جميع "الفصائل المعارضة" في منطقة واحدة وأصبحت هدفها فقط افشال مشروع الإدارة الذاتية، وتنفيذ الأوامر التركية لتحقيق أهدافها في سوريا، فإدلب كانت ولا تزال، شرارة الأمل بالنسبة لتركيا.

فمن المعلوم أن فصائل "ما تسمى بالمعارضة كانت تسيطر على مساحات واسعة من الأراضي السورية، قبل الاتفاقات الروسية التركية التي افضت إلى تسليم جميع تلك المناطق مقابل فسخ الطريق لتركيا للدخول لبعض مناطق الشمال السوري وافشال مشروع الإدارة الذاتية.

ولكن لماذا كل هذا الحرص التركي على إدلب، فلا بد أن يكون لها أهداف أخرى، فذريعة مساندة الثورة السورية تكون قد انتهت بعد كل هذه التنازلات التركية وبعد إجبارها لما تسمى بالمعارضة على "التسوية" فالمناطق الخاضعة لسيطرة ما تسمى بالمعارضة تبعد عن دمشق معقل "الأسد" بأكثر من ٣٠٠ كم.

بالتأكيد فإن أهداف تركيا ليست مساندة الشعب السوري كما تدعي وليست أيضاً "اسقاط" النظام كما روجت، وليس أيضاً إيواء اللاجئين و"حمايتهم"، فأهداف تركيا وبحسب المعطيات هي كما التالي.

١. افشال مشروع الإدارة الذاتية وخصوصاً بعد النجاحات التي حققتها الإدارة الذاتية سياسياً وقوات سوريا الديمقراطية عسكرياً.

٢. كما ذكرنا سابقاً جمع جميع المسلحين الموالين لها في منطقة واحدة واستغلالهم لتحقيق أهدافها من خلال الرج بهم في معارك مميتة.

٣. الحصول على منطقة نفوذ دائمة عند الحدود، كما حصل شمال قبرص، فطبيعة منطقة إدلب، من خلال جبالها والتي تطل على حلب واللاذقية دفعت تركيا لوضع أنظارها على تلك المنطقة.

٤ . السيطرة على الطرق الاستراتيجية التي تربط حلب باللاذقية ودمشق، وعلى بعض المعابر الحدودية كباب الهوى في محافظة إدلب.

إذاً وبعد النظر إلى جميع التطورات التي طرأت على السياسة التركية في الأزمة السورية، فإننا سندرك بان الموقف التركي يختلف من عام إلى عام آخر، فتركيا التي أسقطت طائرة سوخوي روسية بحجة أنها دخلت الحدود التركية التي أدت إلى تدهور العلاقات بينها وبين روسيا، عقدت اتفاقات عدة مع الجانب الروسي. وسندكر أيضاً خلال هذه الدراسة أهم أسباب التعاون التركي مع الجانب الروسي والتي هي على النحو التالي:

- ١ . هدفت تركيا من خلال التعاون مع روسيا كما ذكرنا سابقاً، لجمع كل المتشددين في منطقة واحدة والسيطرة عليهم.
- ٢ . مساعي تركيا الضغط على الولايات المتحدة وتهديدها بالعديد من الأمور منها صفقة إس ٤٠٠، وجعل الولايات المتحدة طرفاً غير شرعياً في سوريا بعد التوصل لاتفاق مع روسيا وإيران في عقد اجتماعات بشأن الأزمة السورية، وذلك للحيلولة دون وصول الكرد لأي مكسبات.
- ٣ . مساعي روسيا وإيران من تقليص الدور الأمريكي في سوريا.
- ٤ . ضمان تركيا لمصالحها الاستراتيجية في سوريا، ومحاربة الكرد.

أسباب تعاون تركيا مع جبهة تحرير الشام "النصرة"

أدركت تركيا جيداً أنه بدون جبهة تحرير الشام "النصرة سابقاً" لا يمكن أن تحقق أهدافها في إدلب، فهذا التنظيم كان ولا يزال يسيطر على إدلب بشكل شبه كامل، لذا ظهر التعاون بين تركيا وهذا التنظيم من خلال خطوات عدة:

- ١ . عملت تركيا مع جبهة النصرة والجماعات والتنظيمات الأخرى على إقامة "إدارة مدنية" مشتركة.
- ٢ . أقنعت تركيا بحل أو إعادة تشكيل "هيئة تحرير الشام"، وهو ما حصل بالفعل.
- ٣ . إعادة تنظيم الجماعات المسلّحة الموالية لتركيا، ومن بينها "حركة أحرار الشام"، بتوافق ودعم إقليمي ودولي، وتمكينها من "إزاحة" جبهة النصرة أو هيئة تحرير الشام عن واجهة المشهد، ربما إبعادها إلى ريف المدينة.

٤ . الضغط من أجل تشكيل قوات شرطة في المدينة، على غرار ما حدث في مدينتي الباب وجرابلس، فيما تنسحب التنظيمات المسلّحة إلى أطراف المدينة وريفها، مع تمكين "جبهة النصرة" من تشكيل واجهات مدنية وأمنية وشبه عسكرية.

لذا يبدو أنه من الواضح أن استهداف "جبهة النصرة" ليس أولوية لدى أنقرة، صحيح أنها أدرجتها في قائمة الإرهاب، إلا أنها تمثّل في الوقت نفسه أحد أهم مصادر دعمها وإمدادها.

وأدرجت تركيا جبهة النصرة في لائحة الإرهاب نظراً لعدم قدرة الاستخبارات التركية في افئاع "النصرة" بالانصياع لأوامرها كما فعلت الفصائل الأخرى.

كيف أثبتت تركيا أن أهدافها في المناطق التي دخلتها احتلالية، ولا علاقة لها بمزاعم مساندة الثورة السورية:

وكما يبدو للعيان فمن المعلوم أن تركيا تؤكّد أن أهدافها هي احتلالية، فبالنظر إلى مناطق سيطرة تركيا، نرى بوضوح التغيير الديموغرافي والتطهير العرقي، فمناطق عفرين، جرابلس، الباب، وأعزاز وإدلب أفرغت بشكل شبه تام من سكّانها، واستوطنوا فيها عائلات من مناطق أخرى من عوائل المسلّحين التابعين لتركيا.

فتحت ذريعة محاربة تنظيم داعش وتحجيم أي دور للكرد، اتسعت رقعة النفوذ التركي شمالي سوريا على نحو غير مسبوق، منذ أن أطلقت أنقرة عملية "درع الفرات" في أغسطس ٢٠١٦، ودخلت دباباتها للأراضي السورية لأول مرة.

فقد استعادت تركيا مؤخراً الحقبة العثمانية في سوريا (١٥١٦-١٩١٨)، ولوحت بوجود وثائق تؤكّد أحقيتها في بسط سيطرتها على ١٥ قرية بمحافظة إدلب المتاخمة للحدود التركية.

وهو ما أكّده أيضاً الصحفي المقرب من حزب العدالة والتنمية محمد زاهد غول الذي قال في أكثر من مرة أن أراضي جرابلس ومنبج ومناطق في إدلب هي مناطق تتبع لتركيا خلال لقاءات أجرته معه قناة العربية الحدث.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، دفعت تركيا بتعزيزات عسكرية لإنشاء نقاط مراقبة على الطريق الدولي الواصل بين إدلب والحدود السورية مع تركيا والحدود السورية مع الأردن. واستندت تركيا في السابق على وثائق

عثمانية مشاهمة لتبرير سيطرتها على مدينتي جرابلس ومنبج، كما تذرعت بوجود مقابر تعود لقادة عثمانيين في مناطق أخرى شمالي سوريا، لبسط نفوذها عليها.

وكالة فرانس برس أشارت في تقرير لها أن الهيمنة التركية لم تقتصر في سوريا على قضم الأراضي بل امتدت لتشمل الكتب المدرسية ولافتات الطرق والمؤسسات العامة التي باتت تعج باللغة التركية.

ووجدت المؤسسات الحكومية والشركات الخاصة التركية خلال العامين الماضيين، موطناً قدم لها في هذه المنطقة.

وأنشأت أنقرة على سبيل المثال شبكة كهرباء في مدينة جرابلس، حيث عُلقَت صورة للرئيس التركي أردوغان على جدار في مستشفىها الرئيسي المدعوم من أنقرة.

ويحصل بعض السكان على البضائع عبر "المديرية العامة للبريد التركية" الرسمية، التي فتحت مكتباً لها في مدينة أعزاز يعمل فيه موظفون أتراك.

ويُسمح في مكتب البريد باستخدام الليرة التركية فقط، مما أدى إلى ارتفاع أسعار المواد المستوردة من تركيا. وما يبرز أيضاً مساعي تركيا لتتريك المناطق التي تسيطر عليها وقضمها من الأراضي السورية هي تغيير الهويات السورية، وتبديلها بأخرى مرتبطة بالنفوس التركية.

ونشر ما يسمى بالمجلس المحلي للمعارضة في مدينة أعزاز تعميماً قبل أشهر دعا فيه المواطنين جميعاً "كباراً وصغاراً" إلى إصدار الهوية الجديدة، لاستخدامها في جميع الدوائر الرسمية في المدينة ومعاقبة كل متخلف عن حيازة البطاقة الجديدة".

وكان ما يسمى بالمجلس المحلي لمدينة الباب قد عمد على إصدار بطاقات شخصية لسكان المدينة ، كتجربة أولى في مناطق سيطرة الاحتلال التركي.

وقال مدير المكتب الإعلامي للمجلس، محمود نجار عقب إطلاق هذه التجربة، إن هذه البطاقات تتميز بأن لها "رمزاً خاصاً ونظماً مرتبطاً مع النفوس في تركيا"، وهو يدل على الاعتراف بالاحتلال التركي، ويعترفون بتبعية هذه المناطق لتركيا.

وأكد أيضاً المدعو محمود نجار أن التجربة ستطبق حالياً في الباب، على أن تعمم على بقية مناطق درع الفرات ومن بينها أيضاً منطقة عفرين.

خلاصة الأمر من موضوع "تركيا تؤكد أهدافها الاحتلالية"

بعد الاحتلال التركي لعفرين، أصبح تواجهه في سوريا يغطي ما مساحته نحو ٤٠٠ كيلو متر مربع، صبغت بطابع تركي على المستويات العسكرية والأمنية والمدنية.

ونبرز أهم الخطوات التي عمدت إليها تركيا منذ احتلالها لتلك المناطق، والتي تثبت أهداف تركيا الاحتلالية:

١- تشكيل مؤسسة عسكرية متكاملة شمالي حلب:

اندمجت جميع الفصائل بضغوط تركية، إعلامياً، بعد ٨ سنوات تحت راية واحدة، ولكن ما تزال الفصائلية موجودة في صفوف المسلحين فكل مجموعة مرتبطة بقيادتها الفصائلية، ولا يزال الاقتتال في الأحياء المدنية، والمظاهر المسلحة داخل المدن وانتشار المقرات العسكرية في أحياء سكنية مستمراً.

٢- شركات تركية تقتحم المنطقة

تفرض شركات تركية خاصة واقعاً استثمارياً جديداً في تلك المنطقة، بعدما أقحمت نفسها ووضعت موطناً القدم بمشاريع كبيرة.

٣-- الرواتب بالليرة التركية

الملف الأكثر ارتباطاً بتركيا على صعيد المواطنين ومعاملاتهم اليومية هو رواتب العاملين في المشاريع الجديدة والموظفين في المجالس المحلية والمدرسين والمؤسسات العسكرية، والتي حولتها أنقرة جميعها إلى الليرة التركية.

٤- إشراف تركيا على التعليم:

ظهرت البصمة التركية بصورة جلية من الناحية التربوية، فتركيا أدخلت لغتها في المناهج واصبحت اللغة التركية لغة رسمية إلى جانب العربية في تلك المدارس، إضافة إلى ذلك، تسمى العديد من المدارس بأسماء تركية.

٥- مناطق تبدلت أسماءها:

غالب البلدات والمدن السوري في مناطق سيطرة تركيا ومسلحيها تبدلت اسمائها لأسماء تركية، فمدينة الراعي أصبح اسمها /جوبان باي/ وباتت أسماء القرى والمدن والبلدات والاحياء والساحات العامة تكتب باللغة التركية والعربية.

وفي عفرين وتيرة تترك الاسماء ظهرت بسرعة ف دوار كاوا الحداد أصبح اسمه دوار غصن الزيتون. ودوار نوروز أصبح اسمه دوار صلاح الدين الأيوبي. وساحة مبنى السرايا أصبح اسمها ساحة رجب طيب أردوغان. واصبح اسم قرية قسطل مقداد ، سلجوق أوباسي. اما قرية كوتانا أصبح اسمها ظافر أوباس، واصبح اسم قرية كرزيلة جغر أوباسي.

أطماع تركيا في منبج وشرق الفرات واعلان واشنطن "الانسحاب من شرق الفرات"

على الرغم من تحقيق الاستقرار في مناطق شمال شرق سوريا، بعد الجهود التي بذلتها الإدارة الذاتية، إلا أن التهديد التركي باجتياح هذه المنطقة إلى جانب، منبج لم تتوقف في أي يوم من الأيام، فهي تتذرع دوماً بأن وجود الكرد "تهدد أمنها القومي" على الرغم من أن وحدات حماية الشعب وقوات سوريا الديمقراطية المتواجدين على الحدود مع القوات التركية لم يستهدفوا برصاصة واحدة القوات التركية على الحدود وهو ما أكدته أكثر من مرة قياديين في وحدات حماية الشعب وقوات سوريا الديمقراطية.

وفي هذه الفترة التي تحددها تركيا بـ "اجتياح مناطق شمال شرق سوريا" تسعى قوات سوريا الديمقراطية لاستئصال داعش بشكل نهائي بعد اقتراب معركة دحر الإرهاب من نهايته " ففسد تسعى لإنهاء تواجد مسلحي داعش من سوريا، وعلى ما يبدو فإن تركيا لا ترغب في خسارة التنظيم، وتتوعد بالهجوم على مناطق الإدارة الذاتية في كل مرة يقترب منه ق س د من إنهاء تواجد التنظيم.

وازدادت التهديدات التركية باجتياح المنطقة في ١٢ كانون الأول من عام ٢٠١٨، بعد تمكن قوات سوريا الديمقراطية من تحقيق انتصارات كبيرة بالتعاون مع التحالف الدولي كما أرسل أردوغان قوات تركية والمعارضة إلى مناطق محاذية لمنبج، وسريه كانيه (رأس العين) وتل أبيض.

بالطبع فإن هذه التهديدات لها صلة بالانتخابات التركية التي تبدأ في شهر آذار بتركيا فأردوغان يدرك جيداً أن النبرة القومية وتهديد الكرد ستزيد من شعبيته وشعبية حزبه بين الأتراك القوميون، لكن هذه التهديدات بكل تأكيد له طابع آخر بحسب العديد من المحللين والمختصين بالشأن التركي.

فتركيا أدركت أن تعاونها مع روسيا، تثير غضب واشنطن، لذا بدأت تطالب من الولايات المتحدة الاستغناء عن شريكها (قوات سوريا الديمقراطية) في سوريا مقابل استغناء أنقرة عن منظومة الدفاع الروسية إس ٤٠٠، وهو ما تم بالفعل "إعلامياً" في فترة ما فقد أعلنت تركيا بعد قرارها بالهجوم على مناطق الإدارة الذاتية أنها حصلت على منظومة باتريوت الأمريكية، كما أعلن بعدها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب الانسحاب من سوريا، بالرغم من اعتراض مسؤولين أمريكيين على القرار، وكذلك اعتراض حلفاء واشنطن في التحالف الدولي لمحاربة داعش.

ويبقى السؤال الأهم ما غاية تركيا من هذه التهديدات؟

ولماذا تعلن واشنطن الانسحاب من سوريا الآن؟

بعد اعلان تركيا بغزو مناطق شمال شرق سوريا ومنبج، قررت التريث بعد قرار واشنطن الانسحاب من سوريا، وهو ما دفع الكثيرين إلى التساؤل هل هو اتفاق أم أن تركيا نفسها لا تدرك حتى الآن الموقف الامريكى وأهدافه من الانسحاب من سوريا، فأردوغان لم يعلق على الانسحاب الأمريكي من سوريا إلا بعد يومين، وهو ما يؤكد أن القيادة التركية ليست على دراية بما يخطط له ترامب، كما أن الولايات المتحدة انشأت قاعدة عسكرية في هجين بعد يوم من إعلان الانسحاب من سوريا وهو ما وضع أيضاً العديد من إشارات الاستفهام فعلى ما يبدو أرادت واشنطن أن تهدأ من روع التهديدات التركية، وأرادت أيضاً أن تبعدها عن الحلف الروسي الإيراني.

وما يؤكد أيضاً أن قرار الانسحاب الأمريكي، لم يأت بعد توافق مع تركيا، هو توجه وفد رفيع المستوى من أنقرة إلى موسكو للتباحث حول منطقة منبج وشرق الفرات، فلو كان هناك توافق أمريكي تركي كما تطرقت له العديد من الصحف والمواقع الإخبارية لما توجه الوفد التركي إلى موسكو إنما كان سينفذ "الاتفاق" مع واشنطن على الفور كونها ترى الكرد يهددون الأمن القومي التركي.

وبالنظر إلى المعطيات فندرك أنه ربما يكون هناك توافق أمريكي روسي، فالولايات المتحدة قالت إن انسحابها من سوريا سيكون بطيئاً ومدروساً، وروسيا قالت أنه لا داعي لتواجد القوات الإيرانية في سوريا، أي أنه ربما يكون هناك توافق أمريكي روسي مضمونه، البدء بعملية سياسية في مدة أقصاها ٣ أشهر، فالولايات المتحدة تستطيع أن تنسحب من سوريا في غضون أيام قليلة لكن وضع مهلة زمنية تتمثل في ثلاثة أشهر، هي أن الولايات المتحدة لها أهداف أخرى، والانسحاب لا يعني ترك كل شيء.

كما أن تصريحات السيناتور الأمريكي لينزي غراهام عقدت التحليلات، فبالرغم من اعتراضه على قرار ترامب بالانسحاب من سوريا، وطالب بمساعدة شركاء واشنطن (قوات سوريا الديمقراطية) في سوريا، إلا أنه قال بعد لقاءه بترامب، أنه اطمئن بعد لقاءه بترامب كما أبدى تفاؤله.

وبالطبع فإن هذه التصريحات تؤكد، أن غراهام حصل تطمينات من ترامب بأن الولايات المتحدة لن تتخلى عن شركائها قبل التوصل إلى تسوية سياسية في سوريا، وخصوصاً بعد أن أظهرت تركيا بأنها لن تتخلى عن إيران وروسيا فيما يتعلق بالأزمة السورية.

ويقول العديد من المحللين أن الوضع الراهن في منبج حيث يتواجد فيها وما حولها كل من "الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، روسيا، تركيا، إيران، قوات سوريا الديمقراطية، النظام السوري، ما يسمى بالجيش الحر" يدل على شيئين، أما نهاية الأزمة السورية والبدء بعملية سياسية، أو البدء بحرب جديدة تخلط فيها جميع الموازين وستعيد تشكيل التحالفات بين الدول على الأرض السورية.

كما أن زيارة بولتون لأنقرة والتوتر الذي حصل بين واشنطن وأنقرة كشفت جميع النوايا التركية والنوايا الأمريكية أيضاً، فالولايات المتحدة على ما يبدو لن تنسحب دون تسوية سياسية في سوريا.

خلاصة الدراسة:

أثبتت تركيا بتدخلها في سوريا، أنها دولة احتلالية، تستخدم مسلحي "المعارضة" لتحقيق أهدافها القومية، كما تسعى لإنهاء الوجود الكردي، بحجة حماية أمنها القومي، كما أنها تهدف لقمص مساحات أوسع من الأراضي السورية تحت ذريعة مساندة الشعب السوري، وأن الدولة التركية بدأت بسياسة تترك في الأراضي السورية التي دخلتها من خلال الاثباتات التي قدمناها خلال الدراسة.

ومن خلال النظر إلى المعطيات فإن المرء يدرك بأن تركيا مستعدة للتنازل عن كل شيء مقابل ضرب أي مشروع يستفيد منه الكرد، لذا فأفهما تعاونت مع مسلحين من فصائل عدة، كما تعاونت مع روسيا وإيران ومستعدة في الوقت الحالي للتعاون مرة أخرى مع النظام فقط لضرب أي مشروع يشارك فيه الكرد. ويبدو أيضاً على الأرض أن تركيا فشلت في اقناع واشنطن للتخلي عن الكرد وخصوصاً بعد الزيارة التي قام بها بولتون إلى تركيا.

المراجع:

- دراسة للباحثة سهام فتحي سليمان أبو مصطفى بعنوان (الأزمة السورية في ظل تحول التوازنات الإقليمية: من ٢٠١١ إلى ٢٠١٣).
- المركز اللبناني للدراسات والأبحاث center-lcrc
- الاستفادة من بعض النقاط في ويكيبيديا
- تدخل تركيا في الحرب الأهلية السورية wikipedia
- المصادر الإعلامية:

المرصد السوري لحقوق الانسان

وكالة أنباء هاوار

روسيا اليوم

رويترز

فرانس برس

الجزيرة نت

وسائل إعلام مقربة من حزب العدالة والتنمية التركي

الثقافة الكردية بين الإحياء والإبادة خلال سنوات الأزمة السورية

م. إبراهيم حسين أحمد - باحث في مركز الفرات للدراسات

تمهيد

التمسك بالهوية الثقافية هو ضرورة مجتمعية مصيرية، ومسؤولية يتحملها الأفراد والجماعات على حدٍ سواء، وهي بمثابة الروح للجسد، وبدونها يغدو الجسد جيفة يجب التخلص منها، فكلما حافظت على هذه الهوية، كان لك وجوداً يفرض نفسه على الأمم الأخرى.

خلال هذه الدراسة سنقوم باستعراضٍ لحالة الثقافة الكردية في سوريا؛ خلال سنوات الأزمة؛ وهل هي في صعودٍ نتيجة الاستقرار الذي تعيشه المنطقة في شمال شرق سوريا، أم في هبوط وإبادة نتيجة الاستهداف، سواء من الداخل أم الخارج السوري؟ وخلال الدراسة سنوضح مفهوم الثقافة بشكل عام والثقافة الكردية بشكل خاص، وتتناول اللغة لأن اللغة هي الثقافة لو تناولنا التعريف بشكل ضيق.

كما أن مشكلة الدراسة لم تتناولها الدراسات السابقة، للاستفادة منها ضمن هذا الدراسة، لذا ستكون الدراسة الأولى في شمال شرق سوريا؛ تقوم بتسليط الضوء على هذا الجانب، رغم أن هناك مقالات ووسائل إعلامية كثيرة تناولت - جزئياً - ما حدث خلال الفترة المذكورة.

الدراسة تحتوي صور توضيحية للمعالم الأثرية، والمزارات، والرموز الكردية التي تعرضت للدمار خلال سنوات الأزمة.

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي؛ الذي يعمل على فحص ماهية ومكان وزمان ظاهرة ما، ودراسة الظاهرة كما هي في الواقع، ووصفها وصفاً دقيقاً، وجمع المعلومات عنها، كما يعتمد على أخذ الملاحظات

الدقيقة والتوثيق التفصيلي للظاهرة موضوع الدراسة. وتحديد العلاقات بين عناصرها أو بينها وبين ظواهر أخرى؛ وصولاً إلى إمكانية التحكم بها.

أهمية الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في التعريف بالثقافة الكردية، والتي يحصرها شريحة كبيرة من الشعب الكردي ضمن أغنية أو مسرحية أو عزف على آلة موسيقية، في حين أن الثقافة تتعدى كل ذلك لتكون بمثابة المآكل والمشرب الذي يعيش عليه الانسان.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة إلى التعريف بحالة الثقافة الكردية في المرحلة التي سبقت الأزمة السورية، كما تلقي الضوء على مسار الثقافة الكردية خلال أعوام الأزمة السورية، وتهدف أيضاً إلى التعريف بالعوامل والأسباب التي نتجت عنها إحياء الثقافة الكردية من جانب؛ وعوامل وأسباب أخرى حالت بالثقافة الكردية في بعض الأماكن من سوريا إلى حافة الإبادة.

التعريفات الإجرائية للدراسة

١. الأزمة السورية: الحرب الأهلية السورية أو الثورة السورية هي صراع مسلح مستمر متعدد الجوانب في سوريا يخاض بالدرجة الأولى بين حكومة حزب البعث بقيادة رئيسها بشار الأسد وحلفاءه ومختلف القوى المعارضة للحكومة السورية.
٢. الكومين: هي وحدة اجتماعية اقتصادية سياسية خدمية ذو نظام ديمقراطي كومونالي، تؤسس على مبدأ الديمقراطية المباشرة وحرية المرأة والانسجام بين عناصر المجتمع، وتنظم نفسها أفقياً وهرمياً بعيداً عن السلطة والدولة
٣. شمال شرق سوريا: هي منطقة تتمتع بالحكم الذاتي بحكم الواقع في شمال سوريا، تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية.

- ٤ . ديموغرافيا: علم السكان أو الدراسات السكانية هو فرع من علم الاجتماع والجغرافيا البشرية، يقوم على دراسة علمية لخصائص السكان المتمثلة في الحجم والتوزيع والكثافة والتركيب والاعراق؛ ومكونات النمو (الانجاب والوفيات والهجرة) ونسب الأمراض، والحالات الاقتصادية والاجتماعية، ونسب الأعمار والجنس، ومستوى الدخل، وغير ذلك في إحدى المناطق.
- ٥ . الحزام العربي: هو مشروع حكومة البعث السورية؛ لإضفاء الطابع العربي على شمال محافظة الحسكة، بهدف تغيير التكوين العرقي للسكان في المناطق الكردية لصالح العرب.

أزمة .. أم حرب أهلية .. أم؟

يرغب البعض في تسمية ما يحدث في سوريا بالأزمة السورية، ولكن هل يمكن أن نطلق عليها اسم الأزمة؟ أم هي ثورة، حرب أهلية أو كونية، أم حرباً عالمية ثالثة .. مصطلح الأزمة -هنا- يحمل الكثير من التضليل والبعده عن الدقة؛ قد يكون سماها البعض أزمة لكي يخفف من وطأة الحدث، ولكي يغطي بذلك على هول الحرب الدائرة في الداخل السوري.

في بداية الأحداث؛ وهو اسم - أي الأحداث - آخر للأزمة، تجرأ وزير الخارجية السوري وليد المعلم وقتها حين سأله أحد الصحفيين عن الأحداث ذاكراً لكلمة أزمة؛ فأجاب محرراً صحفياً: أي أزمة؟ مع ابتسامة ساخرة. هو لم يكن يرى الأزمة من أساسها.

ثم انتقلت بعد ذلك الأزمة إلى مراحل أخرى؛ لن نسهب في ذلك؛ فهو من مهمة الساسة والمحللين السياسيين. أسماء كثيرة أطلقت على المأساة السورية، ولكن النتيجة كانت واحدة دائماً؛ وهي شتات السوريين.

وسواءً أكانت هذه الفترة هي أزمة أو غيرها، فقد مرّت الدولة السورية خلالها بتحويلات نوعية؛ سواءً أكانت سلبية أو إيجابية؛ كارثية أو بناءة، كل ذلك حدث، وعلى كافة المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وكان الكرد جزءاً من هذه الحقيقة السورية، لكن انتهاج الخط الثالث^٥؛ الذي رفضه الكثيرون؛ بما فيهم شريحة كبيرة من المثقفين والسياسيين الكرد؛ أكد بعد كل هذه السنوات من الحرب؛ أنه الأصح حسب الوقائع والشهادات، وهو نتيجة فكر وفلسفة حافظت على شمال شرقي سوريا من الدمار الذي حلّ بباقي المناطق، هو نتيجة فلسفة خلقت ثقافة الأمة الديمقراطية^٦!

تعريف ومفهوم الثقافة

تعريف الثقافة لغةً

في اللغة العربية أصل كلمة الثقافة يأتي من الفعل الثلاثي (ثقف) ويقرأ بضم القاف (ثقّف) وكسرها (ثقّف). وتأني بمعنى: العلوم والمعارف والفنون التي يُطلب الحذق فيها.

^٥ الخط الثالث: هو الطريق الذي سلكته الإدارة الذاتية في شمال سوريا؛ بحيث عملت على حماية المنطقة من هجمات كل من النظام والمجموعات المعارضة المسلحة المتطرفة، واختارت عدم التحيز لأي طرف من أطراف الأزمة السورية المتصارعة على السلطة.

^٦ نظرية الأمة الديمقراطية: هي الوحدة في التنوع والتعايش الطوعي، فنظرية الأمة الديمقراطية تنظر إلى المجتمع على أنه عبارة عن كون، وهذا الكون يتألف من تشكيلات مختلفة، وجميع هذه التشكيلات تكمل بعضها البعض، فبشكلٍ مختصرٍ إذا كان الكون عبارة عن حديقة فلا يمكن لها أن تكتمل إلا بأزهارها ونباتاتها وأشجارها المختلفة.

تعريف الثقافة اصطلاحاً

أقدم تعريفات الثقافة وأكثرها شمولاً هي التي تعود للعالم البريطاني إدوارد تايلور^٧ حيث عرّف الثقافة بأنها ذلك المفهوم الكلي الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون، والعادات والقدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع.

أحدث التعريفات المتفق عليها لمفهوم الثقافة هو ما تم الاتفاق عليه عام ١٩٨٢م في مؤتمر ميكسيكو الذي نصّ على أنّ الثقافة هي كل السمات المادية والروحية والعاطفية والتي تتيح لمجتمع ما أو لفئة فيه أن تتميز بتلك السمات عن غيرها من الفئات في ذات المجتمع أو عن غيره من المجتمعات.

وقد عرّف عبد الله أوجلان^٨ الثقافة على أنها "مجموعة كينونات المعاني والبنى، التي كوّنّها المجتمع البشري على مدار التاريخ، وبينما تعرّف كينونات البنى على أنها مجموع المؤسسات المنفتحة للتحول والتطور، فمن الممكن تعريف كينونات المعاني على أنها مستوى أو مضمون المعاني المتنوعة والغنية والمتراطة ببعضها البعض تبادلياً وبالتكافؤ ضمن تلك المؤسسات المتحولة"

أوجلان قسّم الثقافة إلى بعدين؛ المعاني: وهو البعد المعنوي للثقافة، ويشتمل على كل ما هو قيمى أو فكري. كالشعر والقصة والرواية والمسرح والأمثال، والمعتقدات الدينية. والبنى: الأشياء المادية التي يصنعها المجتمع كالمباني والأدوات والألبسة ووسائل الاتصال والمواصلات. بالإضافة إلى الجوانب الفنية كالنحت والرسم. كما تعتبر الآثار التاريخية من الثقافة المادية للمجتمع.

^٧ إدوارد برنت تايلور (١٩١٧-١٨٣٢): عالم إنسان (أنثروبولوجي) بريطاني أصبح أستاذاً لعلم الإنسان في جامعة أكسفورد منذ عام ١٨٩٦ وظلّ بها حتى تقاعده في عام ١٩١٣. أسهم إسهاماً كبيراً في دراسة الثقافة وكان أحد رواد الاتجاه التطوري، وقال بالنظرية البيولوجية، وأسهم في تطوير الدراسات المقارنة للأديان.

^٨ مفكر كردي، له كتب كثيرة نضالية، ثورية، فلسفية، ومانيفستو الحضارة الديمقراطية عبارة عن خمسة مجلدات كتبها داخل سجن إمرالي بتركيا الذي لا زال مسجوناً فيه منذ ١٩ عاماً.

وهناك من يقول أن الثقافة هي كلُّ متكامل ولا يمكن الفصل بين البعد المادي والمعنوي، لأن البعد المادي هو نتيجة للبعد المعنوي، فالتمثال المنحوت هو نتيجة فكرة خطرت في ذهن الانسان، والأبنية أيضاً هي نتيجة دراسة فكرية علمية.

وطالما أن الثقافة هي كل شيء يفكر به الانسان ويصنعه، فمن الطبيعي أن يكون وجود الانسان مرتبطاً بها، ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الأمة التي لا ثقافة لها هي أمة ميتة، وإما أن تضع وتتنصر في أمة أخرى، أو تكون عائلة يجب التخلص منها وإبادتها.

وفي السياق كتب رستم جودي^٩ "إن ضياع كل ثقافة يعني حُسرناً أكبر من الخسران الذي خلفته القنبلة النووية في هيروشيما وناكازاكي؛ بل هو أخطر، لأن تلك القنابل دمرت مدينتين، لكنها لم تدمر ثقافة الشعب".

اللغة

الانسان حيوان ناطق؛ عبارة أطلقها أرسطو؛ وحتى لو كانت هذه الجملة لا تعطي التعريف الدقيق للإنسان، لكنها دقيقة جداً لو تناولنا النطق فقط، واللغة التي ميزت الانسان عن الحيوان، باتت وسيلة التمايز بين الأمم والشعوب أيضاً.

وفي السياق سنقوم بتناول تعريف أوجلان للغة؛ خاصة أن الحديث هنا عن الثقافة الكردية. يرى أوجلان أن "مصطلح اللغة يرتبط بمصطلح الثقافة بأواصر متينة، مشكلاً العنصر الرئيسي في حقل الثقافة بمعناه الضيق"، فلولا اللغة لما كانت هناك ثقافة، بغض النظر عن انسان نياندرتال والذي عرف عنه بعض الثقافات البدائية، كالصيد الجماعي، ودفن الموتى، وحتى هذا الانسان يقول الباحثون أنه كان يتكلم؛ لكن لم تكن لديه تلك التركيبات اللغوية العميقة.

^٩ رستم جودي - مناضل كردي - فقد حياته عام ٢٠١١ على أثر غارة جوية للطائرات التركية.

اللغة بذاتها - كما يقول أوجلان - "تعني الإرث المجتمعي للذهنية والأخلاق والجماليات والعواطف والأفكار التي اكتسبها مجتمع ما. وهي وجود الهوية واللحظة الذي يُدرَك ويُعبّر عنه بالنسبة للمعنى والعاطفة. والمجتمع الذي يُعبّر عن ذاته يدلّ على امتلاكه الحجة القوية للحياة. ذلك أن مستوى رقيّ اللغة هو مستوى تقدم الحياة. أي أنه بقدر ما يرقى مجتمع ما بلغته الأم، يكون قد ارتفع بمستوى الحياة بالمثل. وبقدر ما يخسر مجتمع ما لغته ويدخل تحت حاكمية لغات أخرى، يكون مستعمراً ومعرضاً للصحف والإبادة بالمثل". والأمثلة على ما تم ذكره كثيرة، وقد لا نكون مخطئين إن قلنا إن قوة اللغة هي وجه آخر / أو نتيجة طبيعية لقوة الدولة، فاللغة الانكليزية هي اللغة العالمية اليوم، لأن الدولة والشعب الذي يتحدّث بها تطوّر على كافة المستويات؛ منها العسكرية والاقتصادية التي باتت تحكم العالم كله تقريباً.

يكمل أوجلان في تعريف اللغة فيقول - تنمة لما سبق - : "من الواضح أن المجتمعات التي تحيا هذا الواقع لن تتمتع بحياة مفعمة بالمعاني ذهنياً وخلقياً وجمالياً. بل سيُحكم عليها بحياة مأساوية إلى أن تفنى بوصفها مجتمعات مريضة. هذا ولا مهرب من توظيف القيم المؤسساتية للمجتمعات التي تعاني من فقدان المعنى والجماليات والأخلاق كمادة خام لقيم المستعمرين". مؤكّداً أن الأمة الضعيفة ستكون هدفاً للمستعمرين، وهذا ما تم ملاحظته خلال التجارب التاريخية للأمم،

بالنسبة للکرد يقول أوجلان في تعريفه للغة: "خلاصة القول؛ إذا تم عيش لغة ما كما هي الحال لدى الكرد مثلاً، فجليّ أن مجتمعاً يمرّ بحالة كهذه سوف يغدو مقهوراً وبائساً حتى النخاع على الصعيد المادي، وسيهوي نحو التشنت والتناثر؛ ولن يتفادى العيش مشحوناً بالأخطاء والحيانات والشناعات معنيّاً وأخلاقياً وجمالياً". وهذا ما يحدث اليوم بالفعل، وحدث سابقاً أيضاً، فأغلب الثورات الكردية فشلت نتيجة الحيانات، وضياع أجيالنا الآن بين اللغة العربية والكرديّة هي أحد أهم أسباب التشنت. بالإضافة إلى حالة الأنانية الحزبية والشخصية التي باتت دراجة اليوم، والدول المستعمرة لكرديستان تعزف على هذا الوتر حتى اليوم.

الثقافة الكردية

عندما نقول أن شعباً ما له ثقافة معينة تختلف عن ثقافات بقية الشعوب فهذا يعني أن له هوية خاصة به، يُعرف بها أمام بقية الشعوب.

إذا تحدثنا عن الشعب الكردي فله هويته الثقافية منذ آلاف السنين، وباعتبار أن الأرض الكردية قد تم تقسمها بين أربعة دول، وكل تلك الدول ضد إنشاء أي كيان كردي، فمن الطبيعي أن تستهدف هذا الشعب بكل السبل، وبما أننا قلنا أن الثقافة هي روح أي شعب، لذا يتم عادة استهداف الروح، لكي تتحول هذه الأمة إلى أمة ميتة!. وبالتالي تنصهر تماماً مع الأمة العربية أو الفارسية أو التركية.

واللغة هي من أهم ركائز هذه الهوية، لأنها تجمع كل شعب تحت مظلتها، ومن أهم مميزات الشعب الكردي أنه حافظ على لغته، لأن بعض اللغات الأخرى انقرضت وياتت من اللغات القديمة التي عاشت فترة معينة من الزمن ثم ماتت ولم تتطور.

إحياء الثقافة الكردية في شمال شرق سوريا.. كردياً

خلال سنوات الأزمة مرّت الثقافة الكردية في روج آفا بانتعاش كبير؛ حيث ما كان ممنوعاً قبل عام ٢٠١١ بات متاحاً وبسهولة بعد ٢٠١١، وتحديدًا بعد ثورة روج آفا عام ٢٠١٢؛ جنباً إلى جنب مع الثقافات الأخرى، والتي كادت أن تُباد أو أيبدت أو طمست، طبعاً مسألة إحياء تلك الثقافات كانت نتيجة طبيعية لتطبيق مفهوم الأمة الديمقراطية لأوجلان؛ والذي يساوي بين الجميع، فالمناهج الكردية أُدخلت في كافة المراحل الدراسية، وهناك من يقول أنه توازياً مع ثورة روج آفا في ٢٠١٢ كانت هناك ثورة رديفة وهي ثورة اللغة الكردية التي كسّرت كل الحواجز، فبعد أن كانت تدرّس في منازل سرية باتت تدرس في المدارس والمعاهد والجامعات على كامل أرض روج آفا.

كانت البنية التربوية لمناهج النظام البعثي مبنية على فكرة الحزب الواحد الشمولي؛ والمنافي للتربية الديمقراطية، وتطمس تاريخ وثقافة جميع المكونات السورية الأخرى كالكرد والسريان والأرمن والتركمان والشركس.. وكانت مناهج النظام تبرز الروح القومية العربية فقط، وتعتمد فكرة الحزب الواحد واللغة الواحدة واللون

الواحد والقائد الواحد، وبذلك تعزز تلك المناهج الروح العنصرية والشوفينية، انطلاقاً من ساسة أن كل من يعيش على الأرض السورية هو عربي.

لكن تكريساً لمبدأ العدالة والمساواة وحق التعلم، ففي ظل الإدارة الذاتية يدرس كل مكون ويتعلم بلغته ليتعرف من خلال ذلك على ثقافته وتراثه، خلافاً لما كان في السابق، حيث كان يفرض على كافة المكونات التعلم باللغة العربية فقط. ووفقاً للعقد الاجتماعي للإدارة الذاتية الديمقراطية فإن مناهج الإدارة تستند الى قوانين حقوق الإنسان الدولية، وتحترم القيم العليا للإنسان، وتحارب بشدة أشكال العنصرية والتمييز بين المدنيين على أساس الدين أو الجنس أو العرق.

تدرس اللغة الكردية في كافة المراحل الدراسية، وقد تم إنشاء الجامعات التي تشكل اللغة الكردية فيها فرعاً خاصاً مستقلاً، وبذلك يكون إحياء اللغة قد تم على أعلى المستويات الأكاديمية.

بالإضافة إلى ما سبق كان هناك صعوداً في النشاطات التي تهتم بالتراث الكردي، حيث في كل كومين وبلدة وناحية ومقاطعة لجنة خاصة تهتم بالشأن الثقافي، بالتنسيق مع حركة الثقافة في المنطقة، وكانت نقطة البداية من الكومين؛ الذي كان ثقافة جديدة على شعوب شمال شرق سوريا؛ وساهم بدوره في إحياء الثقافة بشكل ملحوظ.

الكومين كثقافة جديدة.. وأداة لإحياء الثقافة.

من إحدى الثقافات التي يعتزّ بها شمال شرق سوريا، هي الكومين أو الكومون؛ التي أفسحت المجال أمام الجميع للمشاركة بصنع القرارات، ورغم أن الكومينات ناشئة في الشمال السوري، لكن فكرتها قديمة، وفي أوروبا طبّق هذا المفهوم في الكثير من الدول في العصور الوسطى وكانت شكل من أشكال الإدارة الذاتية.

والكومين هي أصغر وحدة اجتماعية في المجتمع، ويمكن اعتبارها مجلس مصغّر للحي أو القرية. عدد أفراد الكومين سواءً أكان قرية أو حارة ما بين (٧ - ٣٠٠) شخص، وإن تجاوز عدد الأشخاص هذا الرقم

يمكن التقسيم إلى كومينتين، وكل شخص له حق المشاركة في قرار الكومين، بحيث لا يتجاوز عمره ١٦ سنة.

تؤسس داخل كل كومين لجان تعتبر بمثابة الوزارات التي تدير أمور الحي أو القرية، فهناك لجنة خدمية ولجنة عدالة اجتماعية ولجان للثقافة والمرأة والحماية والتدريب والصحة .. إلخ.

أفسح الكومين المجال أمام الجميع بالتعبير عن آرائهم، وهذا ما لاحظناه على أرض الواقع، كما لاحظنا تطوراً في الوعي الجمعي لدى الكومينات، فمن كان يعيش على هامش الحياة، بات مشاركاً في بناء الحياة، بالإضافة إلى تطور حالة الشعور بالمسؤولية لدى الفرد تجاه الجميع.

مفهوم الكومين كان سبباً في تأسيس لجان الثقافة التي عملت على إحياء الثقافة؛ واكتشاف المواهب الفنية وتطويرها؛ وتطوير الوعي الثقافي لدى الشعب، لأن شريحة كبيرة من الشعب الكردي في سوريا كانت تحصر الثقافة في آلة موسيقية أو أغنية أو قصة أو رواية.

ويمكن اختصار ماهية الكومين في أنها وحدة اجتماعية اقتصادية سياسية خدمية ذو نظام ديمقراطي كومونالي، تؤسس على مبدأ الديمقراطية المباشرة وحرية المرأة والانسجام بين الشعب، وتنظم نفسها أفقياً وهرمياً بعيداً عن السلطة والدولة.

استهداف الثقافة الكردية .. إقليمياً

الكاتب التركي الأصل اسماعيل بيشكجي؛ في كتابه كردستان مستعمرة دولية والمنشور عام ١٩٩١، يذكر بدايات تعرفه على الشعب الكردي، وكيف كان يحمل صورة خاطئة عنهم بفعل الايديولوجية الرسمية حينها، من (نعت الكرد بأترك الجبال وأن اللغة الكردية هي إحدى اللهجات التركية). يقول بيشكجي "حين وصلت إلى جنوبي شرقي تركيا؛ لأداء خدمتي العسكرية ١٩٦٢، رأيت شعباً له لغةً وتاريخاً وتقاليداً تختلف عما لدينا نحن الأتراك، وهذا الشعب لا يحمل الاسم الذي يطلقه عليه الأتراك، فهو لا يسمى نفسه أترك الجبال وإنما يسمى نفسه نحن الكرد".

لم تتوضح معنى جملة كردستان مستعمرة دولية للجميع بمعناها الدقيق إلا في أيامنا هذه، وخاصة خلال سنوات الأزمة السورية، فبالإضافة إلى أنها مقسمة بين أربعة دول إقليمية، هي أيضاً محتلة من قبل الدول العظمى، خاصة أن تلك الدول لها أجندها ومصالحها مع/ و على أرض هذه الدول الإقليمية.

يرى بيشكجي أن "الأكراد أمة بلا دولة، والهدف الرئيسي للاستعمار الدولي أن يحول دون تأسيس دولة كردية، الأمر الذي يسهل الاستغلال المستدام للموارد الطبيعية وآبار النفط والمياه والمعادن الأخرى من ثروات كردستان".

لذا؛ فإن مجرد التفكير في إنشاء أي كيان كردي، يعني أن يكون برضى كامل سكان الكرة الأرضية إذا صح التعبير. وهذا ما يبدو مستحيلاً حسب المدى المنظور، إلا إذا تغيرت الموازين، أو أثبت الكرد وجودهم بوحدة الصفّ أو القوة الواحدة أو أي فكرة مبدعة تقلب الموازين الدولية من قبل الساسة الكرد.

وطالما أنها مستعمرة، ومقسمة بين أربعة دول، فمن الطبيعي أن تخاف كل دولة على حدودها المرسومة باتفاقية مضت عليها أكثر من مئة عام (سايكس - بيكو).

وطالما أن حديثنا عن الثقافة، فهذه الدول تحاول دائماً استهداف الثقافة الكردية لإفراغها من مضمونها، وطمس هوية شعبها، ليغدو شعباً ميتاً ذليلاً تابعاً لغيره.

الأتراك - تاريخياً - تعتبرون حديثي الظهور في المنطقة، ولا يملكون ذلك الإرث الحضاري العريق، لذا تحاول الدولة التركية دائماً القضاء على إرث الحضارات الأصيلة في المنطقة، والكرد منهم، وهذا ما سعت إليه سواء في تركيا أو حالياً في سوريا.

عندما بدأت حملة ما تسمى بغصن الزيتون التركية في عفرين؛ بتاريخ ٢٠ / ١ / ٢٠١٨ م، كان الهدف التركي واضحاً، وهو حماية حدودها من الإرهابيين، ومع أن الطفل بات يعرف أن تركيا هي الممولة الرئيسية للإرهاب في سوريا، لكن المجتمع الدولي بقي صامتاً، لماذا؟ لأن كردستان مستعمرة دولية!

خلال ٥٨ يوماً، وبحسب التقارير الدولية عاثت تركيا - مع الفصائل الإسلامية الراديكالية - فساداً في أرض عفرين الكردستانية، وحرقت ما استطاعت سواء بالمدفعية الثقيلة أو بالطيران الحربي، وقتلت الأطفال وسبّت النساء، ومثّلت بأجساد المقاتلين الكرد نساءً ورجالاً؛ والمجتمع الدولي صامتٌ.. لأن كردستان مستعمرة دولية.

وثقت منصّة الحقوق السوريون للدفاع عن عفرين أكثر من ٩٢٠ حالة من انتهاكات القوات التركية والمجموعات السورية المدعومين منها، حيث وصفت المنظمة أن تلك الانتهاكات تصل لمستوى جرائم حرب، وذكرت أن تلك القوات ارتكبت ١٢ مجزرة، وقتل ما يقارب ٧٥٠ مدني؛ بينهم أطفال ونساء، وتدمير الآلاف من منازل المدنيين والمرافق العامة، بالإضافة إلى نزوح وتشرد الآلاف من سكان المدينة ومن أريافها، سواءً قبل الاحتلال أو بعده.

منطقة الإدارة الذاتية عاشت الأمان خلال كامل سنوات الأزمة السورية، وهي المنطقة الوحيدة في سوريا التي بقيت محافظة على حالة الاستقرار والبنية التحتية، بفضل نظرية الأمة الديمقراطية كما تؤكد الوقائع، ولا زالت حتى هذه اللحظة تتعرض للتهديدات سواءً من قبل الدولة التركية أو من قبل الحكومة السورية، أيضاً لأن كردستان مستعمرة دولية.

وفي عفرين عندما أدرك المقاتلون الكرد أن استمرار الدفاع عنها سيجعل من المدينة بقايا أطلال؛ انسحبوا منها، وبذلك دخلت تركيا مع الفصائل المسلحة، وأول ما قاموا باستهدافه هو الرمز الأهم من رموز الثقافة الكردية، فحطموا تمثال كاوا الحداد^١ الذي يمثل رمزاً تاريخياً بالنسبة للكرد، والصور التالية توضح عناصر من الجيش الحر تقوم بتحطيم تمثال كاوا الحداد في مدينة عفرين:

^١ كاوا الحداد (نسبة إلى مهنته) هو بطل كردي، تقول الأسطورة إنه نجح في التحايل على ملك ظالم، وتمكن عبر حنكته من إنقاذ شبان المدينة الذين كان يأمر الملك بقتل اثنين منهم يومياً. وبدأ بجمعهم في الجبال المحيطة بالمدينة وتزويدهم بسيف كان الحدادون يصنعونها في تلك الفترة، قبل أن يهاجموا قصر الملك ويحرقونه، ومنح كاوا شارة الانطلاق للهجوم عبر إشعال النيران التي تعد رمزاً مقدساً لدى الأكراد وما زالت عادة يتبعونها خلال احتفالاتهم.



تمثال كاوا الحداد أثناء تدميره



تمثال كاوا الحداد بعد تدميره

خلال تلك الفترة؛ قام الطيران التركي بقصف صورة أوجلان المرسومة على السفح الجنوبي لجبل "دراميك"؛ المطل على بلدة راجو؛ التابعة لعفرين، وقاموا بتصوير ذلك ونشره على مواقع التواصل الاجتماعي، ويكونوا بذلك قد استهدفوا رمزاً كردياً، يعتبر قائداً عظيماً في نظر شريحة كبيرة من الشعب الكردي، والصورة التالية توضح لحظة القصف:



صورة أوجلان قبل وبعد القصف

وبعد أن تم احتلال عفرين بأيام، تم وضع صورة للرئيس التركي رجب طيب أردوغان مكان صورة أوجلان
بتقدمة من فرقة السلطان مراد، كما هو موضح في الصورة التالية:



استبدال صورة أوجلان بصورة لأردوغان زعيم حزب الحرية والعدالة

ولأن كل رمز كردي يعتبر تراثاً كردياً، فقد قامت الفصائل الإسلامية المعروفة بالجيش الحر بتدمير المقبرة التي
تضم رفات الدكتور نوري ديرسمي^١ وزوجته؛ والذي هو أحد قادة ورموز الثورة الكردية في مدينة ديرسم؛ في
تركيا سنة ١٩٣٧ م، كانت تضم المقبرة بالإضافة إلى ذلك؛ رفات العديد من الشخصيات الوطنية والدينية
في ناحية شرا التابعة لمنطقة عفرين، ضمن المزار الذي يسمى مزار حنان.

الصورة التالية توضح ضريح الدكتور نوري ديرسمي قبل استهدافه والعبث بمحتوياته:

^{١١} ولد الدكتور نوري ديرسمي في آذار ١٨٩٤ في قرية آخزونيك التابعة لولاية ديرسم، أبوه إبراهيم، وأمه زليخة، ينتمي إلى عشيرة ملان، بدأ
بممارسة السياسة وهو شاب، حيث قام بتأسيس اتحاد طلبة كردستان مع بعض زملائه واستمر حتى المرحلة الثانوية. و توفي الدكتور نوري
ديرسمي في عام ١٩٧٣، فيما وافت المنية زوجته "فريدة" عام ١٩٩٤ ودفنا في فناء مبنى المزار.



ضريح الدكتور نوري ديرسي قبل الاستهداف

والصورة التالية توضح الضريح بعد العبث بمحتوياته:



ضريح الدكتور نوري ديرسي وزوجته بعد الاستهداف

من ضمن سلسلة التدمير الثقافي في عفرين قام الطيران التركي باستهداف الآثار الكردية في عفرين، من بينها معبد عين دارة^١ الأثري، وقد تضرر الموقع بنسبة تتجاوز الـ ٥٠ بالمئة، كما هو موضح في الصورة التالية:



صورة لمعبد عين دارة بعد الاستهداف والتدمير

كما تم استهداف الكثير من المواقع الأثرية الأخرى منها النبي هوري (سيروس)^١، وبعض الآثار الرومانية القديمة كالمعبد الروماني في قرية كالوتا.

^{١٢} يعود تاريخ بناء المعبد إلى الحقبة الحثية، أي عام ١٢٠٠ ق.م، وبني على الطراز الهيلاني (نمط بناء هوري – ميتاني) الذي انتشر في سوريا ما بين عامي ١٢٠٠-٧٠٠ ق.م أي قبل الفترة الآرامية.

^{١٣} يعود تاريخ تشييد أقدم نقطة أثرية في الموقع إلى الحقبة الهورية في فترة ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد. وصنفته منظمة اليونسكو كأحد أهم المعالم الأثرية في سوريا والشرق الأوسط. للموقع تسميات عديدة، وهو يعرف اليوم بنبي هوري،

أما بالنسبة للتغيير الديمغرافي الحاصل في مقاطعة عفرين؛ فهو مستمر منذ الأيام الأولى للاحتلال التركي، بهدف إفراغ المنطقة من أهاليها، وإسكان العرب والتركمان في منازلهم، وآخر تلك المشاريع هي المشروع الاستيطاني المسمى بالقرية الشامية والذي يتم بناءه شرق عفرين بنحو (٣) كم؛ بهدف توطين وإسكان المهجرين قسراً من الغوطة والقلمون وحمص.

والمشاريع الاستيطانية ليست بالجديدة على منطقة شمال سوريا، فقد قام بها النظام السوري سابقاً، كالمستوطنات التي أقيمت بظل ودعم ورعاية النظام في القرى الكردية بمحافظة الحسكة تنفيذاً للمشروع التعريبي ل محمد طلب هلال^٤؛ حيث أصدر هذا الضابط دراسة عن محافظة الحسكة ذات الغالبية الكردية من النواحي القومية، الاجتماعية، السياسية، والذي تضمن توصيات خطيرة جداً حول كيفية تذويب الكرد وتهجيرهم، وهذا ما تم بالفعل؛ وما زال الكرد يعانون حتى اليوم من مشروع الحزام العربي الذي أقيم في شمال سوريا.

خاتمة

إن نتائج الدراسة السابقة توّضح بشكل جليّ، إن الدول المقتسمة لكردستان تعرف جيداً أن إفراغ أي شعب من مضمونه الهوياتي يبدأ من ثقافته، لذا كان الاستهداف للثقافة قبل الانسان، ويمكن أن نضع ما

أما الاسم اليوناني للمدينة فهو «سيروس»، كما سميت «أجيابولس» أي مدينة القديسين كوزما وديميانوس وقد بُنيت كنيسةً حول قبريهما، وكنيسة سمعان الغيور التي بناها ودفن فيها بعد موته.

^٤ كان ضابطاً في وزارة الداخلية السورية تخرج برتبة ملازم أول في ١٩٦١ في عهد الانفصال ليتقلد المناصب العسكرية والسياسية حيث وصل إلى رتبة عميد متقاعد . ليتبوأ العضوية المؤقتة للقيادة القطرية ، كما شغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء ، ووزيراً للزراعة في ١٩٧٠ ثم نائباً لرئيس مجلس الوزراء وزيراً للصناعة عام ١٩٧١ كما شغل منصب سفير سورية في بولونيا بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٩ . مات يوم الأربعاء ٢٠١١/٢/٩ عن عمر ناهز ٨٠ عاماً.

سبق في خانة صراع بين الإحياء والإبادة، فأما أن تثبت وجودك وتحافظ عليه، وأما أن تُباد وتنتشت وتنصهر في أمة أخرى كالأمة التركية أو الفارسية أو العربية.

إذن لا يمكن للإنسان أن يعيش بدون ثقافة، هي القاعدة، وكل الشهداء الذين يضحون بأنفسهم، مهمتهم - بالإضافة إلى حماية الأرض - هي حماية حدود هذه الثقافة، وهذه المهمة تقع على عاتق الأفراد والمؤسسات أيضاً، إذن فأنت مسؤول قبل كل شيء عن حماية حدودك الثقافية، لأن وجودك مرتبط بها، ولكي ترتقي أمتك إلى مستوى الأمم المتقدمة.

المراجع

- الثقافة في قاموس المعاني
- رستم جودي - كتاب: الإيديولوجيا. دروس في الإيديولوجيا ألقاها الشهيد رستم جودي، الترجمة: أكاديمية عبد الله أوجلان للعلوم الاجتماعية. تاريخ الطبع: ٢٠١٧.
- مانيفستو الحضارة الديمقراطية: القضية الكردية وحل الأمة الديمقراطية، المجلد الخامس. عبد الله أوجلان.
- الكومون: كتيب صغير يشرح الكومين في المجتمع الديمقراطي.
- كتاب: كردستان مستعمرة دولية - اسماعيل بيشكجي.
- نياندرتال: wikipedia
- اللغة الكردية في روج آفا: tev-dem
- تدمير ضريح الدكتور نوري ديرسي: adarpress
- المواقع الأثرية: buyerpress
- القرية الشامية: adarpress
- مركز توثيق الانتهاكات في شمال سوريا: vdc-nsy

سوسيولوجية الكرد ما بعد انتفاضة ١٢ آذار ٢٠٠٤

جنار صالح - باحثة في مركز الفرات للدراسات

هذا البحث سيقف على التغييرات النفسية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع الكردي بعد انتفاضة ١٢ آذار.

مقدمة

على أعقاب انهيار الدولة العثمانية، في بدايات القرن العشرين، تشكلت دول لم تكن موجودة سابقاً، وبسميات مختلفة في المنطقة، والتي مازال الكثيرون يبحثون عن معاني هذه التسميات، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على غرابة هذه التسميات بالنسبة لشعوب المنطقة؛ أي أنّها لباس قد فصلت في الخارج من خلال مشروع تشكيل مناطق النفوذ آنذاك، وإحدى هذه الدول كانت الجمهورية السورية، والتي تشكلت عبر مقاومة جميع شعوبها كيد واحدة، فكانت بداية دولة وطنية تشمل جميع الأجزاء التي كانت تشكل الكلّ السوري، ولكن هذه التشكيلة السليمة لم تستمر طويلاً، حيث عاشت الكثير من الانقلابات المتتالية، إلى أن وصلت إلى شكلها الحالي، حيث تجاوزت الدولة الوطنية لتصبح دولة قومية أحادية في كلّ شيء؛ حيث العلم الواحد، الشعب الواحد، اللغة الواحدة، والحزب الواحد، وبدأت محاولاتها في خلق أفراد نمطيين ومتشابهين، من خلال تطبيق سياسة الصهر في بوتقة واحدة، تحت مسمى "مواطن الدولة"، واعتبرت الآخر المختلف عدوّاً لدوداً لوحدتها المزعومة!

إحدى سياسات هذه الدول هي منح الأهمية القصوى للمركز وبعض المحافظات الارتكازية المحيطة به، حيث جعلها مدن كبيرة يلجأ إليها الناس من كلّ حذب وصب، فمن يبحث عن عمل لسدّ رمق جوعه ويبيع كدحه بأبخس الأثمان أو من يقوم بجنائيات ما ليختبئ فيها، أو من يعاني مشكلة ما في أوساطه، أو أن يكون منبوذاً ومطروداً من مجتمعه، بإمكانه حينها العثور على ملاذ في تلك المدن، التي تتعاضم وبوتيرة سريعة في

عدد سكانها، إضافة إلى تطوير مراكز التعليم، وكونها مكاناً لحلّ مشاكلهم البيروقراطية، مما يؤدي إلى خلق بنية اجتماعية هشّة، رخوة، في العلاقات بين النسيج الاجتماعي، بحيث يسهل على الدولة استغلالها بشكل أفضح وأكبر، والتحكّم بها من خلال مؤسّساتها البوليسية والاستخباراتية.

إهمال الأطراف، هل هي نعمة أم نقمة؟

يرى الكثيرون في إهمال الدولة للأطراف نقمة، حيث الحرمان من فرص العمل ووسائل الراحة والتعليم، لذا يضطرّ لأجل حلّ مشكلة بسيطة إلى وضع تكاليف أضخم من طاقتهم؛ بالفعل فهي إذن نقمة إن نظرنا إليها من منظور ضيق وقريب، ولكنها نعمة عند تحليلنا لها من منظور بعيد واستراتيجي. لنسقط هذه الحالة على مجتمع الشمال والشمال الشرقي لسوريا، ولكي يكون مدار بحثنا أكثر دقة، سوف نختار المجتمع الكردي بشكل خاص.

المجتمع الكردي قبل انتفاضة ١٢ آذار ٢٠٠٤

إنّ المجتمع الكرديّ وبسبب تواجده في أطراف الدولة القومية المهملة، ورغم سلب جميع حقوقه الطبيعية؛ بدءاً من حرية اختيار اسم بلغته لأطفاله، إلى التعلّم بلغته الأم، والتحكّم بموارده الاقتصادية الغنيّة وسلبها، إلى منعه التكلّم بلغته في مؤسّسات الدولة، ناهيك عن مطالبه القومية والسياسيّة، إلا أنّ الدولة لم تستطع التحكّم والسيطرة عليه بشكل كامل، فحافظ على عزة نفسه، وحالته المجتمعية المتماسكة إلى حدّ لا بأس به، عاش بعاداته وتقاليده وأعرافه، وبالتالي بقيمه المجتمعية الخاصة به، لم يكن المركز وجهته الأساسيّة، بل كان مرتبطاً بأرضه وعرضه وبيته، إلا عند الضرورات القصوى، حيث كان المركز؛ أي دمشق تعتبر مدينة بعيدة له كلّ البعد، ولم تستطع مؤسّسات الدولة الاستخباراتية أن تنظّم نفسها ضمن هذا النسيج المتماسك، ولذلك كان المتعاملون مع هذه المؤسّسات قلائل، إضافة إلى معرفة الشعب بهم؛ أي أن فلانا متعاملٌ مع الدولة، وبلغتنا البسيطة فهو "عميل للمخابرات" وكانوا على الأرجح منبوذين من مجتمعهم. احتفالات نوروز كانت شاهدة على الوجدان المشترك لهذا الشعب، فبالرغم من مخاطر الاحتفال بها، لم يتوانى أحد عن الاحتفال بهذا العيد، ولم تكن الفروقات ولا التمايز الطبقي واضحاً، حيث لم يكن هناك فقر مدقع ليضطر الفقير إثره للبحث في المكتبات عن لقمة عيشه، ولم يكن هناك غنى فاحش، ليشترى بها ذمم الآخرين، وكانت الأخلاق بمثابة العقد الاجتماعي الذي ينظّم علاقة الفرد بالعائلة وعلاقته بالمجتمع، حيث لم يتعرّف هذا المجتمع على قوانين وشرايع الدولة، وبالتالي كان الصلح سيّد المواقف في حين ظهور

مشكلة ما، ومهما كانت نوعية هذه المشكلة، ولم يوجد في الصلح طرف خاسر وآخر رابح، بل كانت دائماً تُرضي طرفي المشكلة، أما محاكم الدولة فكان الذهاب إليها بمثابة العار، ولذلك فقلة قليلة جداً من المشاكل كانت تنقل إلى تلك المحاكم، فقرارات المحكمة تكون أبداً لصالح أحد الأطراف على حساب الآخر، إضافة إلى العلاقات الاجتماعية القوية، من علاقات القرى إلى علاقات الحيرة.

المجتمع الكردي بعد انتفاضة ١٢ آذار

كانت انتفاضة ١٢ آذار عفوية غير مدبرة وغير منظّمة، ولكنّها لم تكن بدون أسباب، فبعد تفرد حزب البعث بالسلطة وإعلان نفسه قائداً للدولة والمجتمع، بدأ بسياسة الإنكار من خلال الإبقاء على مراسيم جائزة بحق المنطقة، بدءاً من الإحصاء ١٩٦٢ الذي أقرته حكومة الانفصال والذي تُرك من خلاله عدد كبير من الشعب الكردي بدون هوية، تحت مسمى أجنبي ومكتوم القيد، إضافة إلى تنفيذه مشروع التعريب على مراحل، والذي كان قد تم تقديمه من قبل محمد طلب هلال^١ قبل سيطرة البعث على مفاصل الحكم في البلاد، والذي هدف من خلاله إلى تغيير ديمغرافي بناء على بناء مستوطنات من المتضررين من مشروع سدّ الفرات وإسكانهم في القرى الكردية، وتحت مسمى استصلاح الأراضي، فقاموا بأخذ وتوزيع الأراضي الخصبة في المنطقة على من سماهم بالمغمورين، وترك قسم كبير من هذا الشعب بدون حصّة، إضافة إلى منعه من حقوقه الطبيعية كأبي شعب يعيش على أرضه التاريخية، إلى جانب هذه الأسباب، هناك أسباب قريبة، لها علاقة بالتحوّلات والتغييرات الحاصلة في منطقة الشرق الأوسط عامة، حيث إن تدخل أمريكا في العراق وبشكل مباشر، خلق لدى الشعوب المضطهدة آمالاً واعتقاداً بالخلاص من الأنظمة الدكتاتورية، التي لم تكن للديناميكيات الداخلية الذاتية لوحدها أن تقوم بفعل التغيير والتوجه نحو بناء نظام أكثر ديمقراطية، ففي الطرف الآخر خُلِق لدى قسم لا يستهان به احتقان وضغينة مما يجري، كلّ هذه الأسباب مجتمعة وحسب مقولة "الضغط يولّد الانفجار" بدأت أحداث انتفاضة ١٢ آذار ٢٠٠٤، طبعاً أحداث هذه الانتفاضة وكما هو معلوم بدأ اشتعال فتيلها من الملعب^١، ولكن سرعان ما تعاضمت لتتحول في زمن قياسي إلى انتفاضة عظيمة، بدأت من أقصى الشمال الشرقي، حيث مدينة ديريك، لتنتشر كالنار في الهشيم إلى أقصى الشمال الغربي (عفرين)، وتبدأ البوصلة بالتوجّه إلى الجنوب حيث العاصمة دمشق، فكانت ردة فعل مشتركة ناجمة عن الأخلاق والوجدان المشترك للمجتمع، والتي بإمكان المرء اعتبار هذه الانتفاضة

^{١٥} دراسة محمد طلب هلال عن محافظة الجزيرة wekhevi

^{١٦} انتفاضة الشعب الكردي ٢٠٠٤ diroka-kurdi

بالحلقة الأولى لربيع الشعوب، وأثبتت أحداث الانتفاضة أنّ هذا المجتمع مازال ورغم كلّ ما قامت بها الدولة من السياسات المحجفة، متمسكاً، وبالتالي يمكن أن نطلق على هكذا تجمع اسم المجتمع، لأنه يملك خاصية الأخلاق والوجدان المشترك، وأكثر ما أثار مخاوف النظام كانت خاصيته هذه، حيث أدرك النظام المخاطر التي يمثّلها هذا التماسك.

إنّ الظروف الدولية والإقليمية وحتى الكردستانية، لم تكن جاهزة لمثل هكذا انتفاضة، فاستغل النظام هذه الظروف، ليضرب الانتفاضة ومن ثم المجتمع بيد من حديد، مارس سياسة فترّق تسدّ بشكل قويّ، فجعل من تناقض الكرد- الدولة إلى تناقض الكرد-العرب، حيث لعب على وتر العروبة والتمييز العنصري، وقدم نفسه ممثلاً عن الأغلبية من الناحية العددية، تحت شعار "من يهاجم الدولة يهاجم القومية العربية"، ولكن الأحداث الأخيرة؛ أي ما بعد أحداث انتفاضة ٢٠١١ أوضحت وبشكل جليّ مدى ارتباطها؛ أي الدولة، بالعروبة، فأكثر المتضرّرين في هذه السنوات الأخيرة كان العرب أنفسهم، وبالتالي لم تكن يوماً ما تمثّل القومية العربية التي سمّيت باسمهم.

الأساليب التي اتبعتها النظام بعد إخماد الانتفاضة لتشتيت وتفكيك المجتمع

إنّ قوة وتماسك المجتمع كان لا بد أن تتفكك حتى يسمح للدولة بالتغلغل إلى صميمه، حيث استعمل عدة أساليب للوصول إلى هذه الغاية؛ أي إخراج المجتمع من كونه مجتمع، بل جعله مجموعة عديدة من الأفراد لا يربطهم ببعض أية أخلاق أو وجدان مشترك، وحاول بناء هذا الفرد من خلال زج الكثير من المشاركين وحتى غير المشاركين في السجون، وفي السجون ومن خلال الاحكام العرفية وإطالة مدة الاستجواب والتحقيق، إلى جانب التعذيب الوحشي الذي مارسه، والإهانات الشخصية، كان الهدف من كلّ ذلك كسر إرادة الفرد وتحطيم عزة نفسه، وإرغامه على قبول كلّ ما يريده النظام، فعزة نفس الإنسان هي الرادع الأخلاقي الأول، فإن تحطمت عزة نفس الإنسان، حينها بإمكان النظام توظيفه واستغلاله كما يريد.

سياسة الدولة في موضوع وضع البعض في الزنانات لم يكن المقصود بها من هم في الزنانات فقط، بل الهدف منه التخويف وتأديب من هم في الخارج أيضاً، أما سياساتها المخططة والمبرمجة على من هم خارج السجون؛ أي المجتمع، فكانت بعدة أشكال:

فرض سياسة التجويع، لتتمكن من خلالها "تأديب" وفرض الاستسلام، ومن ثم الخنوع والانصياع الكلي للنظام، وبحسب هذه الخطة بدأ بإخراج المراسيم الداعمة لها، وإحدى هذه المراسيم، كان المرسوم المرقم ب ٤٩ المتعلق بالعقارات^١؛ أي قانون الاستملاك، ومن خلال هذا المرسوم لا يمكن لأهالي المناطق الحدودية، أي مناطق الأطراف بيع وشراء العقارات وكتابتها بأسمائهم، ولكن طبّق هذا القانون على المجتمع الكردي فقط في الممارسة العملية؛ أي بما معناه أنّه يحقّ للكردي بيع العقار والأراضي، ولكنّه لا يملك حقّ شرائها، حتى وصل الأمر بالنظام إلى عدم إعطاء حقّ ترميم أو إجراء أي تغيير على منزله حتى في حال الضرورة القصوى. إصدار القوانين الاقتصادية الجائرة وخاصة في المجال الزراعي، باعتبارها منطقة زراعية، وبالتالي تكون الزراعة شريان الحياة لهم، دعك من عدم تقديم أي دعم ومساندة في هذا المجال، وتحت اسم الدورة الزراعية وضعت قوانين منع من خلالها زراعة المساحات اللازمة لها، إلى أن وصل الأمر بالدولة أن تتحكّم حتى في لقمة عيشهم، من خلال تشديد قبضتها على كلّ شاردة وواردة، إضافة إلى عدم فسخ المجال أمام المزارعين والفلاحين لبيع محاصيلهم إلى الجهات التي يرونها مناسبة لهم، بل كانوا مُلزَمين بالضرورة لبيع نتاجهم إلى خزائن الدولة التي كانت تأخذها بأثمان بخسة، وزاد في الطين بلة ما تعرّضت له المنطقة لمواسم الجفاف والشحّ.

كان الهدف من كلّ هذه الإجراءات المجحفة بحقّ المجتمع الكردي هو فرض وإجبار غالبية الشعب الكردي إلى الهجرة إلى المركز والمحافظات المحيطة به، لثُحكّم قبضتها عليهم وإجبارهم على القيام بكافة أنواع الأعمال التي تحدّ من كرامتهم، وكان هذا أحد وعود المخابرات لهذا الشعب "بأننا سوف نجعل من شبابكم نوادل وكراسين في المطاعم، ومن نسائكم خادמות وجواري في بيوت أهل الشام وحلب" فقد استخدم كافة السبل المؤدية إلى تحطيم عزة نفس، إنّه الرادع الأخلاقي الأول، ليجعل من الإنسان فريسة سهلة الاضطهاد، وبالتالي سهلة الاستعمال والاستخدام، ومن هنا بدأ هذا المجتمع بالتغيّر إلى حد أن أناسه لم يعد بإمكانهم التعرّف على هذا الواقع الجديد، ومن هنا بدأ الاستخبارات والأول مرة في تاريخ هذا الشعب بتشكيل شبكة واسعة من المرتبطين بها، وبدأ المجتمع بالتفكك والاضمحلال، فخرج من كينونته المجتمعية بعد هذه الأحداث، بحسب التعريف الأكاديمي لمصطلح المجتمع، والمجتمع المبعثر والمتفكك يسهل استغلاله ونهبه والتحكّم في جميع مفاصله الحيوية، وهذا ما تركته أحداث انتفاضة ١٢ آذار، ولذلك فالكثير من الشعب الكردي بدأ بالقول "يا ليتها لم تكن".

^{١٧} المرسوم رقم / ٤٩ / ٢٠٠٨ لعام انتهاك صاخر للحقوق الأساسية للمواطن السوري shrc

كانت ثورة، وتمرداً وعصياناً في غير أوانه، لأنّ الظروف الدولية والإقليمية والكرديستانية لم تكن جاهزة لمساندتها وإيصالها إلى نتيجة ممكنة، ولذلك انعكست نتائجها سلباً على الواقع الاجتماعي بشكل خاص، وأعطت ذريعة للدولة بالتدخل المباشر والسافر في بنية المجتمع وتفكيكه، من حيث العلاقات الاجتماعية من جميع نواحي، فلا يمكن اعتبار العدد الكبير من الشباب الذين كانوا يتسكعون في زوايا الشوارع، مشردين، ويستعملون المواد المخدرة إلا نتيجة لممارسات أجهزة المخابرات، وجزءاً من هذه السياسة المطبقة في هذه المنطقة؛ أي أنها كانت مخططة لها مسبقاً.

إنّ أحداث انتفاضة ١٢ آذار أثرت سلباً على جميع فئات وشرائح المجتمع، ولكن تأثيرها على جيل الشباب كان أعظم وأكثر وطأة من ناحية النتائج، حيث أصبح يحجل من كرده، من تراثه، ومن لغته، حيث أصبح مقياس تطوره مقروناً بمدى تقليده لأهل الشام ولهجتها، وعاش ويمكن أن تكون هي المرة الأولى ولهذا الدرجة عقدة النقص الفتاكة بالشعوب، وزاد الوضع تعقيداً حالة الكاوس التي كانت ومازال لها تأثيرات كارثية على الكثير من الشعوب والمجتمعات ومن ضمنهم المجتمع الكردي.

تأثير حالة الكاوس على المجتمع الكردي

بدأت مرحلة الكاوس أو ما يُسمى بالفوضى الخلاقة، في بدايات القرن الحالي، وقد أسهبت في شرحها في دراسة سابقة، وقد أثرت وتؤثر على الشعوب والمجتمعات تدريجياً، فتأثير هذه الحالة بدأ بالظهور وبشكل جلي، في المجتمع الكردي فيما بعد أحداث انتفاضة ١٢ آذار، وإحدى نتائجها كانت في انتشار الكثير من المفاهيم التي لم تكن موجودة بتاتاً في كينونة مجتمعاتنا وصلبها، خاصة بين تلك الفئة التي كان النظام يهتم بها من خلال مناهجها الدراسية ليكون مسنناً جيداً يعمل على دوران نظامه دون عوائق، وبذلك يؤمن على سيورته لمدة أطول، وإحدى هذه المفاهيم هي الليبرالية التي لم تكن معروفة في وسطنا الاجتماعي والسياسي، وأصبحت متداولة بين تلك الفئة التي تدعى التثقيف، وعن طريق هذه الفئة بدأت بتسريبها إلى المجتمع، وكأها مفاهيم متقدمة وجديدة، سوف توصل مجتمعاتنا بركب الحضارة، هذه المفاهيم التي عفى عليها الزمن، وهي إحدى مسببات الكاوس.

شعار اللامنتمي أو اللانتماء أصبح من بين أكثر الشعارات انتشاراً، خاصة بين فئة الشباب، وهي إحدى مدلولات الكاوس، حيث الفراغ الناتج عن تحطيم القيم، فأدخل الفرد في دوامة بحث بلا جدوى، وتخبّط بلا حدود، فلا يدري ما يطلبه وما يتمناه، وقد روج لهذا الشعار الذي سوف يخدم السلطة، فالسلطات

تتميّ أجيالاً بهذا صفات، بذلك تتحكّم بالديناميكيات الداخلية في المجتمع وتشلّه، إذا لم يكن انتشاره بهذا الشكل اعتبارياً، خاصة ونحن أبناء الشرق بالمجمل مسيّرون لا مخيرون، فقد نهشت التبعية أجسادنا، فكيف للتابع أن يتحوّل بين ليلة وضحاها إلى لا منتمي، وهو مسلوب الإرادة أساساً، بل كانت مدروسة، لخلق جيل لا مبالي، منقطع كلياً عن قيمه وتراثه الثقافي والمجتمعي، وبالتالي منقطع الروابط بواقعه، فاللامتمي يظنّ أن تبنيه لهذا المفهوم سيكون مخرجاً لهذه الحالة المعقدة؛ اللامتمي هو ذاك الفرد الأناني المنقطع عن كينونته الاجتماعية، والذي يرى راحته الشخصية في التهرّب من المشاكل المتعاطمة من حوله.

النتيجة

تنظر الدولة القومية إلى المجتمع المتناسك، والذي يتمتّع بخاصية الوجدان المشترك، نظرة الريبة والشك، والمليئة بالمخاوف، حيث تهاه الدولة، ولذلك يحاول وبكافة الوسائل الممنوعة والترهيب، تحطيم هذا الحصن المنيع، وبناء شخصية مسموخة بعيدة كلّ البعد عن قيم الحرية والعدالة والديمقراطية، شخصية تنهش في جسد المجتمع وكينونته، بسبب أنانيته المفرطة، حيث لا تهتمّ قيم المجتمع، بقدر إعطاء الأهمية لإشباع الأنا النهمّة من خلال استباحة كلّ الطرق والسبل، وخلق خلط كبير بين الغاية والوسيلة، حيث أن الوسيلة تصبح هي الغاية، وخير مثال على ذلك أن النقود هي بالأساس وسيلة في حياة الانسان، ولكنّها تحولت إلى هدف وغاية الحياة، وهذا هو سرّ انتشار الفساد بشكل غير مسبوق في مجتمعاتنا، إذا فلظاهرة الفساد علاقة وثيقة بسياسات ومناهج النظام التي هدفت إلى تفكك وتشردم المجتمع، فالفرد المثالي للنظام هو ذاك الفرد الذي قطع أوصاله وروابطه بمجتمعه، وهذا ما وصل إليه المجتمع الكردي بعد أحداث انتفاضة ١٢ آذار، حيث تغيّرت بنية المجتمع، وبنحو سلبي على الأرجح، يمكننا اعتبار أنّها كانت متوجّهة نحو الحضيض، لولا أحداث ربيع الشعوب ٢٠١١، فقد كانت بمثابة إشارة قف، لبدأ مرحلة بإمكاننا نعتها بالعودة إلى الذات الحقيقية.

تنظيم داعش والوجهة المقبلة.. بعد هزائمه في سوريا والعراق

ستالين أوسو - باحث

محاور الدراسة

١. كيف ظهر تنظيم داعش، وما هي الأسباب؟
٢. العوامل التي تؤكد أن تنظيم داعش يحافظ على قوته.
٣. لماذا يسعى داعش في البداية لحلّ التحالف الدولي ضده؟
٤. التنظيم لا يزال "حياً" وظهور البغدادي دليل على ذلك.
٥. كيف ستكون سياسة التنظيم بعد هزائمه في سوريا والعراق؟
٦. ما هي المناطق التي قد يستهدفها داعش، أو قد تكون الوجهة المقبلة للتنظيم المتطرف؟
٧. تهديد أوروبا.

تعريفات إجرائية للدراسة:

- **الذئاب المنفردة:** تطلق هذه التسمية على أشخاص مرتبطين بتنظيم ما يعرف بالدولة الإسلامية "داعش"، وينفذون عمليات بمفردهم.
- **خلايا التماسيح:** خلايا نائمة تتبع لتنظيم داعش، وتنفذ أوامرها في أوروبا.

تمهيد

تمكنت قوات سوريا الديمقراطية من تحرير مناطق شمال وشرق سوريا من تنظيم ما يعرف بالدولة الإسلامية بشكل تام، وأعلن الرئيس الأمريكي بعد اعلان النصر في سوريا، الإعلان النهائي للنصر على التنظيم عسكرياً، لكن.. دول العالم ومن بينها الولايات المتحدة أكدت أن داعش كتنظيم لا يزال قائماً، كما وتشير العديد من التقارير الى احتمالية ظهور التنظيم مرة أخرى، وأصبحت جميع الأطراف تتساءل عن الوجهة المقبلة المحتملة للتنظيم المذكور، فهو يضع عينه على العديد من المناطق من خلال اعتبارات عدة نبرزها لكم من خلال هذه الدراسة.

أهمية وأهداف الدراسة

تكمن أهمية هذه الدراسة في توضيح أهداف وسياسات تنظيم داعش بعد الخسائر التي مُني بها في سوريا والعراق، كما وتكمن أهميتها في توضيح السياسة الجديدة للتنظيم، إضافة للدول التي قد تستهدفها أو تعلن فيها "الخلافة" من جديد.

وتهدف من خلال هذه الدراسة أيضاً؛ إلى إبراز العوامل المساعدة للتنظيم في الظهور مرة أخرى في ظل الأزمات التي تشهدها العديد من البلدان وعلى وجه الخصوص البلدان العربية.

مقدمة

صرّح الرئيس الأمريكي دونالد ترامب أن "مئة في المئة من الأراضي التي كانت خاضعةً لسيطرة تنظيم ما يعرف بالدولة الإسلامية، تمت تحريرها"، هذا؛ بعدما تمكنت قوات سوريا الديمقراطية من السيطرة على آخر معاقله في بلدة الباغوز شمال وشرق سوريا في الـ ٢٣ من شهر آذار عام ٢٠١٩.

ولكن... الولايات المتحدة وكافة الدول والقوات التي حاربت التنظيم تدرك جيداً بأن "داعش" كتنظيم لا يزال قائماً، ويهدد أمن العالم، كما وتتخوف جميع الجهات من ظهور التنظيم كقوة عسكرية مرة أخرى، أو حتى في ظهوره كقوة أكثر تنظيمياً من سابق عهدها.

ويُلاحظ بشكل واضح في الفترة الأخيرة بأن هجمات هذا التنظيم المتطرف في العديد من بلدان العالم بدأت تأخذ منحىً آخر أكثر خطورة من السابق بعد الهزيمة التي مني بها، كما أن خلاياه بدأت تتحرك بشكلٍ أكثر دقة.

ويستنتج من هذا الأمر شيئاً واحداً ألا وهو بأن التنظيم يمتلك قاعدة متينة في العديد من البلدان، وهو قادرٌ على القيام بتنظيم صفوفه من جديد، كقوة عسكرية وتنظيمية قوية أن أمكنته من ذلك الأرضية المناسبة، أو نستطيع القول بأنه قادر على الحفاظ على قوته التنظيمية السابقة.

كيف ظهر تنظيم داعش، وما هي الأسباب؟

ظهر تنظيم داعش أو ما يعرف بتنظيم الدولة الاسلامية، ما بين عامي ٢٠٠٤ و ٢٠١١، وهي الفترة التي أعقبت التدخل الأميركي في العراق، تأسس خلالها فصيل منشق عن تنظيم "القاعدة" بقيادة أبو مصعب الزرقاوي.

وفي عام ٢٠٠٦، غير التنظيم المنشق اسمه إلى تنظيم الدولة في العراق، وهو ما يعتبره كثيرون توقيت الظهور الحقيقي للتنظيم المتطرف.

سعى التنظيم مع بداية الأزمة السورية والاحتجاجات العراقية، للسيطرة على الأرض من خلال استغلال الحرب الطائفية في البلدين، وأرسل الزعيم الحالي للتنظيم (أبو بكر البغدادي) في عام ٢٠١١ عناصر إلى سوريا لتأسيس جماعة تابعة للتنظيم، ومن ثم قطع ارتباطه بشكل تام من "القاعدة" في عام ٢٠١٣.

استغل التنظيم الأزمة في سوريا والعراق وتمكن من السيطرة في عام ٢٠١٤ على الفلوجة في العراق والرقة السورية، كما استولى على الموصل وتكريت في يونيو، واجتاح الحدود مع سوريا، وأعلن البغدادي من الموصل قيام ما عُرف بـ "الدولة الاسلامية".

شعر العالم بعد تمدد التنظيم المتطرف بخطورته بعد تمكنه من السيطرة على مساحات واسعة من الأراضي السورية والعراقية، وأعلنت الولايات المتحدة في سبتمبر من عام ٢٠١٤، تشكيل تحالف دولي ضد التنظيم، بدأ بتنفيذ ضربات جوية لوقف زحفه، وساعد وحدات حماية الشعب اثناء معركة كوباني، وتمكنت آنذاك وحدات حماية الشعب من الحاق الهزيمة الأولى بالتنظيم المتطرف بمساندة التحالف الدولي.

وتلت تلك الهزيمة هزائم متكررة في سوريا والعراق حتى تم الإعلان عن هزيمته بشكل نهائي من بلدة الباغوز شمال شرق سوريا، في ٢٣ آذار/مارس ٢٠١٩ من قبل قوات سوريا الديمقراطية.

وعلى الرغم من اعلان النصر ضد داعش، إلا أن هذا التنظيم بقي حديث العالم، وتتساءل جميع الأطراف عن كيفية ظهور التنظيم واسبابه.

وتعيد مراكز بحوث ونشطاء سياسيين، أسباب ظهور تنظيم داعش بهذه القوة وتناميه لسببين رئيسيين هما:

١- السبب الطائفي

زعم داعش منذ بداية ظهوره إلى أنه جاء لنصرة أهل السنة، وتخليصهم من "ظلم" الشيعة، واستغل اعتصامات العشرات السنية في المنطقة الغربية خلال فترة حكم رئيس الوزراء السابق نوري المالكي عام ٢٠١٢، وتمكن من خلال هذا الأمر في جذب الآلاف من الشباب.

كما استغل التنظيم ذات الأمر في سوريا، حيث غرر الشباب من خلال الادعاء بتخليصهم من ما سموه بحكم "العلوين" وقالت أن سوريا تحكمها ميلشيات إيرانية.

وعمد داعش إلى "غسل أدمغة الشباب" بأفكار طائفية من خلال تصوير الآخر المختلف عقائدياً، أو مذهبياً على أنه عدو، ويجب مُحارَبته.

٢- السبب السياسي

استغل التنظيم المتطرف، ضعف الموقف الدولي من الأزمة السورية الذي أدى إلى ظهور العديد من التنظيمات المتطرفة على هذه البقعة الجغرافية، كما أن الصراعات المذهبية داخل العراق جعلت منها موقفاً مثالياً مكنت تنظيم "داعش" من اختراقها، والسيطرة على أماكن كثيرة.

هذا وتمكن التنظيم من خلال سنوات تواجده على الأرض كقوة عسكرية من استقطاب عشرات الآلاف من الأجانب، واصبح التنظيم، من أخطر التنظيمات تهديداً للعالم.

وعلى الرغم من إعلان الانتصار النهائي على التنظيم، إلا أن الأمور قد تسير على نحو أسوء، فالتنظيم لا يزال قائماً، كما أن هناك العديد من الأمور التي تشير إلى أن داعش سيعيد تنظيم صفوفه من جديد، فالعالم بأسره يتخوف من ظهور التنظيم كقوة عسكرية مرة أخرى، أو حتى في ظهوره كقوة أكثر تنظيماً من سابق عهدها.

وظهور البغدادي "زعيم التنظيم" أكد أن الأمور لا تسير على خير، فهجمات التنظيم بدأت تأخذ منحاً آخر، ويبدو من خلال المجريات التي تحصل على الأرض بأن التنظيم يسعى للحفاظ على قوته للبدء بعمليات أخرى في الفترات القادمة.

العوامل التي تؤكد أن تنظيم "داعش" يحافظ على قوته

هناك العديد من العوامل التي تؤكد أن التنظيم -المصنف على لائحة الإرهاب الدولية- يحافظ على قوته التنظيمية، ويشير الخبراء بأن التنظيم يترئث حتى حل التحالف الدولي ضده قبل القيام بأي عمليات أخرى هادفة للسيطرة على الأرض، وسيعمل في الوقت الحالي للحفاظ على قوته التنظيمية فحسب.

ومن أبرز العوامل التي تؤكد قدرة التنظيم في الحفاظ على قواه التنظيمية هي ما يلي:

أولاً- فشل القوات التي حاربت داعش في اعتقال أو قتل جميع قادة الصف الأول

لم تتمكن القوات المحلية التي حاربت التنظيم، وكذلك التحالف الدولي من اعتقال أو قتل جميع قادة الصف الأول من التنظيم في العراق وسوريا ما يشير إلى أن التنظيم "حيّ يريزق"، وعلى وجه الخصوص ظهور زعيم التنظيم أبو بكر البغدادي في تسجيل مصور، كما فشل التحالف الدولي بالقبض أو قتل القيادات الفاعلة والأمنية لهذا التنظيم العميق، وأصبح التنظيم بعد الخسائر غير محدد الأهداف والأيدولوجيا، وأصبح من غير المعروف كيف سيظهر التنظيم "بجلته الجديدة" أو أين سيظهر.

ثانياً- النزاع الطائفي في العراق وسوريا

يرى محللون عراقيون بأن هذه الحالة تشير إلى أنه من غير المستبعد عودة ظهور نسخة جديدة من التنظيم باسم آخر، أو حتى ظهور تنظيم جديد قد يكون له قبول أكثر في هذه المناطق التي تعاني من سياسات طائفية بسبب سيطرة الحشد الشعبي عليها في العراق، وينطبق الأمر أيضاً في سوريا في ظل سيطرة ميليشيات إيرانية على مساحات واسعة من الأراضي السورية التي تشكل الطائفة السنية غالبيتها.

ثالثاً- اندماج التنظيم مع تنظيمات أخرى والتوجه لحرب العصابات

إن تواجد العديد من التشكيلات العسكرية المتطرفة الموالية لداعش في سوريا وليبيا ومصر، إضافة لتواجد عدد كبير من الخلايا النائمة للتنظيم في العديد من البلدان العربية التي تشهد نزاعات مستمرة، تشكل وتدق ناقوس الخطر بظهور التنظيم بقوة مرة أخرى، كما إن استمرار هجمات التنظيم في العديد من المناطق التي كانت تخضع لسيطرته، وانتهاجه لمبدأ حرب العصابات تشير إلى أن خلايا داعش لا تزال تتواجد بقوة في المناطق التي كانت تخضع لسيطرته.

وأكد التقرير السنوي لوكالة الاستخبارات الوطنية الأميركية أن "تنظيم الدولة" لا يزال لديه آلاف المقاتلين في العراق وسوريا، كما أكد أن التنظيم له ثمانية فروع وأكثر من ١٢ شبكة، فضلاً عن آلاف المناصرين المنتشرين حول العالم رغم خسائره الجسيمة في القياديين والأراضي.

رابعاً- مساعي داعش للتحويل لتنظيم سري

يسعى داعش لتنظيم صفوفه والتحويل لتنظيم سري، حيث يقول خبراء أمريكيين انه على الرغم من فقدان تنظيم داعش لكل الأراضي التي كان يسيطر عليها في العراق وسوريا، إلا أنه يحاول إعادة تنظيم صفوفه بالتحويل لتشكيل جديد سري ليس أقل خطورة من السابق، ويقول في هذا الصدد بروس هوفمان، الخبير بالمجاميع الإرهابية من جامعة جورج تاون في واشنطن،: "تنظيم داعش توقع أن يُهزم ويطرده من الأراضي التي كان يعتبرها دولة خلافته وهيئاً نفسه وفقاً لذلك. وقد تمكن المئات من مسلحي داعش من الهروب من سوريا الى تركيا وبسبب ذلك اختفوا وتواروا عن الأنظار ليتحولوا الى تنظيم سري وهي لعبة كان يُعدُّ لها منذ وقت طويل."

خامساً- استحداث مصدر جديد للتمويل:

استحدث التنظيم مصدراً جديداً للتمويل، حيث يقول كل من الخبيرين براندون والاس وجينيفر كافاريلا، من معهد واشنطن للدراسات الحربية إن "تنظيم داعش قد استخدم مصدراً جديداً للتمويل لإعادة بناء مركزه القيادي للسيطرة على المسلحين الباقين المنتشرين لإعدادهم لهجمات مستقبلية واسعة النطاق في كل من العراق وسوريا"، وقال خبراء إن التنظيم تمكن من تهريب أموال لعدة دول حول الشرق الأوسط باستخدام شركات كواجهة أسسها في العراق مثل تجارة سيارات أو مخازن إلكترونيات أو أدوية أو شركات أخرى.

لذا ومن هذه المعطيات يظهر بشكل واضح مساعي التنظيم للحفاظ على قواه التنظيمية، للبدء بعمليات في مناطق أخرى في حال توفر الأرضية المناسبة.

ولكن... يبقى السؤال:

لماذا يسعى داعش في البداية لحل التحالف الدولي ضده..؟

يبدو واضحاً أن داعش لا يسعى في الوقت الحالي، للظهور كقوة عسكرية مرة أخرى، بل كما وضعنا سابقاً يسعى فقط للحفاظ على قوته التنظيمية، في ظل عدم تمكن القوات التي حاربت التنظيم، في قتل أو القبض على قيادات الصف الأول بشكل كامل.

ويبدو إن التنظيم، يترث فعلياً حتى حلّ التحالف الدولي، ليتمكن من جديد من السيطرة على الأرض، ولكن بمسميات أخرى، أو حتى بانتهاج سياسات أخرى.

أحد مسلحي تنظيم داعش المتواجدين في سوريا قال لصحيفة نيويورك تايمز، عبر تطبيق واتس أب، قائلاً "هل تعتقدون أن امريكا بإمكانها هزمتنا؟ إنها حرب استنزاف، عندما يتوقف التحالف عن الضربات الجوية سنعود للساحة مباشرة، نحن لم نذهب للأبد نحن باقون ولدينا الانتحاريون أيضاً مستعدون لتنفيذ هجمات ومخبرونا نشطون".

وما يحصل فعلياً في مناطق عدة على الحدود السورية العراقية وعلى وجه الخصوص في منطقة البوكمال الخاضعة لسيطرة الحكومة السورية، تؤكد أن خلايا التنظيم لا زالت نشطة.

الخبير هوفمان، قال تعليقاً على رأي المسلح في تنظيم داعش "صراحةً، هناك ما يقارب ربع مليون مقاتل سلفي منتشرون في أنحاء العالم، وهذا يعادل أربعة أضعاف عدد مسلحي تنظيم القاعدة خلال عام ٢٠٠١ عندما أشعلت هجماته على أميركا شرارة حرب دول العالم ضد الإرهاب".

واعترف التحالف الدولي بهذا الأمر بعد أن قالت قيادة التحالف في مارس ٢٠١٩، إن التنظيم ينتظر الوقت المناسب ليعاود الظهور.

وقال الفريق بول لاكميرا، قائد عملية "العزم الصلب" التي يقودها التحالف، في بيان على موقع التحالف، "دعونا لا نرتكب أخطاء، داعش يحتفظ بقوته، لقد اتخذوا قرارات مدروسة للحفاظ على ما تبقى من أعداد مقاتليهم المتناقصة، وهو في انتظار الوقت المناسب لمعاودة الظهور".

إذا فإن التحالف الدولي يدرك جيداً بأن تنظيم داعش ينتظر حل التحالف الدولي للقيام بعمليات أخرى تهدف للسيطرة على الأرض، إذا أن هناك العديد من المناطق التي تهدف داعش للسيطرة عليها وستتطرق إليها في الفقرات القادمة من هذه الدراسة.

التنظيم لا يزال "حياً" وظهور البغدادي دليل على ذلك

ولمعرفة النهج الذي سيتبعه داعش، والسياسة التي من المتوقع أن ينتهجها لا بد من معرفة مضمون ما قاله زعيم تنظيم داعش والتلميحات التي أشار إليها في ظهوره.

فمما لاشك فيه أن ظهور زعيم التنظيم "يعزز الروح المعنوية لدى مقاتليه وأنصاره"، وخاصةً أنه حرص على الظهور بمظهر القوي والواثق من قوة التنظيم حالياً ومستقبلاً.

وظهر واضحاً ان التنظيم هدف من خلال نشر الفيديو لأمر عدة نبرزها لكم على النحو التالي:

أولاً- إبراز الانتشار العالمي لفكر التنظيم

أراد تنظيم داعش، تبيان أن أفكار التنظيم، انتشرت في جميع أنحاء العالم، رغم الخسارات العسكرية التي مني بها في سوريا والعراق، كما ووضح أن التنظيم لا زال بإمكانه الاستمرار في جذب مؤيدين جدد، حيث "رحب" البغدادي خلال الشريط المصور بـ "المنتسبين الجدد"، للتنظيم في مالي وبوركينا فاسو وجمهورية الكونغو الديمقراطية.

ثانياً- تغيير التنظيم لسياسته بعد خسارة الأراضي عسكرياً

أشار البغدادي في شريطه المصور إلى الهجمات التي استهدفت سريلانكا، وأيضاً ملفات عديدة كان يحملها في يده مكتوب عليها، ولاية تركيا، ولاية اليمن وملفات تونس، كما ويدعو البغدادي في الفيديو مناصريه لتكثيف الهجمات ضد من وصفهم بالصليبيين والمرتدين، وظهر واضحاً بأن البغدادي يدعو أتباعه، بتنفيذ عمليات إرهابية على مستوى العالم من خلال توسيع علاقاته مع المتشددين في جميع أنحاء العالم بدلاً من الاستيلاء على الأراضي، ويعتبر هذا النهج مختلفاً عن النهج السابق، حيث يشير التنظيم بأنه سيبدأ بعمليات أكثر دموية من السابق ولكن بعيداً عن السيطرة على الأرض.

ثالثاً: تهديد البلدان العربية التي تشهد نزاعات

ذكر البغدادي خلال شريطه المصور الأحداث التي جرت في السودان والجزائر والتي أدت إلى الإطاحة برئيسي الدولتين، وأثنى على الاحتجاجات، وقال "لا فائدة من اقتلاع جذور النظام السابق، فقد يظهر

طغاة جدد أسوأ من الأنظمة القائمة"، وركز على أن "الجهاد العنيف" هو السبيل الوحيد للمضي قدماً، وهذا التصريح هو تهديد واضح للبلدين حيث يدعو من خلاله أنصاره للبدء بعمليات في البلدين.

رابعاً- التنظيم لا زال متحداً

أراد البغدادي خلال ظهوره أن يؤكد بأن التنظيم لازال متحداً رغم الهزائم التي لحقت به، كما أراد أن يبين بأن التنظيم لازال متماسكاً وقوياً، وقال في التسجيل "على الانصار في سريلانكا وأفريقيا الالتزام بالوحدة في أفعالهم وأفعالهم.

خامساً- التحول إلى "الجهاد" العالمي

إنّ حديث البغدادي حول تنظيمات داعش في إفريقيا، خاصة ليبيا ومالي وغرب إفريقيا، إضافة لمناطق في السعودية وسريلانكا وغيرها من المناطق، تتضمن تأكيداً من البغدادي على العودة إلى مقارنة "الجهاد العالمي"، حسبما أشار إليه الكاتب والخبير الأمني الأردني عمر الرداد.

سادساً- تهديد تركيا

قال أيضاً الكاتب والخبير الأمني الأردني عمر الرداد، الإعلان عن ولاية تركيا التابعة لداعش لم تشكل أية مفاجأة، غير أنّ الإعلان، في حدّ ذاته، يعكس اتجاهاً جديداً بتحول تركيا من ساحة دعم للتنظيم إلى ساحة مستهدفة، وهو ما يعني إمكانية عودة التنظيم لتنفيذ عمليات في تركيا، في ظلّ قناعات بأنّ الرئيس التركي رجب طيب أردوغان استخدم التنظيم بوصفه ورقة، بما يحقق أهدافه، وأنّ أعوام العسل التركية التي تعاطت فيها تركيا مع روسيا وأمريكا في سوريا، قد انتهت، ولا يستبعد الكاتب الأردني أن يكون التنظيم أكثر ضراوة في تركيا.

إذن كيف ستكون سياسة التنظيم بعد هزائمه في سوريا والعراق؟

تقول العديد من التقارير ومن بينها دار الإفتاء المصرية، أن داعش اعتمدت استراتيجية للانسحاب التكتيكي لصالح التمدد في أماكن أخرى والانتشار في مساحات بديلة وتوظيف آليات مغايرة للتجنيد والاستقطاب.

وسيسعى داعش لإنشاء كيانات بديلة، من خلال تشكيل تنظيمات مشاهمة له.

فمما لا شك به أن هناك الآلاف من الفارين من تنظيم داعش، ينتظرون عودة التنظيم أو أفكار التنظيم، ليتبنوا الفكر المتطرف مرة أخرى، فتواجد التحالف الدولي على الأراضي التي كانت خاضعة لسيطرة داعش في السابق يدل بشكل واضح على مخاوف هذه الدول من ظهور التنظيم مرة أخرى.

وبالعودة إلى ماضي التنظيم أثناء تشكله سندرك جيداً بأن تنظيم داعش استخدام الانترنت لاستقطاب أكبر عدد من المتطرفين، إضافة لتوزيع المهام على خلاياه في العديد من دول العالم عبر الانترنت، ويظهر بشكل واضح أن التنظيم تمكن من جذب الآلاف من، كما أنه لا زال مستمراً بنشر افكاره في دول العالم من خلال هذه الوسيلة، لذا فإن القاعدة المتينة للتنظيم لا زالت موجودة وهو ما يدركه التحالف والعالم بأسره بشكل جيد.

ويرى العديد من المسؤولين البارزين أن تنظيم داعش المتطرف، سيتبع سياسة جديدة، وسيبني شبكات مع مجموعات "إرهابية" أخرى.

حيث قال أليكس يونغر، رئيس جهاز الاستخبارات البريطاني قبل أشهر خلال مؤتمر ميونخ للأمن مؤخراً: "الهزيمة العسكرية لتنظيم الدولة لا تمثل تحية للتهديد الإرهابي، نرى التنظيم لهذا السبب يتحول، وينتشر داخل سوريا، بل وخارجها أيضاً. هذا هو الشكل التقليدي لمنظمة إرهابية".

واعترفت وزيرة الدفاع الألمانية، أورسولا فون ديرلاين، في ذات المؤتمر أن تنظيم داعش يتوغل حالياً تحت الأرض، ويبني شبكات مع مجموعات إرهابية أخرى.

كما حذر الجنرال جوزيف فوتيل، الذي يدير القيادة المركزية الأمريكية، من أنه على الرغم من تفكك شبكة تنظيم الدولة، إلا أنه يجب استمرار الضغط، وإلا فإن مكونات التنظيم سيكون لديها "القدرة، على الاتحاد مرة أخرى.

وأشارت BBC في إحدى تقاريرها أن عدد مسلحي تنظيم داعش المتطرف، الذين تفككوا عبر الأراضي، التي سيطر عليها في سوريا والعراق، يتراوح بين ٢٠ ألف إلى ٣٠ ألف مسلح.

إذاً فهذه المعلومات وهذه الأعداد من عناصر مسلحي داعش ستشكل بكل تأكيد خطراً على العالم بأسره.

وفي حال تمكن تنظيم داعش المتطرف من النجاح، في سياسته الجديدة فإنه من غير المستبعد أن يظهر التنظيم مرة أخرى كقوة عسكرية مهيمنة على الأرض وخصوصاً في ظل الاضطرابات التي تشهدها العديد من البلدان العربية والإفريقية.

وهنا يبقى السؤال الأكثر رواجاً..؟

ما هي المناطق التي قد يستهدفها داعش، أو قد تكون الوجهة المقبلة للتنظيم المتطرف؟

أولاً - تونس:

قبل حوالي خمسة أعوام، بدأ ممن يطلقون على انفسهم اسم الجهاديون التونسيون يتدفقون إلى ساحات المعارك في العراق وليبيا وسوريا، كي ينضموا إلى تنظيم داعش وتنظيم القاعدة، أكثر من أي جنسية أخرى. ومنذ ذلك الحين باتت السلطات التونسية تخشى عودتهم، والفوضى المحتملة التي قد تتبع ذلك.

وبدأت داعش والقاعدة في تجنيد جيل جديد من السكان المحليين لشبّه هجمات إرهابية داخل البلاد، حسبما أوردتها صحيفة واشنطن بوست.

وترى العديد من الصحف العالمية وعلى رأسها الصحف الأمريكية أن داعش تهدف للانتقال والتمركز في تونس، وخصوصاً في ظل تواجد عشرات الآلاف من أنصاره في ذلك البلد.

وأوضح تقرير لصحيفة ديلي بيست الأمريكية أن الخسائر التي مُني بها التنظيم في العراق وسوريا إثر الضربات الجوية للتحالف الدولي دفعته للتفكير في التوسع بدول أخرى، أهمها تونس في إفريقيا، على عكس توقعات كثير من المحليين الغربيين، ولفت إلى وجود تيار من التشدد الإسلامي في تونس قد يساعد على ذلك، خاصة أن تونس تُعد من أكبر الدول التي وفرت مقاتلين لتنظيم داعش المتطرف.

ونقل التقرير عن مسؤولين أميركيين أن تونس توفر بيئة ملائمة لتوسع داعش في المستقبل، وقال آرون زيلين من معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى: "توجد عدة دلالات على نية التنظيم الانتقال إلى تونس وإعلان ولاية بها، ويريد التنظيم حالياً التركيز على الزخم والإثارة".

هذا ويمكن تفسير احتمالية انتقال داعش إلى تونس من خلال طرح أسباب عدة نبرزها لكم على النحو التالي:

١- تأثير الفكر المتطرف: تروج تيارات عديدة الأفكار المتطرفة بين الشباب التونسيين، وهو ما يفسّر، إلى حدّ ما، أسباب إنتقال عدد كبير من التونسيين إلى كلّ من سوريا والعراق، للإتحاط في العمليّات العسكرية التي تنشب بين التّنظيمات المتطرفة.

٢- وجود خلايا نائمة: حيث يعتمد التّنظيم في سعيه لتوسيع نطاق نفوذه على مجموعة من الخلايا النائمة التابعة له، وعلى ما يبدو تمكنت الخلايا النائمة للتّنظيم من جذب عدد كبير من التونسيين، حيث أنه كما ذكرنا سابقاً، انضم التونسيين إلى التّنظيم المذكور أكثر من أي جنسية أخرى.

٣- إستغلال الإضطرابات التي تشهدها البلاد: شهدت تونس اضطرابات عدة، وتستمر هذه الاضطرابات حتى الوقت الحالي، وهو ما إعتبرته قيادات تنظيم داعش فرصة يمكن إستغلالها لتصعيد النشاط من جديد، وتعزيز قدرته على نقل بعض عناصره من دول أخرى إلى داخل الأراضي التونسية. إذا فإنه من غير المستبعد أن تكون تونس وجهة مقبلة لتّنظيم داعش المتطرف.

ثانياً- الأردن

تعتبر المملكة الأردنية الهاشمية من بين المناطق المهددة للتعرض لخطر ظهور داعش، أو لخطر أن تكون هي الوجهة المقبلة للتّنظيم المتطرف.

وتحتل الأردن المرتبة الثالثة كأكبر مُصدر للمقاتلين الأجانب إلى تنظيم داعش؛ حيث سافر ما يقدر بنحو ٣٠٠٠ متشدّد أردني للانضمام إلى صفوف تنظيم داعش، مما يثبت أن البلاد عرضة بشدة لموجات عديدة من التطرف.

وهناك عدة أسباب ترجح الكفة في أن تكون الأردن هي الوجهة المقبلة لداعش أبرزها:

١- عودة متطرفين أردنيين من سوريا إلى الأردن

تقول صحف أمريكية أن حوالي ٢٥٠ مسلحاً من تنظيم داعش المتطرف قد عادوا إلى الأردن، وسيكون لدى هؤلاء المقاتلين المجهّزين بأيدولوجية "الدولة الإسلامية"، القدرة على تجنيد وتعبئة السكان المستضعفين بشكل مباشر، أو التأثير فيهم من خلال الوكلاء والعلاقات العائلية".

٢- البطالة والفقر

ذكر تقرير المركز الدولي لدراسات التطرف العنيف لعام ٢٠١٧، أنه يجذب العديد من الأردنيين إلى داعش بسبب البطالة والفقر، لذا فإن قضايا مثل التهميش قد يلعب دوراً مهماً في توجه العديد من الأردنيين إلى التنظيم المتطرف الذي تمكن من التأثير على أفكار العديد من الشبان الأردنيين.

٣- اضطهاد اللاجئين السوريين في مخيمات الأردن

يعيش اللاجئون السوريون حالياً في ظروف قاسية، ويعيشون في مخيمات مكتظة، حيث يتعرضون لمستويات عالية من الجوع والفقر حسب تقرير مجلة ناشينال إنترست الأمريكية للكاتبة إميلي برزي بوروسكي، الباحثة في مجلس السياسة الخارجية الأمريكية في واشنطن، وكل ذلك يعمل كمساهم رئيسي محتمل في التطرف.

٤- مساعي تفكيك داعش في سوريا والعراق ومنعه من التوجه إلى أوروبا

هدف التحالف الدولي بكامل الامكانيات لتفكيك داعش في سوريا والعراق، ومنعه من التوجه إلى الغرب، لذا فإن انتقال التنظيم إلى الأردن قد لا يكون مستبعداً وخصوصاً في ظل الظروف المهيئة التي ذكرناها سابقاً.

ثالثاً- الجنوب الليبي

الظهور الرسمي لداعش في ليبيا كان رسمياً في إعلان البيعة للبغدادي في مدينة درنة الواقعة شرق ليبيا عام ٢٠١٤، ثم أعقب ذلك انتشار للتنظيم في مدينتي بنغازي وسرت وتوالت مقاطع الفيديو التي تنشر عبر مواقع التواصل الاجتماعي أعلنت فيها جماعات تبعتها للتنظيم، وفي مرحلة لاحقة تبنى التنظيم عمليات عدة، أشهرها حادثة ذبح الأقباط المصريين التي أرعبت العالم لبشاعتها.

وتشير في الوقت الحالي تقارير عدة إلى احتمالية تنشيط تنظيم داعش في ليبيا من جديد.

حيث كشفت مصادر عديدة عن أن ظهور تنظيم "داعش"، مؤخراً في جنوب ليبيا، يبعث برسالة خطيرة، خاصة وأنه يتزامن مع ظهور زعيم التنظيم، أبو بكر البغدادي بأيام قليلة.

وبحسب الخبراء والمسؤولين في ليبيا، نقلاً عن سبوتنيك الروسية، فإن التنظيم يسعى للظهور مجدداً في ليبيا في الفترة المقبلة.

ويشكل الجنوب الليبي المكان الملائم الذي يعود فيه داعش إلى تنفيذ استراتيجيته (إدارة التوحش) ليتمكن من بسط سيطرته واكتساب ولاء بعضهم.

وتعادل مساحة الجنوب الليبي مساحة دولة بذاتها ولديه حدود مع خمسة دول تنشط فيها الجماعات المتطرفة.

وهناك العديد من الأسباب التي قد تؤدي إلى ظهور التنظيم بقوة في ليبيا مرة أخرى وعلى وجه الخصوص في مناطق الجنوب الليبي ومن أبرز تلك الأسباب ما يلي:

١- التهميش والتجاهل من قبل السلطات الليبية: أدى تهميش السلطات الليبية لمناطق الجنوب الليبي، إلى ظهور ميليشيات عدة، وممحت الظروف للميليشيات بملء الفراغ، وبالطبع فإن هذا الأمر يشجع التنظيم، لتنظيم صفوفه في تلك المنطقة المهمشة.

٢- الصراعات القبلية: تشهد مناطق الجنوب الليبي والتي تنشط فيها تنظيم داعش من جديد صراعات قبلية، كما تعاني تلك المنطقة من حالة انفلات أمني، نظراً للتهميش السياسي والصراعات القبلية على النفوذ والمصالح.

٣- الجغرافيا المناسبة: يعتبر الجنوب الليبي من أفضل الأماكن المتاحة لتنظيم داعش بسبب الوضع الأمني الهش، وقربه من حدود الدول الأخرى، ما يسمح له بالمناوره والتحرك ووصول الإمدادات البرية والتمويل.

وتعتبر مناطق الجنوب الليبي منفذاً للعديد من البلدان التي تسعى داعش للتوغل فيها، حيث أشارت تقارير دولية أن التنظيم يهدف لإنشاء ما سماه بجيش الفقراء، والذي يتألف من مقاتلين من عدة دول أفريقية أبرزها، (نيجيريا ومالي وتشاد) ويرى التنظيم بأن السيطرة على الجنوب الليبي سيسمح له بتطبيق هذا الأمر.

٤- النقص في امكانيات الجيش الليبي: إن حالة الانقسام السياسي في الداخل الليبي، ونتيجة الأوضاع الأمنية، جعلت داعش تقيم بحسب الشرق الأوسط معسكرات لتدريب مقاتليهم في جبال "الهروج" البعيدة، نظراً لأن رقعة الجنوب واسعة وحجم التحديات أكبر من قدرة الجيش الذي يعاني من النقص في الإمكانيات والتسليح.

٥- الكثافة السكانية: تنظيم داعش، لا ينوي في الوقت الحالي في التوغل ضمن مناطق ذات كثافة سكانية كبيرة، لذا فإن اختياره لمناطق الجنوب في ليبيا، هي الأكثر ترجيحاً، وخصوصاً أن المنطقة لا تقطنها أكثر من نصف مليون نسمة، على الرغم من بلوغ مساحتها لـ ٥٥٠ ألف كم مربع.

لذا ومن هذه الاعتبارات فإن عودة ظهور داعش بقوى ليس مستبعداً وخصوصاً في ظل الظروف التي ذكرناها سابقاً بخصوص الجنوب الليبي.

رابعاً- الصومال

يرى العديد من الخبراء أن الصومال ستكون الوجهة الأكثر أمناً والخيار المفضل الذي يسعى عناصر تنظيم داعش الى الانتقال إليه والاختباء بعيداً عن العيون والملاحقة.

ويتواجد التنظيم في الصومال بقوة، لكن خبراء يرون أن الصومال ستصبح الوجهة الأكثر أمناً بالنسبة لعناصر التنظيم، ومن أبرز الأسباب التي قد تدفع التنظيم بالتوجه إلى الصومال ما يلي:

١- الجغرافيا

تمتاز الصومال بموقعها الجغرافي وسواحلها الواسعة بالإضافة الى تضاريسها التي تمتاز بالصعوبة والتعقيد مما يصعب الوصول إلى عناصر التنظيم في حالة الاختفاء، كما وتقع تلك المنطقة بالقرب من خليج عدن والمحيط الهندي والحدود البحرية مع اليمن.

٢- حركة السفن:

لا تستبعد الأجهزة الأمنية من تحويل الصومال إلى قاعدة خفية لاستعادة التنظيم صفوفه والقيام بسلسلة هجمات انتقامية تطال حركة السفن التجارية والشحن في خليج عدن والانتقال الى اليمن.

خامساً: الهند (ولاية كشمير)

أفادت وكالة رويترز في ١٠ أيار ٢٠١٩ بأن تنظيم داعش أعلن لأول مرة أنه أقام "ولاية" في الهند، بعد اشتباك بين مسلحين وقوات الأمن في منطقة كشمير المتنازع عليها أسفر عن مقتل إرهابي له صلات بداعش.

وأعلنت وكالة "أعماق" الإخبارية التابعة لداعش عن الولاية الجديدة، التي أطلق عليها "ولاية الهند"، في بيان زعم فيه أن داعش ألحق خسائر في الأرواح بجنود من الجيش الهندي في بلدة أمشيورا في مقاطعة شوبيان بكشمير.

ومحسب رويترز فإن بيان داعش يتوافق مع بيان للشرطة الهندية يوم الجمعة بأن إرهابياً يدعى إشفاق أحمد صوفي قتل في مواجهة في شوبيان.

ووفقاً لتقارير وسائل إعلام محلية، كان إشفاق قيادياً في تنظيم داعش في جامو وكشمير، وكان مساعداً مقرب من أحد أكثر المطلوبين ويدعى زاكير موسى.

وخاض انفصاليون صراعاً مسلحاً على مدى عقود ضد الحكم الهندي لإقليم كشمير الذي يغلب على سكانه المسلمون. وتسعى غالبية هذه الجماعات إلى استقلال كشمير أو انضمامه إلى باكستان الخصم اللدود للهند.

ويبدو أن هذه الأوضاع قد تعزز من قدرة التنظيم المتطرف في الظهور بقوة في تلك المنطقة.

مناطق أخرى قد تكون وجهة مقبلة لداعش:

وعلى خلاف ذلك تتحدث مصادر عدة أنه يمكن أن تكون مالي أو نيجيريا هي الوجهة المقبلة للتنظيم المتطرف، كما أشار محللون آخرون على أن تكون جبهة الحدود الباكستانية-الإيرانية هي الوجهة المقبلة.

كما وتطرق زعيم التنظيم، أبو بكر البغدادي في تسجيله المصور، إلى الجزائر والسودان، حيث أثنى على الاحتجاجات، التي جرت في البلدين وقال كما ذكرنا سابقاً "لا فائدة من اقتلاع جذور النظام السابق، فقد يظهر طغاة جدد أسوأ من الأنظمة القائمة"، وركز على أن "الجهاد العنيف" هو السبيل الوحيد للمضي قدماً، وهذا التصريح هو تهديد واضح للبلدين حيث يدعو من خلاله أنصاره للبدء بعمليات في البلدين.

كل هذه التحليلات هي آراء ووقائع، لكن من المؤكد أن لا شيء يأتي عن عبث وكل هذه المناطق التي ذكرناها، قد تكون وجهة مقبلة لعناصر تنظيم داعش.

تهديد أوروبا

من الواضح أنه وبعد شرح سياسة التنظيم وبعد ظهور زعيمها أبو بكر البغدادي، قد تبين بشكل واضح أن استهداف أوروبا هي من أهم الأهداف التي تسعى إليها تنظيم داعش.

وأظهرت تقارير صحافية أن تنظيم داعش يخطط لهجمات في أوروبا عبر مجموعاته "النائمة" في تلك البلدان، والتي يطلق عليها اسم "خلايا التماسح".

وقالت صحيفة الصندي تايمز البريطانية إنها اطلعت على وثائق في أقرص مدججة كانت لمتشددين من داعش، تظهر نية التنظيم التخطيط لمزيد من الهجمات في أوروبا، من خلال دعم أعضائه الموجودين هناك ضمن "خلايا التماسح".

وورد أن الوثائق هي من جزء من مخلفات معارك دارت بين قوات سورية الديمقراطية (قسد) المدعومة أميركياً وعناصر داعش في شباط/ فبراير ٢٠١٩ في الباغوز شرق سوريا.

ووصفت الصحيفة ما جاء في الوثائق من خطط بأنها "تقشع لها الأبدان"، وتضمنت أسماء المئات من مسلحي التنظيم وميزانياتهم، بالإضافة إلى مراسلاتهم التي عكست وجود نظام بيروقراطي داخل التنظيم.

لذا فإن خطر داعش على أوروبا أصبح في ذروته، بعد القضاء على التنظيم عسكرياً، حيث تؤكد دول عدة أن التنظيم سيتوجه إلى حرب العصابات، والبدء بسلسلة هجمات دموية كما حصل في سريلانكا.

فقد ذكرت تقارير استخباراتية أوروبية، مطلع عام ٢٠١٨ عن احتمال عودة حوالي (١٠٠٠) عنصر من تنظيم داعش إلى أوروبا، وهو ما يشكل خطراً حقيقياً على أمن وسلامة دول أوروبا، وكشف تقرير صادر عن "فرونتكس" أن التهديد في تصاعد ويتطور من يوم لآخر، ومن الصعب حالياً تقييم التهديد، وأكدت فرونتكس ما يقدر بنحو (٣٠%) من ٥٠٠٠ مقاتل عاد إلى أوروبا، قادمين من سوريا والعراق وليبيا.

كما وحذرت منظمة الشرطة الجنائية الدولية "الإنتربول"، دول أوروبا من مغبة تعرض عدة بلدان أوروبية لموجة هجمات إرهابية جديدة يقودها تنظيم داعش.

لذا فإن اعتماد تنظيم داعش على خلايا تم تنظيمها من داخل أوروبا، يعني أن التنظيم يلقي بثقله على تنفيذ عمليات إرهابية في أوروبا وينوي كما ذكرنا سابقاً للبدء بسلسلة هجمات إرهابية

ويقول الكاتب جاسم محمد، في شبكة رؤية الاخبارية أن هنالك ترابطاً في شبكات عمل بعض الدول الأوروبية التي تعمل لصالح تنظيم داعش.

ويتابع بأن فصلاً جديداً في أوروبا بتنفيذ عمليات انتحارية، سيبدأ في أوروبا على غرار هجمات الذئاب المنفردة.

الخلاصة

في الختام ومن خلال تقديم جميع هذه المعلومات نلاحظ، بأن داعش لا يزال قادراً على القيام بهجمات عدة كما يقال بأنه قد يكون قادراً في السيطرة على الأرض وخصوصاً في البلدان التي ذكرناها، كتونس، الأردن، ليبيا (مناطق الجنوب)، الصومال، والهند (كشمير).

وعلى ما يبدو فإن العالم أمام اختبار أكبر في مواجهة تنظيم داعش، الذي تمكن من نشر أفكاره المتطرفة في معظم أنحاء العالم، كما لوحظ بأن ظهور زعيم تنظيم داعش كان له دلالات عدة، ألا وهو بأن التنظيم "حيّ يرزق" وأن بإمكانه القيام بسلسلة عمليات "انتقامية" بعد خسائره في سوريا والعراق.

ونستطيع أن نشير في الوقت الحالي بأن التنظيم لا ينوي الظهور مرة أخرى كقوى عسكرية على المدى القريب، وهو ينتظر حل التحالف الدولي لمعاودة الظهور والسيطرة على الأرض وسيكتفي في الوقت الحالي بشن سلسلة هجمات قد تطل العديد من بلدان العالم.

المراجع

أبو بكر البغدادي: الظهور الأخير هل هو "إعلان وفاة دولة الخلافة" أم "انطلاقة مرحلة جديدة"؟ bbc

داعش يحاول تصعيد نشاطه في تونس: [lahdh](#)

تونسيون في داعش دراسة جديدة تجيب عن سؤال من هم وكيف التحقوا بالتنظيم: جيل القاعدة أصل
الحكاية: lemaghreb

سبوتنيك الروسية: خبير عسكري: "داعش" سينتهي في سوريا وقد ينتقل إلى ساحات ملتهبة أخرى

ميدل إيست: هل تكون الصومال الوجهة الأكثر أمناً لعناصر تنظيم داعش بعد سوريا

موقع: NAS "داعش" يعتمد إستراتيجية جديدة.. البغدادي بلا قيمة؟

قناة العالم: معلومات صادمة تحلل فيديو البغدادي وتحدد مكانه بالصور

رأي اليوم: ظهور البغدادي المفاجئ يُؤكّد نهاية مرحلة إرهابية وبداية أخرى أكثر حُطورةً وُزَعْبًا وخطأً كل
الحسابات الغريبة

عربي ٢١: ظهور اسم اليمن ضمن تسجيل زعيم داعش الأخير.. ما هي نواياه؟

التحرير: هل يصبح الأردن الوجهة المقبلة لمقاتلي «داعش»؟

BBC أبو بكر البغدادي: الظهور الأخير هل هو "إعلان وفاة دولة الخلافة" أم "انطلاقة لمرحلة جديدة"؟

رويترز: تنظيم الدولة الإسلامية يعلن قيام "ولاية" الهند بعد اشتباك بكشمير

الحرّة: سقوط داعش أسئلة وأجوبة

آدار برس: التحالف: داعش ينتظر الوقت المناسب ليعاود الظهور

شبكة رؤية الاخبارية: بعد هزيمة داعش .. هل تواجه أوروبا موجة جديدة من هجمات الذئاب المنفردة؟

الشرق الأوسط: «داعش» يتمدد في جنوب ليبيا

الخليج أونلاين: ناشينال إنترست: الأردن حضن "داعش" الآمن

المركز العربي للبحوث والدراسات

العربية: صحيفة أميركية: تونس الوجهة القادمة لـ"داعش"

الربيع العربي ما بين الثورة والثورة المضادة

جنار صالح - باحثة في مركز الفرات للدراسات

شهد العالم العربي موجة من الاحتجاجات التي بدأت منذ أواخر عام ٢٠١٠، واختلف الكثيرون في تسميتها، وكل اسمها بحسب منظوره الأيديولوجي أو انتمائه السياسي، والمفارقة الغربية هنا أنه لم يتفق تياران أو جهتان على تسمية هذا الحراك بالاسم نفسه، فمنهم من أطلق عليها تسمية الثورة، والبعض بالانتفاضة، وآخرون بالحراك، ومنهم من أسماها بالأزمة، ورُكِّز قسم على تسميتها بالمؤامرة.

الأسباب التي أدت إلى ظهور الاحتجاجات

تعيش المنطقة، منذ بدايات القرن العشرين وإلى يومنا هذا، في ظل نظم مسماة بـ "الدول الحديثة"، وقد اكتسبت ملامحها - تقليداً - عن دول أوروبا ما بعد ثورة التنوير، ولكن لم تُحك هذه النظم النسخة الأصلية، بسبب عمق وأصالة مفهوم السلطة، والتسلط، المتجذرة بعمق في واقع هذه المنطقة التي تعد النبع الأم لهذا المفهوم.

بالرغم من توجه الكثير من دول منطقة الشرق الأوسط صوب بناء نموذج الجمهوريات، التي تحمل صفة منح الشعب نوع من حق اختيار السلطة، فالجانب الأهم والمخالف للنظم السابقة لها، هو قيامها بعملية الانتخابات كتوجه ديمقراطي لملء الفراغات الوظيفية في بنية الدولة، ولكن الحقيقة أن هذه العملية لم تتجاوز حدود الشكلية، وقوائم الظل، ولم نصادف تغيير حكومة منذ بدايات قرن العشرين وإلى اليوم عن طريق هذه العملية، وإن تمّ تغيير حكومة ما، فسيكون عبر انقلابات دموية على الأرجح؛ إذ كانت الانقلابات الوسيلة الوحيدة لتغيير الحكومات أو الأشخاص، ولكنها خلال الأربعة عقود الأخيرة من القرن الماضي لم تعد أيضاً تجدي نفعاً كمحاولة للتغيير، وقد التصق كل رؤساء هذه "الجمهوريات" بالكرسي، "كرسي السلطة"، عن طريق القيام بتعديلات دستورية تضمن بقاءهم المديد في الحكم، وضمان بقائها في سلالتهم، والحال هذه لا يمكن الادّعاء بوجود النظام الجمهوري بأبسط معاييرهِ في الشرق الأوسط.

مع مرور الوقت يتحول هذا النمط من الدولة من نظام سياسي وإداري إلى نظام يعتمد بشكل مفرط على النظام الاستخباراتي، أي تتحول إلى دولة بوليسية، فالمؤسسات الأكثر فاعلية في مثل هذه الدول هي

المؤسسات الاستخباراتية التي يكون مهامها حماية الرئيس والحفنة التي من حوله، على اعتبارهم مواطنين من الدرجة الأولى، وبذلك يتم تضيق الخناق بشكل محكم على الحريات الفردية والاجتماعية والسياسية، وحتى الاقتصادية. والدولة التي ضحى ابناؤها من أجل بنائها الذين اعتقدوا أنها ستجلب لهم مساحة من الحرية، والعدالة، والمساواة، تتحول الى كابوس يقضي على آمالهم هذه.

تحت اسم المساواة أمام القانون، فرضوا نمطية تخالف طبيعة الإنسان الطامحة إلى التنوع والتباين والاختلاف، وجعلوا من الاختلاف- إن كان اختلافاً دينياً أو إثنياً أو قومياً- أخطر أنواع التهديدات التي تواجه هذا النموذج من الدولة، وبنوا للمخالف والخارج عن السياق المرسوم له من قبل الدولة سجون لتأديب من بداخلها، ومن هم خارجها أيضاً، وبذلك أصبحت الدولة سجناً لشعوبها بالمجمل.

إن الاستغلال الاقتصادي الذي يقوم به من هم في السلطة، والحاشية المحيطة بهم، تحت مسمى "المال العام" أو أملاك الدولة"، أدت إلى القضاء على نسبة واسعة من الطبقة الوسطى، وتشكلت طبقتين متميزتين تماماً، هما الطبقة الغنية محدودة العدد، وطبقة فقيرة واسعة، وأنتجت جموع هائلة من العاطلين عن العمل والجياع.

رغم أن هذا النمط من الدولة حاول جاهداً القضاء على الديناميكيات الداخلية (الشبيبية، والمرأة، والطبقات الفقيرة المسحوقة، والأرياف، والأقليات الدينية والعرقية، وغيرها)، وجعلها في حالة من الخمول والضعف، إلا أن أحداث الربيع العربي أثبتت حيوية هذه الديناميكيات.

إن هذه الأسباب مجتمعة أدت إلى نتيجة مفادها التمرد والعصيان داخلياً، والخروج إلى الساحات، ورفع شعارات الثورة، والمطالبة بإسقاط النظام.

هل يمكن اعتبار هذا التمرد ثورة؟

للإجابة على هذا السؤال لا بد من تعريف الثورة.

الثورة في الدلالة اللغوية

تختلف معاني كلمة الثورة من لغة إلى أخرى، ففي الإنكليزية هي: Revolution بمعنى ثورة أو تمرد، أو الإطاحة بنظام الحكم). وفي اللغة التركية "دفرم Devrim" تأتي بمعنى الانقلاب، وكذلك في اللغة الفارسية،

أما في اللغة الكردية "şores" فتأتي بمعنى الضد. وجاءت في اللغة العربية بمعنى ثار ثوراناً؛ أي هاج وغضب.

الثورة اصطلاحاً

تُعرّف الثورة في الاصطلاح السياسي بأنها تغيير أساسي في الأوضاع السياسية والاجتماعية؛ يقوم به الشعب في دولة ما، وقد عرّف الكثيرون مصطلح "الثورة" بأنها حالة انتقال التراكبات الكمية إلى التغييرات النوعية، عند بلوغها المعيار اللازم.

وقد قال في هذا الصدد المفكر أوجلان "تتكون الخصائص الديالكتيكية في التحولات الاجتماعية على أساس القوانين والشرائع، والمتغيرات المبتدئة كتراكبات كمية خلال مدة طويلة من الزمن، تنفجر بشكل أسرع ومغاير في مرحلة نوعية أثناء مساعدة الظروف الداخلية والخارجية لذلك، أو كضرورة من ضروراتها".

أشكال الثورة

للثورات أشكال وأنواع كثيرة، تحددها التناقضات الأساسية الموجودة حينها، وتكمن اختلافاتها بحسب أهدافها، منها مثلاً، ثورة الحرية ضد الجنسية في المجتمع الذكوري؛ التي تحمل صفة الديمومة في الكفاح، وتهدف إلى إزالة الفوارق والتمييز بين الجنسين، وطابع هذه الثورة هي أنها تحمل دلالات التغيير والتطور التدريجي. وكذلك الثورات الثقافية، والثورة المعلوماتية التي حصلت في العلم والتكنولوجيا. وكانت الثورات الطبقية، في بدايات القرن العشرين، الأكثر حيوية في مرحلة ما؛ إضافة إلى ظهور ثورات تحت اسم حركات التحرر الوطنية، التي استمرت حتى سبعينيات القرن العشرين تقريباً.

من خلال هذا العرض المبسط لأشكال الثورة نصل الى نتيجة مفادها أنه ليس بالضرورة أن يكون مصطلح "الثورة" رديفاً للعنف والتسلح، وأن ما يحدد استخدامات الثورة هو الديالكتيك (قانون التطور) المتبع حينها. في حين أن الثورات التي اتخذت الماركسية نهجاً لها، وتبنّت ديالكتيكيتها، كانت على الأرجح الأكثر دموية، إثر تبنّيها الكفاح المسلح كسبيل للوصول إلى النصر، وعدّ العنف الثوري "القابلة القانونية" لولادة جديدة، وذلك لوجود قانون "نفي النفي" في الديالكتيك الماركسي، الذي كان السبب وراء تبنى الثورات العنيفة - في حقبة من الزمن - كمحاولة للقضاء كلياً على القديم، وإحلال الجديد محله.

هناك ديالكتيك آخر للتطور يسمى بـ "ديالكتيك هيغل" أو "الجدل الهيغلي" نسبة إلى الفيلسوف الألماني هيغل، المعروف بـ "مؤسس الديالكتيك"، وهو القانون الذي اعتمده هيغل في التطور وفق الصيغة التالية: (الطرح + الطرح المضاد = تركيبة جديدة)، فالطرح هو الموجودات القائمة، أما الطرح المضاد فيقصد به كل ما هو جديد (إن كانت فكرة جديدة أو فلسفة جديدة أو نهج جديد أو نظام سياسي إداري جديد أو قيم جديدة..)، والصيغة الـ "+" تأتي بمعنى الصراع بين الطرح والطرح المضاد، أي بين القديم والجديد (البديل)، وهذا الصراع سيفضي إلى تركيبة جديدة (نظام جديد)، ودائماً يكون الطابع الطاغي للتركيبة الجديدة هو الطابع البديل، أي طابع الطرح المضاد. ولكن هذا لا ينفي وجود القديم، حتى وإن كان وجوده ضعيفاً في أحشاء التركيبة الجديدة، وهذه المعادلة تلغي عملية الإنكار والنفي الكامل للقديم بوسيلة العنف، وبالتالي تفتح الطريق للقيام بثورات مستدامة تهدف إلى التغيير الشامل في بنية النظم السياسية والاجتماعية؛ فمثلاً: (كانت انطلاقة ابراهيم الخليل بمثابة طرح مضاد للطرح القديم المتمثل في ألوهية الإنسان وعبادة الأصنام، فحافظ على مصطلح الله، ولكنه قدّم البديل في تعريفه لله، وطرح فكرة النبوة كبديل للقديم (ألوهية الإنسان)، وبذلك خلق قيم جديدة وأطروحات جديدة).

مما سلف، كيف يمكننا تقييم "الربيع العربي"؟

بدأت احتجاجات الربيع العربي من الشرارة التي أطلقها محمد البوعزيزي التونسي في ١٧ كانون الأول ٢٠١٠ للإعلان عن التمرد والعصيان أمام النظم الديكتاتورية في الشرق الأوسط، وحرق خيوط اللجم التي أبكمت أفواه الشعوب المسحوقة منذ ما يقارب الأربعة عقود. لقد كانت صرخة البوعزيزي صرخة المظلوم ضد الظلم، وصرخة الجياع ضد البطون المتخمة من كدح هؤلاء البسطاء، وأطاحت برؤوس لم تتخيّل هذا المصير يوماً.

كانت الظروف والشروط مهيأة لتتحول هذه الصرخة إلى ثورة، فقد كانت الدول المسماة بـ "الدول القومية"، ومنذ تشكيلها، تحاول جاهدة، عن طريق الإكثار من الشعارات "الوطنية"، خلق اندماج وتوحيد كامل بين الشعب والدولة، حيث عدت الشعب جزء لا يتجزأ منها، وهذه المحاولة بالذات تسمى بفاشية الدولة، وكان الهدف منها التحكم بالشعب وضبطه، مما أدى إلى خلق ثنائية "الراع-الرعاع"، فالسلطة هي الراعي (الفاعل أو الذات العاقلة)، أما المجتمع بأكمله تحول إلى قطع، أي (مفعول به)، وكان، على الأرجح، يقبل بهذه الثنائية ويصنفها تحت يافطة "المبادئ الوطنية"، لأنه كان يعد حماية الدولة هي حماية الوطن،

ولكن مع مرور الوقت أو ما يسمى بصيرورة السياق التاريخي للتطور، فقد تعرضت هذه الثنائية الى شرح كبير، حيث بدأ "القطيع" ينفذ عن نفسه غبار السنين، ويسأل عن معنى وجوده، وماهية حقه في الحياة. إن الدول بالمجمل، والدولة القومية بشكل خاص، لا تحمل صفة التطور والتغيير الطبيعي المستديم، فقد ظلت بالسياق نفسه الذي تشكلت عليه، وبالتالي تحولت في فترة وجيزة إلى أنظمة محافظة لا تواكب العصر، وقد كانت قريبة إلى الشريحة المحافظة، وبعيدة كل البعد عن طموح ورؤى وخيارات الشريحة الشابة، مما أدى الى كتم أنفاس هذا الجيل في ظل هذه النظم، فهذه الشريحة ستتحول إلى ديناميكية داخلية مهمة في مثل هذه الظروف، وهي تحمل طاقة متدفقة نحو التغيير والتجديد؛ لا سيما بعد انفتاح هذا الجيل على العالم وتجاربه، عن طريق شبكات ووسائل التواصل الاجتماعي، والانترنت.

الطرف الآخر المهم كان في التطور الحاصل في ذهنية أكبر شريحة اجتماعية، والتي كانت راضية، أو على أقل تقدير، لا تجد مفرّاً من عبوديتها، فتقبلها كحالة "طبيعية" مفروضة عليها، فقد بدأت تشك في وضعها هذا، وبدأت تحقق فيه؛ لا سيما بعد تطور الوعي الجنسوي (ادراك المرأة لذاتها)، فبدأت تعلن عن طموحها في الحرية والمساواة والعدالة، ورفض القوانين الجائرة بحقها، وخاصة قوانين الأحوال المدنية. وأمام هذه التغييرات الحاصلة في هذه الشريحة، كان عدم فتح المجال لها للتعبير عن نفسها، وعدم خلق التعديلات والإصلاحات المطلوبة في النظام، وفي العادات والتقاليد، كأن تحجز تدفق السيل الجارف، مما يجعل انفجاره هائلاً.

"الضغط يولد الانفجار" مقولة دراجة ومرشدة للممسكين بدفة الحكم، ولكن، مع الأسف، فقد نساها أو تناساها كل رؤساء المنطقة، وقد عانت المجتمعات، في ظل هذه النماذج من الدولة، من حالات الضغط المتعدد، نتيجة غياب الحريات؛ إذ أن حرية التعبير كانت إشكالية جدية؛ إضافة إلى انعدام أو ضعف حرية الصحافة..... الخ

الاشكاليات التي حالت دون الوصول الى مستوى الثورة

ما هو متفق عليه حيال انطلاقة الربيع العربي، هو أنها كانت انطلاقة عفوية، رافضة للواقع المليء بالمآسي، وكانت انطلاقة غضب وتمرد، ومن دون أية تحضيرات مسبقة لها، فلم تمتلك توجيهات صائبة، ولم تمتلك قوة منظمة وطليلية تتحكم في مجريات الأحداث وسيرها، ولذلك كانت عشوائية، وتفتقر إلى التخطيط والبرنامج. وهذه الفوضى لها أبعاد وأسباب، حيث أن الدولة لم تمنح المجتمع يوماً حق حرية التنظيم، وكل

من حاول ذلك كان يُعدّ خارجاً عن القانون، وكان ممنوعاً منعاً باتاً على الفئات والشرائح أن تنظم نفسها خارج إطار الدولة، وبذلك أحكمت الدولة قبضتها على المجتمع وحرياته.

إن إحدى إشكاليات الربيع العربي كان في عدم وجود الطليعة التي تأخذ زمام المبادرة بيدها، وتوجّه هذه القوة المتدفقة نحو السبيل المؤدي الى النجاح.

من المقصود بالطليعة..؟

١- المثقف:

كل الثورات تقوم بتهيئتها الشريحة المثقفة، فمثلاً، إنّ من هيا الارضية لثورة أكتوبر ١٩١٧ كانوا المثقفون الروس، وكذلك أدى المثقفون والمتنورون الدور الأساسي في ثورة التنوير الأوروبية.

فما هو دور المثقف في الربيع العربي؟

لم يلاحظ أي دور يذكر للمثقف في أحداث الربيع العربي؛ لا سيما أن وظيفة المثقف الحقيقي هي إنشاء نظرية منبثقة من آلام الواقع، وتحديد المخرجات لإيصال نهضة المجتمع الى الهدف المنشود؛ فضلاً عن مهامه وواجباته في تهيئة مخيطة المجتمع حول النظام البديل الذي يطمحون إليه، نظرياً وتصويرياً على أقل تقدير، فالنظم تبدأ بالانحيار حين تفقد مصداقيتها في أذهان الناس، فإن عملية إنشاء نظام جديد أيضاً يبدأ- بالضرورة- من النقطة نفسها. ولكن ما ظهر بشكل واضح هو أن المثقف في المنطقة يعيش ازدواجية صريحة بين ما يطرحه قلمه، وما يعيشه في حياته اليومية، فكان أقرب من النوع الذي جاء وصفه في القرآن الكريم "كَمَثَلِ الْخِمَارِ يَجْمَلُ أَسْفَارًا"، فهو لديه تراكم معرفي ومعلوماتي لا يستهان به، لكنها مقتبسة ومكتسبة من الخارج؛ إذ أنه يستفيد من الكتب، ومن وسائل الإعلام، ومن الانترنت، ولكنه قلماً يضيف شيئاً من ذاته الى تلك المعارف، أضف إلى ذلك تأثره بـ "المنهاج" الذي صنع منه فرداً أنانياً غايته في الحياة الركض وراء الريح الأعظمي، فقد سخر أغلب مثقفي المنطقة قلمهم لجلب المال وجعلوه فقط، مصدراً للرزق، في حين إننا لن نجد في التاريخ مثقفاً حقيقياً مات وهو على جانب من الثراء، بدءاً من جان جاك روسو، وصولاً إلى فيكتور هيجو، فنجيب محفوظ، وغيرهم. فالمثقف هو الذي يتحلّى بروح المسؤولية تجاه مآسي مجتمعه؛ لا سيما في المراحل المفصلية، وفترة الأزمات، ويكون مكافحاً في سبيله، كمنصور الحلّاج، وجوردانو برونو،

وغيرهم. في حين أن دور المثقفين العرب، الذين اتخذوا من الحياد موقفاً لهم - على حد زعمهم - كان سلبياً في أحداث الربيع العربي.

٢ - دور الأحزاب السياسية في الربيع العربي

يُعرف الحزب السياسي على أنه: "مجموعة أفراد منظمين في هيكلية تنظيمية، ويتقاسمون الأيديولوجيا عينها، ويجادلون للوصول إلى السلطة".

إن ظهور الأحزاب السياسية تزامن والعصور الحديثة على الأرجح، فتشابهت، من الناحية التنظيمية، مع هيكلية الدولة القومية وهرميتها، وباتت كنموذج مصغر عنها، فقد فقدت الدولة القومية جاذبيتها بين المجتمع في الوضع الراهن، حيث أن المجتمع لم يعد يبالي بقومية الدولة أو بدولة القومية، بقدر ما يهيمه مستوى الحرية ومساحتها المتاحة له، كما أنه يبحث عن العدالة والأمن والاستقرار أكثر من أي شيء آخر. وكذلك فإن الأحزاب السياسية أيضاً، الكلاسيكية بمعظمها، لا تواكب العصر بأيديولوجيتها، وأهدافها، ونظامها الداخلي، وهيكليتها التنظيمية، فقد بدأت بفقدان شعبيتها، ودورها الريادي، حيث لم تعد تمثل آمال الناس وتطلعاتهم في الحرية والمساواة، أياً كانت شعاراتها وأهدافها المعلنة، وبمعنى آخر فقد أفلست كل أشكال الأحزاب السياسية في رايها، ولذلك لم يلاحظ أي دور للأحزاب السياسية في أحداث الربيع العربي، فالأحزاب السياسية في الشرق الأوسط بشكل عام، والعالم العربي بشكل خاص، لم ترتق إلى مستوى الحزب بمقاييسها المعلومة أو المتفق عليها عالمياً، وهي مجرد كتلة من المتناقضات؛ فاسمها لم يعبر يوماً عن حقيقتها، وخير مثال على ذلك حزب البعث العربي الاشتراكي، وشعاره "وحدة وحرية واشتراكية"، فأين حزب البعث من هذه الشعارات الرنانة الجوفاء، أو اسم الحزب الشيوعي الذي يدعى اليسارية وهو شوفيني المنبت، وأكثر الأحزاب تعصباً للقومية. وعليه، فإن الأحزاب السياسية لم تكن مهياً لتقود مجريات الأحداث.

لا بد هنا من الإشارة إلى نقطة أخرى مهمة في هذا السياق، وهو أن الصراع على السلطة مرض مستفحل ومزمن في المنطقة، ولذلك فإن الأحزاب الحاكمة لم تعط للشعوب فرصة كي تنظم نفسها بالطريقة والتنظيم الذي تراه مناسباً لها خارج حدود الأحزاب الحاكمة، ومن هنا فإن البلدان التي عاشت أحداث الربيع العربي لم يتطور فيها شيء باسم المعارضة، حيث كان هدفها فقط تغيير الأسماء والشخصيات في أعلى الهرم ليحلوا محلها، وكان هذا من سوء حظ شعوب منطقة الربيع العربي، فقد كانت معارضاتهم أسوأ طرحاً، وأكثر فساداً من الحكومات نفسها، بمعنى أنهم كانوا وجهين لعملة واحدة.

دور المرأة في الربيع العربي

شاركت المرأة في الربيع العربي بشكل فعال، وكان لها دور بارز في مناهضة انعدام الحريات والتمييز بكافة أشكاله، ابتداءً من ثورة الياسمين، عندما تسلقت إحداهن على أكتاف رجلين ونادت بالحرية. ثم المقولة الشهيرة التي أطلقتها إحدى المشاركات من ساحة التحرير عندما قالت: "المكان الذي يوجد فيه الحرية يوجد فيه الأخلاق"، وربطت بحكمة بالغة ما بين الحرية والأخلاق. ومؤخراً فقد شاركت المرأة الجزائرية والسودانية الاحتجاجات، حيث اعتلت آلاء صالح منصبها، وحازت على لقب "ايقونة الثورة"، وقادت التمرد السوداني على ديكتاتورية عمر البشير.

"الثورة إذا لم تؤنث، لا يُعوّل عليها، ولكن ذلك ينطبق فقط على المراحل الخمسة الأولى (الظلم، الاحتقان، التظاهر، الانفجار، التغيير)، ولا يشترط أن يصير للمرأة دور حيوي في الأطوار التالية على ذلك"، وهذا على حد تعبير أحد المثقفين العرب. وهو السبب الرئيس في عدم وصول الربيع العربي إلى مستوى ثورة عصرية متكاملة، فالثورة التي لم تضع في جدول أهدافها الرئيسية حرية المرأة لا تعد ثورة بالأساس، ولا يكتب لها حظ الوصول إلى الأهداف الأخرى التي سعت لتحقيقها، فحرية المرأة هي أساس جميع الحريات؛ إذ أن جميع الأمراض المتمحورة حول السلطة، من (الاستغلال، وانعدام الحريات، وإنكار الآخر ورفضه، وانعدام الديمقراطية كثقافة، وكشكل من أشكال الإدارة، وثقافة الاغتصاب، المشاكل البيئية، والسياسية، ومشاكل الاقليات الثقافية، والعقائدية، والقومية... الخ)، هذه القضايا بالمجمل ظهرت مع تطور مفهوم السلطة، التي بدأت تاريخياً من تطور مفهوم السلطة الذكورية، التي أصبحت أساس جميع أنواع السلطات، إن كانت السياسية أو الدينية أو سلطة المال.

حين دخل الرجل دار المرأة ليصبح الرب، وتربع على جميع قيمها المادية والمعنوية، خسرت المرأة وجودها كفاعلة في جميع مناحي الحياة، وخسرت معها الإنسانية جمعاء. وانطلاقاً من مقولة: "إن فقدت شيئاً في مكان ما، فلعليك أن تبحث عنه في المكان عينه"، فالطامح إلى الحرية، سواءً أكانت اجتماعية أو سياسية أو فردية، لا بد أن يهدف، قبل كل شيء، إلى حرية المرأة؛ لأن حريتها هي حرية المجتمع، وهذا لا يعني إعطاؤها مجال المشاركة في المراحل الأولى من الحراك أو الثورة فقط، بل ينبغي منحها حق المشاركة الفعالة مناصفة في المراحل التالية للحراك؛ لا سيما مشاركتها الفعالة في مراكز القرار، وفي الساحة السياسية، وهذا ما افتقده الربيع العربي، وهو أحد أهم أسباب عدم وصول الاحتجاجات إلى مستوى الثورة.

الثورة المضادة

يمكن تسميتها بتوأم الثورة، فهي تظهر تزامناً مع الثورة، وتتخفى بلباسها، إنها تشبه الفيروس الذي يختبئ بين الخلايا الصحية، ومن ثم يبدأ بنخر الخلايا السليمة، فهذه العناصر تستفيد من الخلل الذي تحدثه الثورة، وتوهم الشعب بحقيقتها، فيؤدي بالشعب إلى الخلط ما بين المسار الصحيح للثورة والمضاد له؛ إذ أنها تحمل أهدافاً تختلف كلياً عن تلك التي ينادي بها الثوار، وتعمل جاهدة لتحريف الثورة عن مسارها وأهدافها الحقيقية. وخير مثال على ذلك، هو ما حدث في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وهي عبرة يجب الاستفادة منها جيداً، فشعارات الثورة الفرنسية كانت واضحة جداً، وهي: الحرية، المساواة، العدالة، والأخوة، حيث أشار المفكر أوجلان في هذا السياق إلى مسألة مهمة وهي، لو أن الثورة الفرنسية انتهت مثلما بدأت لغيرت وجهة العالم، ولم تكن لتعطي الفرصة لولادة النظام العالمي، ولكن ظهور حركة أو ما يسمى بنايدي البعاقبة، والتفافه على الثورة، غير مسار الثورة بشكل كلي، فقد تم ضرب أعناق الثوار الحقيقيين بالمقصلة، وبذلك انتصرت الثورة المضادة، وغيّرت مسار الثورة عن أهدافها، ووجهتها نحو بناء الدولة القومية، التي لم تكن من ضمن أهداف الثورة الفرنسية. وفي ذلك قال الناثر الفرنسي جورج جاك دانتون جملته الشهيرة بأن: "الثورة تأكل أبناءها".

ثورة الياسمين والثورة المضادة لها

انطلقت ثورة الياسمين في تونس بعد استشهاد محمد البوعزيزي في ٤ كانون الثاني ٢٠١١، الذي أحدث رد فعل كبير ضد الاستبداد بكافة أشكاله، وكانت مطالب الجماهير واضحة في الحرية والعيش الكريم؛ فضلاً عن المشاركة الواسعة للمرأة التونسية، وكانت من إحدى نتائجها ترحيل رموز النظام القديم، إلا أنها لم تحقق كامل أهدافها، لأن الفراغ الذي تشكّل في السلطة ملأته الفئة الأكثر تنظيماً، لا الأكثر قرباً من مطالب الشعب في الحرية والعدالة، ولذلك فقد سيطرت حركة النهضة الإخوانية على السلطة بسبب جهوزيتها التنظيمية. وترجع بدايات هذه الحركة إلى أواخر الستينات تحت اسم الجماعة الإسلامية، التي أقامت أول لقاءاتها التنظيمية بصفة سرية في إبريل / نيسان ١٩٧٢، وقد استغلّت هذه الحركة الفرصة لتحكم البلاد لأول مرة في تاريخها. ومن هنا بالذات بدأت الثورة المضادة، ونتيجة طموح الشعب وآماله في خلق تغيير جذري في بنية النظام لم يكتب لهذه الحركة العمر المديد في السلطة، ولكن انتصار حزب نداء تونس العلماني بقيادة باجي قايد السبسي لم تخرج تونس من دائرة الثورة المضادة، لأن هدف ثورة الياسمين لم يكن تغيير الرموز وجلب رموز جديدة بالأيدولوجية عينها، ونظام الحكم عينه، بل كانت تهدف إلى التغيير الكامل

للنظام ومؤسساته، وبالتالي بإمكاننا تصنيف حركة النهضة وحزب نداء تونس بالثورة المضادة، لأنهما لم يأتيا بجديد لهذا الشعب.

ثورة مصر

كان بإمكان ثورة مصر أن تصبح أيقونة ثورات الربيع العربي، وأن تصبح مصر قدوة نموذجية في المنطقة، ومثالاً يحتذى به، في حال إتمام ثورة يناير كما بدأت.

ساحة التحرير كانت أروع ملاحم ثورة يناير عام ٢٠١١، كما أن مطالب الشعب كانت واضحة في الحرية والعدالة والعيش الكريم، تحت شعار "عيش وكرامة"، وقد استطاع هذا الحراك تحقيق مطالبه في تنحي رموز النظام القديم في وقت قياسي، ولكن واجهته الكثير من المشاكل التي حالت دون الوصول الى الأهداف المنشودة، ومنها:

١- انعدام طليعة قيادية تضبط الحراك، وتقود الشعب المنتفض وتنظمه.

٢- انعدام توجهات وبرامج واضحة؛ لا سيما بما يتعلق بإدارة البلاد ما بعد اسقاط النظام.

٣- انقسام المجتمع المصري إلى:

أ- القوميون أو ما يسمى بالناصرين، نسبة إلى جمال عبد الناصر، وقد كانوا يرون انتفاض الشعب ومطالبهم بمثابة هجوم على قيم الدولة. هذه الشريحة محافظة تهاب التغيير والتجديد، وتربط بشكل وثيق ما بين الوطن والدولة، حيث تعد حماية مؤسسات الدولة إحدى واجباتها.

ب- الإسلاميون الراديكاليون، ولا سيما جماعة الإخوان المسلمين، التي أثبتت القرائن والدلائل بأنها بعيدة كل البعد عن أن تمثل طموح الشعب في الحرية والعدالة، وهذه الجماعة قديمة التنظيم في مصر، وركبت موجة الثورة في أواخر أيامها، بعد أن تأكدت من أن هذا الحراك سوف يفضي إلى تنحية رموز النظام القديم، واستفادات من الفراغ الإداري الحاصل.

ج- الشريحة الطامحة إلى التغيير والتجديد، والتي كانت وقود الثورة المصرية، وقد كانت تتطلع إلى العيش في وطن يواكب العصر، ومنفتح على العالم الخارجي، إلا إنها كانت عديمة التجربة، ولم تكن تمتلك أدوات صحيحة للقيام بالثورة وإيصالها الى أهدافها الكاملة.

فبعد تنحية مبارك وحاشيته، بدأ الصراع بين هذه الشرائح الثلاث مما أدى إلى تغيير وجهة الحراك، وقد رأى ممثلي الثورة المضادة الفرصة سانحة بأن تستغل هذه الظروف لصالحها؛ إذ بادرت جماعة الإخوان المسلمين بقيادة محمد مرسى إلى أخذ زمام المبادرة، بعد أن مهدت الشريحة الأولى لها الطريق، والتي تمثل هي أيضاً الجزء الآخر من الثورة المضادة، لتحكم الجماعة البلاد التي لها إرث لا يستهان به من الثقافة العلمانية، بعد أن استغلت نتائج كفاح ساحة التحرير والتفت عليها، ووضعتها في خدمة مصالحها الطائفية والجماعوية. وقد قامت، بشكل ملفت للنظر، بإحداث تغييرات جذرية في دستور البلاد، لتتوافق مع سلطة الإخوان المسلمين وتوجهاتهم. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه المعضلة هو: لماذا ساهم المحافظون القوميون في فتح الطريق أمام مرسى والإخوان لتسلم السلطة بعد الفراغ الذي تركه تنحية مبارك وأعدائه؟ ربما يكمن الجواب في ما هو عليه الحال الآن؛ إذ أنهم أرادوا أن يضعوا الشعب أمام خيارين لا ثالث لهما، وهو إما الإخوان أو نحن القوميون المحافظون برئاسة السيسي، وكما يقول المثل: "يرؤنك الموت لترضى بالحمى".

النتيجة

يختلف طابع الثورات في الألفية الجديدة عما سبق، فقد تطورت العلوم بشقيه (التطبيقية والإنسانية)، حيث تقدّمت العلوم الطبيعية لتتجاوز الفيزياء الكلاسيكية كفيزياء نيوتن وغيره؛ إلى الفيزياء الحديثة المتمثلة بفيزياء الكم أو الكوانتية؛ ومن ضمنها النظرية النسبية لأينشتاين؛ بالإضافة إلى نشوء علم البيئة (الإيكولوجيا)، والتطور العظيم الحاصل في الكيمياء، وظهور تطورات رائعة في عالم الصناعة والتكنولوجيا. في حين أن العلوم الإنسانية خطت خطوات مذهلة بحق؛ ولا سيما في علم الاجتماع، الذي بات يعد "أم العلوم" في وقتنا الراهن وبرأي الكثيرين، ناهيك عن التطور المذهل في الفلسفة، وفلسفة كوانتوم خير مثال. ونتيجة لهذه التطورات الحاصلة في العلوم تطورت نظريات الثورة المستندة إلى براديجما معينة أو ما يسمى بروح العصر.

إن النظريات الاجتماعية تعتمد على العلوم التي تعاصرها، ففي عهد الماركسية، على سبيل المثال، كانت فيزياء نيوتن هي الدارجة والمقبولة حينها، وكانت نظرية داروين في التطور تأخذ حيزاً كبيراً في الوسط العلمي؛ بالإضافة إلى عدم تطور الأركيولوجيا (علم الآثار) بشكل كاف. إذاً يمكننا القول بأن البراديجما تتبلور في التقاء النظريات الاجتماعية مع العلوم التي تعاصرها.

وبالتالي نستطيع أن نعرف البراديجما بأنها: مجموعة من الأفكار المثلى، التي تكون جامعة وشاملة لجميع مصالح فئات المجتمع على اختلاف مصالحهم.

كانت البراديغما، حتى نهاية القرن العشرين، تعتمد على مفهوم حق تقرير المصير، والتي كانت تعني بالضرورة بناء الدولة، فجميع الفئات المختلفة كانت تجد في بناء الدولة مصلحتها رغم تناقضاتها، وبالتالي فنظريات الثورة أو النظريات الاجتماعية كانت تهدف إلى هدم شكل من أشكال الدولة لتبني على انقاضها دولة جديدة.

أما في عصرنا هذا، فقد تطورت البراديغما وأصبحت تبحث عن الحلول خارج إطار الدولة أو ما بات يعرف بـ "الديمقراطية اللادولتية"، وهي تعتمد على تنظيم وإدارة المجتمع غير الرسمي لذاته. فمثلاً عدد سكان مصر يقارب المئة مليون نسمة، ونسبة المشاركة في وظائف الدولة أو الوظائف الحكومية من أبسط وظيفة إلى أعقدها، وبحسب وزير التخطيط والمتابعة والإصلاح الإداري، تبلغ ٥,٢ مليون نسمة، أي أن نسبة ٥,٢% من سكان مصر موظفين حكوميين، أما الباقي فهم خارج إطار مؤسسات الدولة، فبإمكانهم أن ينظموا ويبنوا- حسب الحاجة- مؤسسات خدمية وإدارية إلى جانب مؤسسات الدولة، وباعتبار أن هذه المؤسسات المدنية من النسيج المجتمعي، سوف لن تنظر إلى ذاتها كسلطة تعمل على استغلال مجتمعتها، ولن تحمل صفة القداسة. ومن هنا، وحسب هذه الرؤية، يجب الكفاح من أجل خلق هذا النموذج، الذي يعني "الدولة + الديمقراطية"، مع العلم أن انتظار الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والحرية من الدولة، والظن بأنها سوف تتغير، وستصبح دولة ديمقراطية أمر خاطئ؛ بل يجب العمل حتى يتم إقناع الدولة بقبول هذا الحل، وتأكيده من خلال إدراجه في الدستور، عندها يمكننا القول بأن أهداف الثورة قد تحققت، ويمكننا أن نسمي هذه الاحتجاجات بالثورة.

الثورة في القرن الحادي والعشرين تختلف عن سابقتها، فالتناقضات في القرن المعاش تختلف عما كان عليه القرن السابق وما قبله، وهذه التناقضات لا يمكن أن تجد لها الحلول عن طريق انقلابات قصيرة المدى، بل هي بحاجة إلى ثورات تكون طويلة الأمد بطابعها، لكي تكون عميقة الأثر. ولذلك فإن مصطلحي "قبل الثورة وبعد الثورة" مصطلحين غير دقيقين، لأن قوة الثورات تكمن في استمراريتها، ومن دون انقطاع، حيث دائماً التغيير والتجديد.

إن الحفاظ على جهود المشاركين في ساحات الربيع العربي، وتجنب أن يصبح الربيع خريفاً يفتح الطريق لشتاء قارس، قد يكمن في حل عاجل وفي المدى القريب، مع التأكيد على ضرورة استمرارية الثورة، وهو الضغط على الحكومات بأن تزيل امتيازات، وصلاحيات، وحصانة أعضاء الحكومة، بدءاً من رئيس الدولة إلى أعضاء الحكومة، وصولاً إلى أعضاء البرلمان، وبأن تصبح هذه الوظائف كأي وظيفة أخرى في هيكلية الدولة،

لأن هذه الامتيازات والصلاحيات هي السبب الرئيس في خلق الفساد في جسد الدولة، بدءاً من الرواتب وصولاً إلى أماكن إقامتهم.

بعد هزيمة داعش...

ما هي النتائج التي ستفرضها وقائع الأرض في الأزمة السورية؟

الباحث: ستالين أوسو

محاور الدراسة:

انقسام الجغرافيا السورية إلى ثلاث مناطق مستقلة.

القوات الأجنبية على الأراضي السورية... أدوارها، أهدافها وتحالفاتها.

الصراعات التي قد تشهدها سوريا بين أطراف الأزمة.

هل نهاية داعش يعني نهاية التطرف على الأرض السورية؟

هل سيتم حل الأزمة السورية سياسياً في ظل الأوضاع الراهنة؟

رؤى أطراف النزاع حول سبل حل الأزمة؟

تمهيد:

مع إعلان هزيمة داعش في شمال شرق سوريا بعد إعلان قوات سوريا الديمقراطية؛ الانتصار في ٢٣ من آذار ٢٠١٩، بدأ الحديث عن المسار الجديد للأزمة السورية، فسوريا باتت في الوقت الحالي تتألف من ٣ مناطق "مستقلة"، كما أنه هناك العديد من الأطراف الاقليمية والدولية منخرطة في هذه الأزمة، والتي أدت إلى تعقيد الأمور بشأن حل سياسي للأزمة السورية، هذا ولا يزال أيضاً يتواجد فصائل متطرفة في مناطق النفوذ التركي ما يصعب أيضاً البدء بحل سياسي.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة، في معرفة أدوار القوات المتصارعة على الأرض السورية سواء المحلية منها أو الإقليمية والدولية، كما تكمن أهميتها في ضرورة معرفة الأسباب التي تعرقل التوصل لحل سياسي في الأزمة السورية بعد انتهاء داعش.

أهداف الدراسة:

مع الإعلان عن هزيمة داعش، بدأ الجميع يتساءل عن مصير سوريا ما بعد داعش، وهل هناك معركة وشيكة أم هناك حل سياسي؟

بالتأكيد فإن هذا السؤال يجعلنا نحلل الوضع السوري بشكل عام.

لذا نهدف من خلال هذه الدراسة توضيح الوضع السوري بعد هزيمة داعش عسكرياً، ونود أيضاً أن نوضح كيفية انتشار القوات العسكرية المحلية والإقليمية والدولية على الأراضي السوري، إضافة لأهداف هذه القوات، والبحث حول كيفية حل الأزمة السورية وكيف من الممكن أن يتم حل هذه الأزمة في ظل تباعد وجهات النظر بين أطراف الصراع.

تعريفات إجرائية للدراسة:

الإدارة الذاتية في شمال شرق سوريا: هي إدارة أعلنتها أحزاب كردية، عربية وسريانية في شمال شرق سوريا وتتمتع بحكم ذاتي.

المنطقة المنزوعة السلاح: هي المناطق التي يحظر فيها وجود أي مقاتلين أو أسلحة أو معدات أو مرافق عسكرية والتي لا يجوز أن تنطلق منها أي أعمال أو نشاطات عدوانية تساند أو ترتبط بالعمليات العسكرية، لكن في سوريا الأمر يختلف حيث تنتشر جماعات متطرفة تابعة لهيئة تحرير الشام.

مقدمة:

مع بدأ الحديث عن نهاية داعش كقوة عسكرية تسيطر على الأرض تتوجه الأنظار جميعها إلى المسار الجديد للأزمة السورية، فإلى أي منحى ستتجه بوصلة الأزمة السورية وهل نهاية داعش يعني انفراجاً للبدء بحل سياسي في سوريا؟

وهل نهاية تنظيم داعش يعني نهاية التنظيمات المتطرفة على الأراضي السورية؟

كلها تساؤلات يطرحها معظم أبناء المنطقة والمهتمين بالشأن السوري.

ولمعرفة المسار الجديد للأزمة السورية، يتوجب علينا معرفة دور القوات المسيطرة على الأراضي السورية وأيضاً دور الأطراف الدولية الفاعلة على الجغرافيا السورية، كما أنه يتوجب علينا معرفة ما إذا كانت نهاية داعش على الأرض كقوى عسكرية يعني نهاية "الإرهاب" أم لا..

انقسام الجغرافيا السورية إلى ثلاث مناطق "مستقلة"

على الرغم من ادعاء العديد من الجهات أن نهاية داعش قد تفتح آفاقاً جديدة في حل الأزمة السورية، إلا أن أوراق الثمانية أعوام في الأزمة السورية ووقائع الأرض لا تشير إلى هذا الأمر، بل هي على النقيض تماماً؛ تشير إلى بداية أزمة كانت مجمدة بين أطراف عسكرية عدة تسيطر على الأرض في سوريا، بمساندة قوات دولية وأخرى اقليمية.

فسوريا وبعد اعلان النصر على خلافة داعش المزعومة من قبل قوات سوريا الديمقراطية والمدعومة أمريكياً باتت تتألف من ٣ مناطق رئيسية وهي على النحو التالي:

أولاً- المنطقة التي تسيطر عليها قوات النظام السوري:

تقع هذه المنطقة تحت حماية روسية وتساندها ميليشيات إيرانية وتشكل المساحة التي تسيطر عليها حكومة الأسد قرابة الـ ٦٠% من المساحة العامة للجغرافيا السورية.

وعلى الرغم مما يقال عن استقرار أمني نسبي في هذه المنطقة؛ فإنه لا يدل أبداً على أن هذه المنطقة تشهد استقراراً، حيث أنه هناك مجموعة من القوى تستلم السلطة والنفوذ بصورة فوضوية في هذه المنطقة، وتتألف هذه المجموعات من ميليشيات أجنبية ومجموعات محلية موالية لإيران، وروسيا والشرطة العسكرية التابعة لنظام الأسد، وحزب الله اللبناني، وبالطبع تركيبات أمنية متنوعة ومتصارعة ضمن قوات الأسد.

هذه الفوضى؛ وبحسب الوقائع التي ظهرت؛ جعلت العديد من الأطراف الدولية والاقليمية تسعى لمحاربة النظام لما تقدمه من تسهيلات للميليشيات الإيرانية، التي "تحدد أمن" غالبية الدول التي تدخلت في الأزمة السورية.

ثانياً: المنطقة الشرقية لنهر الفرات (شمال شرق سوريا)

تسيطر على المنطقة الشرقية لنهر الفرات أو ما تعرف بمناطق شمال شرق سوريا إضافة لمدينة منبج وبعض قرى منطقة الباب قوات سوريا الديمقراطية، وتقدم الدعم لهذه المنطقة الولايات المتحدة والقوات الجوية الغربية وتشكل المساحة التي تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية قرابة الـ ٣٠% من مساحة الجغرافيا السورية، وتتواجد ضمن هذه المنطقة أبرز الحقول النفطية والأراضي الزراعية اللتان تعتبران من الموارد الأساسية للاقتصاد السوري.

وتعتبر قوات سوريا الديمقراطية والتي تشكل وحدات حماية الشعب عمودها الأساسي من القوات الرئيسية التي حاربت إرهاب داعش بدعم ومساندة من التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن هذه القوات أعلنت النصر النهائي على إرهابيي داعش بعد تحرير الباغوز في الـ ٢٣ من شهر مارس/ آذار عام ٢٠١٩.

بالطبع فإنه بالرغم من نيل قوات سوريا الديمقراطية ثقة الولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية، فإن تركيا لا تروق لها الإنجازات التي تحققتها هذه القوات، بل تعلن بين الحين والآخر نيتها لمهاجمة مناطق شمال شرق سوريا، ويعد ملف قوات سوريا الديمقراطية من أبرز الملفات التي أحدثت خلافاً بين واشنطن وأقرة.

لذا فإن قوات سوريا الديمقراطية مهيئة منذ فترة بعيدة لحرب قد تعلنها ميليشيات تتبع لتركيا، وهو ما يحدث بين الحين والآخر في منطقة منبج والباب، حيث تشهد هذه المناطق اشتباكات متقطعة بين فصائل تتبع لقوات سوريا الديمقراطية وميليشيات مدعومة تركيا.

ثالثاً: المنطقة التي يسيطر عليها الأتراك (شمال غرب سوريا)

يسيطر على هذه المنطقة الأتراك وحلفاؤهم من منظمات عدة وفصائل "المعارضة" والتي تشكل قرابة الـ ١٠% من مساحة الجغرافيا السورية.

وتشمل هذه المناطق مدن جرابلس، الباب، أعزاز؛ وعفرين المنطقة الكردية؛ ومدينة إدلب التي تعتبر حاضنة لجميع الفصائل التي خرجت عن طريق "المصالحات" مع قوات النظام السوري.

وتعتبر منطقة النفوذ التركي من أكثر المناطق توتراً من بين المناطق الثلاث، بمعنى الترتيبات الداخلية والعلاقات مع القوى الخارجية.

ويحكم الجزء الجنوبي من هذه المنطقة "هيئة تحرير الشام"، (جبهة النصرة) سابقاً .

وتشهد منطقة إدلب ومناطق حماة هجمات متكررة تشنها عناصر النظام السوري، والتي توحى لمعركة وشيكة قد تبدأ هناك بتغطية روسية.

وإلى الشمال هناك منطقة عفرين الكردية، حيث يواجه الأتراك (القوى التي احتلت المدينة الكردية) وحلفاؤهم هجمات متكررة يقودها عناصر لوحدة حماية الشعب.

وأشار تقرير على موقع «بلنغكات» البريطاني، إلى مقالة عن موقع المونитор، مفادها أن ثمة ٢٠٠ هجمة تم تنفيذها في منطقة عفرين ضد القوات التركية والحليفة لها، في الفترة بين مارس ٢٠١٨ ونهاية يناير الماضي.

إذاً فخلاصة الأمر بالنسبة للتقسيم الذي حصل في المناطق السورية، فإننا نلاحظ بأن كل منطقة من المناطق الثلاث هي منطقة مستقلة لها إدارتها الخاصة، لكن هذه المناطق تختلف فيما بينها من حيث النهج، الأفكار، كما تختلف من ناحية الأمن والاستقرار، فمنطقة النفوذ التركي (المناطق المحتملة تركياً) تعتبر من أكثر المناطق توتراً حيث يحكمها ميليشيات متطرفة والتي سنتطرق إليها في الفقرات القادمة من هذه الدراسة..

القوات الأجنبية في سوريا.. أدوارها، أهدافها وتحالفاتها؟

بالطبع فإن الأزمة السورية، تُحركها أطراف دولية وإقليمية عدة، ولكل طرف هدف معين ضمن هذه الجغرافية، وبعد القضاء على داعش لا بد من معرفة أدوار الدول الفاعلة في الأزمة السورية.

فكما لاحظنا بالنسبة للتقسيمات في الجغرافيا السورية، هناك العديد من الأطراف الدولية الفاعلة في الأزمة السورية، فلكل دولة أهداف معينة تسعى لتحقيقها ضمن الأراض السورية.

وتم التعريف في الفقرة السابقة دور بعض الأطراف الدولية والإقليمية التي تدعم مجموعات معينة وسنعمل خلال هذه الفقرة إلى معرفة أهداف الدول الفاعلة على الأراضي السورية بشكل أوسع.

أولاً- الدور الروسي:

تمكن جيش النظام السوري - عسكرياً - وحلفاؤه بدعم من القوات الجوية الروسية، من استعادة السيطرة على ٦٠% من أراضي سوريا بعد أن كان يسيطر على ٨% فقط منها عند انطلاق العملية العسكرية الروسية عام ٢٠١٥.

وبذل الجيش الروسي جهوداً كبيرة لإعادة بناء قدرات جيش النظام السوري الذي استنزفته سنوات القتال مع جماعات عدة مما تسمى بالمعارضة السورية.

وعلى الصعيدين السياسي والدبلوماسي، تمكنت روسيا من عقد اتفاقيات عدة مع الطرف التركي، وبدأت بما سمته بمصالحات عدة، استعادت بموجبها جميع الأراضي التي كانت تسيطر عليها ما تسمى بالمعارضة باستثناء مناطق في الشمال السوري.

وقال رئيس النظام السوري بشار الأسد في يناير عام ٢٠١٦ أن روسيا تمكنت من تغيير موازين القوى في سوريا، وقلصت بالفعل من مساحة الأراضي التي يسيطر عليها "الإرهابيين" بحسب تعبير الأسد.

وتسعى روسيا لتحقيق جملة من الأهداف في سوريا من خلال الدعم الذي تقدمه لقوات النظام السوري وهي:

١. رد الاعتبار لمكانة روسيا الدولية، كذلك توظيف الأزمة السورية وجعلها ورقة تفاوضية في علاقاتها مع واشنطن والدول الغربية في العديد من الملفات الشائكة.
٢. زيادة قدرة روسيا على التحكم بمنطقة الهلال الخصيب، بما يحدّ من قدرة الغرب على المناورة الاستراتيجية فيها.
٣. توظيف الجغرافية السورية للتأثير في معادلات الطاقة إقليمياً وعالمياً، وتعزيز صادراتها من السلاح انطلاقاً من البوابة السورية.

ولتحقيق هذه الأهداف بدأت روسيا باتفاقيات عدة في سوريا، فهي تمكنت من جر تركيا إلى حلفها وعقدت معها اتفاقيات، تمت بموجب تلك الاتفاقيات سيطرة النظام على مساحات شاسعة في الأراضي السورية مقابل منح صلاحيات لتركيا بالتقدم في مناطق معينة محاذية للحدود التركية.

وسعت روسيا أيضاً في بداية تدخلها بالأزمة السورية إلى إظهار نفسها كقوى تسعى لحل الأزمة السورية وتواصلت مع قوات سوريا الديمقراطية والإدارة الذاتية لشمال شرق سوريا، حتى أنها سمحت بفتح ممثلية للإدارة الذاتية في موسكو، إلا أن العلاقة بين الطرفين بدأت تنهار بعد اقدام موسكو على الانسحاب من عفرين والسماح للقوات التركية بشن هجمات على المنطقة الكردية، وتحوّلت العلاقة بين الطرفين إلى علاقة محدودة جداً.

كما أن روسيا صرحت في أكثر من مرة بشأن الإدارة الذاتية المعلنة في شمال شرق سوريا، أن الولايات المتحدة تسعى إلى تقسيم سوريا وتشكيل دويلة في شمال شرق سوريا، ما أدى إلى تعميق الخلاف واختلاف وجهات بين الإدارة الذاتية وموسكو.

ويبدو أيضاً أن التقارب الروسي التركي هو تقارب مؤقت على الرغم من الاتفاقيات العدة التي أبرمها الطرفان، والدليل على ذلك ظهور أوجه الاختلاف بين الطرفين أثناء إعلان الولايات المتحدة عزمها الانسحاب من سوريا، فتركيا أعلنت أنها ستعمل على ملء "الفراغ الأمريكي"، فيما تحدثت موسكو عن ضرورة سيطرة النظام على تلك المنطقة.

أما الموقف الآخر الذي قد يعرقل استمرار الاتفاق بين روسيا وتركيا فهو الموقف الروسي من الجماعات المسلحة في إدلب، فروسيا وبالرغم من اتفاقها مع تركيا بشأن المنطقة المنزوعة السلاح، إلا أنها تبدي إصرارها في مجابهة هذه القوات التي تراها موسكو ومعظم الدول الغربية مجموعات "إرهابية".

إذاً فالوقائع تشير إلى عدم رضا الطرف الروسي عن ما يجري في سوريا والتي ستفتح آفاقاً جديدة للأزمة السورية في المستقبل القريب سواء فيما يخص مناطق النفوذ التركي وعلى وجه الخصوص إدلب، وأيضاً فيما يخص علاقاتها مع الإدارة الذاتية في ظل الشراكة الإيجابية للأخيرة مع القوات الأمريكية.

ثانياً- الدور التركي:

حينما يُذكر الدور التركي في الأزمة السورية، يتبادر إلى الأذهان تلقائياً سلبية الدور الذي لعبته بدعمها للمسلحين المتطرفين على المستويات كافة.

فَتَحَّتْ ذريعة محاربة تنظيم داعش وتحجيم أي دور للكرد، اتساع رقعة النفوذ التركي شمالي سوريا على نحو غير مسبوق، منذ أن أطلقت أنقرة عملية درع الفرات في أغسطس ٢٠١٦، ودخلت دباباتها للأراضي السورية لأول مرة.

واستندت تركيا على وثائق عثمانية لتبرير سيطرتها على مدن جرابلس، أعزاز والباب، كما تذرعت بوجود مقابر تعود لقادة عثمانيين في مناطق أخرى شمالي سوريا، لسيطرت نفوذها عليها.

وبالنظر إلى وقائع الأرض والسياسات التركية فأننا ندرك جيداً بأن أهداف تركيا ليست مساندة فضائل "المعارضة" كما تدعي، وليس أيضاً إيواء اللاجئين و"حمايتهم"، بل بحسب المعطيات هي كما التالي.

٥. افشال مشروع الإدارة الذاتية.

٦. جمع جميع المسلحين الموالين لها في منطقة واحدة واستغلالهم لتحقيق أهدافها من خلال الزج بهم في معارك مميتة كما حصل في عفرين.

٧. الحصول على منطقة نفوذ دائمة عند الحدود، كما حصل شمال قبرص، وتترك مناطق نفوذها.

٨. السيطرة على الطرق الاستراتيجية التي تربط حلب باللاذقية ودمشق، وعلى بعض المعابر الحدودية كباب الهوى في محافظة إدلب.

بالطبع فإن الوضع التركي في سوريا على ما يبدو بدأ يتدهور، ومع نهاية المعارك ضد داعش، يبدو أن المنطقة الخاضعة للنفوذ التركي تبدو الأقرب للاستهداف.

فالمناطق التي تخضع لسيطرة الاحتلال التركي هي أكثر المناطق اضطراباً، فإدلب تعتبرها روسيا أيضاً النظام السوري، منطقة تسيطر عليها الإرهابيين، ما يوحي بمعركة وشيكة في تلك المنطقة.

كما أن عفرين المنطقة الكردية، تشهد هجمات يومية تنفذها وحدات حماية الشعب، وعلنت قوات سوريا الديمقراطية في أكثر من مرة أن الوضع في عفرين لن يبقى على ما هو عليه الآن، مشيرين إلى أن أولوياتهم تحرير عفرين؛ ما يوحي أيضاً بمعركة هناك، كما أن الفصائل التي تساندها تركيا، تتخاصم فيما بينها بشكل شبه يومي ما ينذر بمعركة قوية في تلك المنطقة التي تشكل ١٠% من مساحة الجغرافيا السورية.

وكانت عفرين قد خضعت لسيطرة الاحتلال التركي في فترة كانت قوات سوريا الديمقراطية تواجه إرهابيي داعش.

ثالثاً- الدور الإيراني:

سلبية الدور الإيراني في الأزمة السوري لا تقل عن سلبية الدور التركي، فقد لجأت إيران في نهاية ٢٠١٢ إلى إرسال ميليشياتها في العراق وفي لبنان للقتال في سوريا بجانب الأسد والتصدي للـ "معارضين" للنظام السوري، ورغم أن الأزمة السورية تعقدت لاحقاً بتدخل الولايات المتحدة وروسيا وتركيا فيها، فذلك لم يقلل من النفوذ الإيراني في سوريا.

وتمكنت إيران من خلال ميليشياتها بجميع الأصعدة في السيطرة على سوريا (مناطق النظام)، وبات جيش النظام يتألف بشكل شبه كامل من ميليشيات إيرانية.

و تتمثل مصالح إيران من التدخل في سوريا في الآتي:

١. الحفاظ على ما أسمته محور المقاومة للحفاظ على التوازن مع إسرائيل.
٢. إثبات نفسها كقوة إقليمية كبيرة.
٣. وضع قدم لها على البحر المتوسط والتي قد تهدد التجارة الإسرائيلية في المتوسط.
٤. ضمان استمرار وجود تواصل بين مناطق النفوذ الإيرانية وايصال المساعدات لحزب الله في لبنان.
٥. استغلال الأوضاع الاقتصادية المنهارة في سوريا لتعزيز نفوذها الاقتصادي هناك في مجالات الإعمار والطاقة بالذات.

لكن الأهداف الإيرانية باتت في الوقت الحالي تواجه خطراً محدقاً بعد تولي دونالد ترامب منصب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

وتشير التقارير إلى أن مستقبل النفوذ الإيراني في سوريا أصبح على المحك نتيجة المتغيرات الدولية، فالإدارة الأمريكية ترغب بشدة في تضيق النفوذ الإيراني والحيلولة دون وصول إيران إلى جنوب سوريا ما يهدد أمن حليفها "إسرائيل"، ومن جانب آخر بدأ النظام السوري يشعر فعلياً بالقلق من توسع نفوذ إيران السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي في سوريا على نحو بات يهدد نفوذها هي ذاتها، وبدأ النظام يبحث عن تقليص الدور الإيراني بعد أن باتت سوريا في الرؤية الإيرانية إحدى محافظات إيران.

رابعاً- الدور الأمريكي:

يعتبر الدور الأمريكي في سوريا إلى جانب الدور الروسي من أكبر الأدوار فعالية على الأرض السورية، فلولا تدخل الولايات المتحدة في سوريا لما اتفقت روسيا مع تركيا، كما أن التقارب الإيراني التركي كان مستحيلاً قبل التدخل الأمريكي في سوريا.

الولايات المتحدة وبجسب محللين مختصين في الشأن السوري أحدثت توازناً في الأزمة السورية.

وتسعى إلى تحقيق العديد من الأهداف في سوريا، فأهدافها تعارض الأهداف الروسية والإيرانية وأيضاً التركية، ومن أبرز هذه الأهداف.

١. منع إيران من انشاء خط أو أكثر من خط تواصل بري عبر الأراضي العراقية من إيران إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط في سوريا ولبنان لحرمانها من خط الإمداد للمجموعات الشيعية المسلحة التي يمكن أن تشكل تهديداً مزدوجاً لكل من حلفي الولايات المتحدة الأردن وإسرائيل.
٢. خلق حالة من التوازن العسكري في الأجواء السورية بعد إقامة روسيا قاعدة جوية لها بشكل دائم في محافظة اللاذقية.
٣. تعزيز علاقات التحالف الاستراتيجي مع الإدارة الذاتية ودعم مشروعها ضمن إطار دولة سورية موحدة مع توزيع صلاحيات الحكم بين المركز والإدارات الذاتية.
٤. يشكل التواجد العسكري الدائم للولايات المتحدة في سوريا وفي قواعد جوية بديلاً احتياطياً عن قاعدة أنجوليك التركية ذات الأهمية في الحرب على الإرهاب فيما إذا تعمقت حدة الخلافات مع تركيا.

وظهرت أهمية الدور الأمريكي في سوريا بشكل جلي عندما اعلنت الولايات المتحدة انسحابها من سوريا، الأمر الذي أدى إلى اختلاط الأوراق وكادت التحالفات السياسية على الأرض السورية أن تتغير.

إذا وكما ظهر من خلال توضيحنا لأدوار الدول الفاعلة على الأرض السورية وكذلك بالعودة للفقرة الأولى بالنسبة للقوات العسكرية ضمن الأراضي السورية، يظهر جلياً بأن الأزمة السورية ستأخذ منحاً آخر بعد نهاية داعش عسكرياً.

إذا ما هي الصراعات التي قد تشهدها سوريا بين الأطراف الثلاث في الأزمة السورية، وما هي بوادر هذه المعارك؟

أصبح من المعلوم أن الأزمة السورية قد اتخذت مساراً جديداً بعد انتهاء داعش عسكرياً على الأراضي السورية.

فلم يعد هناك داعش عسكرياً، بل هناك ثلاث قوات رئيسية على الأراضي السورية، وهي قوات النظام السوري، وقوات سوريا الديمقراطية وأخيراً القوات الموالية لتركيا.

وتشير جميع وقائع الأرض إلى أن مناطق النفوذ التركي هي المناطق الأكثر توتراً على الإطلاق في سوريا، فهذه المنطقة تشهد انتهاكات يومية واشتباكات متقطعة بين فصائل عدة، حيث لا توجد في هذه المنطقة مرجعية واحدة وتحكمها ميليشيات عدة، إضافة لتنظيمات تصنفها المجتمع الدولي (إرهابية).

ويبقى السؤال الأهم بعد توضيح أدوار القوات الفاعلة في الأرض السورية "هل نهاية داعش يعني نهاية الإرهاب على الأراضي السورية؟"

بالطبع لا يزال خطر إرهاب داعش قائماً ضمن الأراضي السورية، فالأطراف الدولية بأسرها اجتمعت أن نهاية داعش عسكرياً لا يعني القضاء على الإرهاب بشكل نهائي، وقوات سوريا الديمقراطية أعلنت أن عدد المعتقلين الأجانب لدى قواتهم، عدا العراقيين يتجاوز ١٣٠٠ مقاتل.

وتشير التقارير أيضاً إلى أن مئات الإرهابيين هربوا إلى تركيا أو مناطق النفوذ التركي في سوريا وعلى رأسها إدلب ولا يزال هؤلاء الإرهابيين يشكلون خطراً على المنطقة بأسرها.

عدد الأجانب ضمن فصائل "المعارضة"

يشارك الآلاف من الأجانب في معارك إلى جانب فصائل ما تسمى بالمعارضة، وعلى وجه الخصوص فصائل موالية لهيئة تحرير الشام.

وفيما يخص الأجانب الذين يقاتلون ضمن فصائل "المعارضة"، فقد كشف مهند مصطفى، "الناشط العسكري السوري"، أعداد المقاتلين الأجانب التابعين لما سماها بالجماعات الإرهابية المسلحة في إدلب، حيث أكد أن أعداد هؤلاء وصل إلى ما بين ١٠ و ١٣ ألف مقاتل متواجدين في عدة مناطق.

وقال إن من ١٢٠٠ - ١٥٠٠ من هؤلاء الأعداد من أوزباكستان ويتمركزون في جبهة ريف اللاذقية والبعض منهم على جبهة الغاب، في حين يوجد ما بين ١٥٠٠ و١٩٠٠ من تركستان وهم موزعون على محور كبانه والبعض منهم على محور مورك، في حين أن السعوديين يقدر عددهم بـ ٢٠٠٠ منهم شرعيون ومنهم مسلحون موزعون على جبهة ريف حماة الشمالي وريف اللاذقية، وكما يوجد من التونسيين بعض المئات بعد أن كان عددهم في السابق ١٢٠٠ بحسب "الناشط العسكري السوري".

ونوه الناشط السوري إلى أن المصريين الموجودين في تلك المدينة السورية الهامة وصل عددهم إلى ٢٠٠٠ الأغلبية موزعة ما بين بلدة الناجية وكبانه ومعسكرات تدريب على الحدود التركية من جهة جسر الشغور، هذا بجانب ٣ آلاف تركي يتبع ما تعرف باسم جماعة الذئاب الرمادية، و ١٨٠٠ من الإيغور، موزعين على محور جبل التركمان وهناك عدد قليل موزع على باقي الجبهات، و ١٩٠٠ من الشيشان الموجودين في محيط جسر الشغور ودركوش، و ١٥٠٠ إيرانيًا، و ٥٠٠ عراقي، وما يقرب من ١٨٠٠ مغربي.

بكل تأكيد فإن هذه الإحصائية ظهرت خلال العام المنصرم والعدد في تزايد خصوصاً بعد هروب عدد كبير من إرهابيي داعش إلى تركيا ومن ثم التوجه إلى مناطق ما تسمى بالمعارضة السورية.

إذا وبحسب ما يظهر على الأوراق فإنه يبدو أن الأزمة السورية لم تنته؛ بعد بل أنه هناك معركة أخرى تطرق الأبواب، لتصفية ما تبقى من الجماعات "المتطرفة".

الفصائل المتطرفة في مناطق النفوذ التركي

وفي هذا الصدد وضح مركز المستقبل للدراسات الاستراتيجية كيفية انتشار الجماعات المتطرفة في سوريا، حيث أن هذه المجموعات تنشط في مناطق النفوذ التركي ولا تزال تشكل خطراً يهدد أمن سوريا.

وأبرز هذه المجموعات هي كما يلي:

١. هيئة تحرير الشام (النصرة سابقاً): قامت "جبهة النصرة" بتغيير مسماتها إلى جماعة "فتح الشام"، ثم أعلنت لاحقاً في عام ٢٠١٧ الاندماج مع حركة "نور الدين الزنكي"، و"لواء الحق"، و"جبهة أنصار الدين"، و"جيش السنة"، ليتم تكوين جماعة "إرهابية" جديدة تعرف باسم "هيئة تحرير الشام". بيد أن هذه الهيئة قد عانت مؤخراً من ضعف التماسك وتساعد الانشقاقات التنظيمية،

- وهدفت النصره من تغيير مسمائها إلى رغبتها في ازالة نفسها من خانة التنظيمات الإرهابية،
وتسهيل انتقال عناصر التنظيم لدول أخرى مثل تركيا في حالة اندلاع معركة إدلب.
٢. تنظيم حراس الدين: يعتبر نموذجاً مصغراً لتنظيم داعش، خاصة بعد احتضان حراس الدين لعناصر داعش الفارين إلى إدلب، أو التابعين سابقاً لفصائل محسوبة عليه كـ "جند الأقصى"، ويعد هذا التنظيم نفسه تابعاً للقاعدة.
٣. جيش الفتح: تشكلت هذه الجماعة في مارس ٢٠١٥ وهي تتألف من تحالف عدة مجموعات من ما تسمى بالجيش الحر، إلا أن فصائلها تتقاتل فيما بينها بشكل شبه يومي.
٤. حركة أحرار الشام: وتشمل مجموعة من الكتائب مثل: "كتائب أحرار الشام"، و"حركة الفجر"، و"جماعة الطليعة الإسلامية"، و"كتائب الإيمان".
٥. جند الأقصى: كانت تُعرف سابقاً باسم سرايا القدس، وتقاتل كفصيل تابع لجبهة النصره إلا أنها انشقت عنها لاحقاً بسبب خلافات حول العداء لتنظيم داعش، وتضم هذه الجماعة عدداً كبيراً من الأطفال حسبما أوردته مركز المستقبل للدراسات الاستراتيجية.
٦. جيش السنة: تم إنشاء هذه الجماعة نتيجة الاندماج بين مجموعة من الجماعات المتمردة التي ينتمي بعضها إلى ما تسمى بالجيش الحر، وتمركزت في حمص، وتقوم هذه الجماعة باستقطاب عدد كبير من الأطفال للقتال في صفوفها.

هل سيتم حل الأزمة السورية في ظل هذه الأوضاع الراهنة

يظهر جلياً بأن حل الأزمة السورية سياسياً في ظل الأوضاع الراهنة صعبٌ بعض الشيء، ويقول البعض أيضاً أنها مستحيلة نظراً للعديد من الأمور أبرزها.

١. عدم مشاركة الإدارة الذاتية في جميع الاجتماعات التي انعقدت بين أطراف الأزمة السورية، ويعتبر هذا الأمر من أكبر الإشكاليات نظراً لكون قوات سوريا الديمقراطية تسيطر على مساحة كبيرة من الأراضي السورية، إضافة إلى محاربتها لإرهابيي داعش على مدى السنوات الماضية.
٢. تواجد مجموعات متطرفة في مناطق النفوذ التركي أبرزها في إدلب وعدم قدرة تركيا في السيطرة على تلك المجموع.
٣. تواجد ميليشيات إيرانية في مناطق النظام السوري، وعدم قدرة النظام وروسيا في السيطرة على تلك الميليشيات.

٤ . عدم قدرة الدول الفاعلة على الأرض السورية في إيجاد سبل تقرب الأطراف المتصارعة مع بعضها البعض، بالإضافة إلى عدم قدرة تلك الدول للتوصل إلى توافق يرضي جميع الأطراف.

وإضافة إلى هذه الأمور فإنه لكل دولة فاعلة ضمن الأراضي السورية رؤية مختلفة عن الدول الأخرى ونبرز لكم رؤى كل طرف من هذه الأطراف على حدى.

أولاً: الرؤى الروسية ورؤية النظام السوري:

ترى كل من روسيا والنظام السوري أن حل الأزمة السورية، يكمن فيما يلي:

- ١ . إخراج جميع القوات الأجنبية من سوريا، باستثناء روسيا وإعادة كافة الأراضي إلى سيطرة النظام السوري، عن طريق ما تسميه بالمصالحات.
- ٢ . الإبقاء على النظام الجمهوري لسوريا ورفض نظام برلماني في سوريا.
- ٣ . إعادة سوريا إلى ما قبل ٢٠١١ واحكام السيطرة على كافة مفاصل الدولة.
- ٤ . اعادة عضوية "سوريا" للجامعة العربية لاكتساب المشروعية.
- ٥ . وقف دعم وتمويل المسلحين ووقف العمليات العسكرية
- ٦ . رفضها ما تسميها بمساعي "التقسيم" وإخراجها من محور المقاومة.

ثانياً- رؤية تركيا وحلفاءها من "المعارضة":

ترى تركيا وحلفاءها من ما تسمى بالمعارضة أن "حل الأزمة السورية" يكمن فيما يلي

- ١ . مواجهة مشروع الإدارة الذاتية، والتي تعتبرها تركيا خطراً يهدد أمنها القومي، وحاجزاً سياسياً وجغرافياً أمامها.
- ٢ . وقف اطلاق النار في مناطق "المنزوعة السلاح" للحفاظ على الأراضي الخاضعة لسيطرتها في ظل بوادر بعملية وشيكة قد ينفذها النظام بمساندة روسية في تلك المناطق.
- ٣ . الإبقاء على القوات التركية في مناطق الشمالية الغربية من سوريا.

ثالثاً- رؤية الإدارة الذاتية لشمال شرق سوريا:

ترى الإدارة الذاتية أن حل الأزمة السورية يكمن في البنود التالية:

١. النظام في سوريا نظام جمهوري ديمقراطي، والإدارات الذاتية جزء من هذا النظام.
٢. الإدارات الذاتية لها ممثلون في البرلمان في المركز دمشق، عبر ممثلين لها.
٣. قوات سوريا الديمقراطية هي جزء من الجيش السوري المستقبلي ومسؤولة عن حماية الحدود السورية.
٤. التعليم باللغة الأم أساس التعليم في مناطق الإدارات الذاتية، واللغة العربية هي اللغة الرسمية في عموم سوريا.
٥. توزيع الثروات السورية على المناطق السورية بشكل عادل.

هذا وتعتبر الإدارة الذاتية أيضاً تحريراً عفرين شرطاً أساسياً للبدء بحل سياسي للأزمة السورية. وبالنظر إلى شروط الأطراف الثلاث في الأزمة نرى جيداً بأن الأفكار متناقضة تماماً، فقط هناك نقطة واحدة يتفق فيها كل من النظام بمساندة روسيا وما تسمى بالمعارضة بمساندة تركية، ألا وهي إقصاء الإدارة الذاتية من جميع المفاوضات.

لذا فإن التحركات التركية الروسية كانت سبباً رئيسياً من اتخاذ الولايات المتحدة قرار البقاء على الأراضي بعد أن كانت قد قررت الانسحاب المفاجئ.

ويرى محللون ومراقبون أن الحل السياسي في الأزمة السورية، سيبدأ بمجرد تصفية بعض المجموعات، والعديد من القوى على الأرض السورية، بدأت بتحركات دبلوماسية وحققنت مكاسب عدة وأبرز تلك القوى الإدارة الذاتية أو "مجلس سوريا الديمقراطية" حيث بدأت بجولات عدة في الولايات المتحدة وبلدان أوروبية، وتسعى للتوصل إلى تفاهات مع بلدان عربية.

ومن أبرز تلك المكاسب:

١. تمكنت الإدارة الذاتية بعد التهديدات التركية والمطامع الروسية من اقناع واشنطن في ابقاء مجموعة من قواتها ضمن سوريا.
٢. فتحت قنوات اتصال مباشرة مع الإدارة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية.
٣. اقناع الدول الغربية بضرورة طرح اللامركزية كنظام مستقبلي لسوريا.

لذا ومن المعطيات التالية وضعت المجموعة المصغرة بنوداً للتوصل إلى حل للأزمة السورية من خلال وثيقة، تم طرحها ونشرها على وسائل الإعلام.

وتتضمن الدول المؤيدة للوثيقة كلا من الولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وبريطانيا وألمانيا والسعودية ومصر والأردن ضمن ما بات يعرف بالمجموعة المصغرة.

وتضمنت بنود المجموعة المصغرة:

- ١ . اعتماد مبدأ اللامركزية في سوريا، وهو مطلب الإدارة الذاتية في شمال شرق سوريا
- ٢ . لإيجاد حل في سوريا يجب قطع العلاقات مع إيران وإجراء إصلاحات دستورية وتعديل صلاحيات رئيس النظام.
- ٣ . تشكيل لجنة دستورية برعاية أممية بمشاركة جميع "القوى السياسية"، لمناقشة الإصلاحات الدستورية وإجراء انتخابات رئاسية بإشراف أممي.
- ٤ . المجتمع الدولي لن يساعد في إعادة إعمار سوريا دون التوصل لعملية انتقال سياسي ذات مصداقية وفق القرار ٢٢٥٤ الصادر عن مجلس الأمن الدولي.

وعلى ما يبدو فإن الولايات المتحدة والبلدان الأوربية ستتمكن من فرض رؤيتها على النظام السوري وروسيا، وخصوصاً أن المجتمع الدولي في غاية الإصرار على أنها لن تساعد في إعادة إعمار سوريا ما لم يتم التوصل إلى عملية انتقال سياسي ذو مصداقية كما وصفتها المجموعة المصغرة.

الخلاصة:

تشير جميع البوادر إلى أن معركة وشيكة ستبدأ في مناطق النفوذ التركي، وعلى وجه الخصوص في المناطق "المنزوعة السلاح"، وعفرين حيث تتواجد مجموعات متطرفة، تشكل خطراً يهدد أمن المنطقة.

وسيكون المجتمع الدولي في الفترة القادمة مجبراً على اتخاذ تدابير في مناطق النفوذ التركي في ظل التصعيد في تلك المنطقة والانتهاكات التي تجري فيها.

كما أن هروب عناصر داعش إلى تلك المناطق جعل المجتمع الدولي يتيقن بأن تطهير تلك المنطقة واجب يقع على عاتقهم.

أما بالنسبة للعملية السياسية فعلى ما يبدو سيتمكن المجتمع الدولي من إرضاخ النظام وروسيا، لتنازلات سياسية للبدء بمحوار سياسي وخصوصاً أن المجتمع الدولي يستخدم ورقة إعادة الإعمار كوسيلة ضغط ضد النظام وروسيا.

سوريا وبحسب المعطيات لن تعود إلى ما كانت عليه في ٢٠١١، في حال التوصل لتسوية سياسية، وتواجد التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تؤكد أن مساعي تدخلها في سوريا لم يكن لمحاربة داعش فحسب، بل أنها تسعى لتغيير النظام الحالي، وقد تتحول سوريا إلى دولة لا مركزية، كما تطالب الإدارة الذاتية.

المراجع:

جريدة الأهرام المصرية

شبكة بلدي : ما أهداف روسيا من التدخل في سوريا؟

موقع الجزيرة: الرؤية التركية للحل في سوريا

موقع أمان: إحصائية سورية تكشف أعداد المقاتلين الأجانب في إدلب

جيرون: الشروط العشرة لإعادة إعمار سورية

تلفزيون سوريا: وثيقة للمجموعة المصغرة تحدد مبادئ الحل السياسي في سوريا

روسيا اليوم: RT تحصل على نسخة "إعلان مبادئ" المجموعة المصغرة بشأن سوريا

المستقبل للدراسات: مستقبل التنظيمات الإرهابية في الشرق الأوسط

سكاي نيوز عربية: أطماع تركيا في شمال سوريا.. من الأرض إلى اللغة وحتى العملة

نون بوست: إيران والمستنقع السوري.. المصالح والمستقبل

الاعتماد على معلومات من ويكيبيديا: المقاتلون الأجانب في الحريين الأهليتين السورية والعراقية

عُقْدَةُ البَاغُوزِ

د. ريبير خلف - باحث في مركز الفرات للدراسات

كمعظم القرى السورية المهتمشة التي تفتقر لأبسط مقومات الحياة؛ لم يكن لقرية الباغوز أية أهمية تذكر، ولم تكن معروفة حتى لدى غالبية السوريين، ولكنها تصدّرت نشرات الأخبار والوكالات والصحف العالمية؛ كونها شكّلت آخر معاقل تنظيم الدولة الإسلامية التي تم القضاء عليها من قبل قوات سورية الديمقراطية والتحالف الدولي، مما أكسبها شهرة عالمية سريعة.

إن تحرير هذه البقعة الصغيرة - على عكس المواقع الأخرى - شكّلت عُقْدَةً كبيرة لدى قسد والتحالف الدولي؛ فبالرغم من محاصرة التنظيم فيه وسهولة القضاء عليه، إلا إن عملية إنمائه أخذت الكثير من الوقت، وباتت موضع جدل ونقاش كبيرين، استغلته جهات سياسية وإعلامية في التشكيك بقدرة قسد والتحالف في حسم المعركة، وإنهاء ما تبقى من فلول داعش.

بالإضافة إلى ما سبق هناك من ادّعى أن معركة الباغوز هي مذبحة بحقّ المسلمين، بدلاً من تسميتها بتحرير المسلمين، كما ظهر التخبط لدى العديد من وسائل الإعلام وضيوفها من المحللين السياسيين والعسكريين، فتارةً ادّعوا بأن معركة الباغوز تحصيل حاصل لصغر حجمها، وتارةً تساءلوا عن سبب تأخر حسم المعركة فيها، متجاهلين أسباب تأخر الحسم الرئيسية، وهي: منح الوقت لخروج كامل العوائل والمدنيين، ومنح فرصة لأعضاء التنظيم ممن يرغب في الاستسلام؛ فضلاً عن ضرورة التعامل بحذر مع كميات الأسلحة والمفخخات التي كان يستعملها التنظيم. وكانت الغاية من كل ذلك هي محاولة تشويه سمعة "قسد"، متجاهلين أن تحرير الباغوز كانت بمثابة "عُقْدَةٍ" تحتاج إلى التمهل في حلها.

لماذا الباغوز

إن اختيار الباغوز لتكون آخر بقعة يحارب فيها التنظيم لم يكن عشوائياً، فهناك العديد من الأسباب التي جعلت منه المعقل الأخير، والخط الدفاعي الحصين له، وهو ما يجهله الكثيرون. وللبحث عن هذه الأسباب وعن أهمية الباغوز لا بد من دراسة ماضي القرية وطبيعتها الجغرافية.

كانت الجغرافيا سبباً رئيسياً لاختيار هذه القرية من قبل التنظيم، وأهم عوامل تحصينه. ولها حصة في التاريخ أيضاً، على عكس ما تم تداوله بدخولها التاريخ إبان سيطرة داعش عليها، فقد شكلت ملاذاً للفارين والمتمردين منذ عهود قديمة بفضل معالمها الجغرافية.

ولتوضيح أهمية الباغوز تم التركيز على النقاط والمسائل التالية:

الباغوز من الناحية الجغرافية:

تَبْعُد هذه القرية حوالي ١١٠ كم شرق دير الزور، وتتبع إدارياً لمنطقة البوكمال التي تبعد عنها بمسافة ٢ كم، على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وتُمثل الحدود الإدارية لمحافظة دير الزور في سوريا مع الحدود الإدارية لمحافظة الأنبار في العراق.

وتُقسّم إلى "باغوز تحتاني" و"باغوز فوقاني" ثم مزرعة "السفافنة"، وتبلغ مساحتها الكلية ٤٥٠٠ هكتار، أما مساحة المخطط التنظيمي فهي ٩٥٠ هكتار.

نهر دورين: تحدّت الكثير من الوكالات عن نهر الفرات كمنفذ لعناصر التنظيم إلى الجهات الأخرى، غربي الفرات أو للعراق، لكن ماذا عن "نهر دورين" الذي لا يقل أهمية عن نهر الفرات؟

هذا النهر هو فرع خاص من نهر الفرات يصل إلى الباغوز، وحسب بعض الافتراضات، فقد أمرت بِشَقِّه "ملكة الباغوز" في الألف الثالث ق.م، كي تمنع مرور الفرات بمملكة الأموريين (ماري حالياً)، وليكون بمثابة الحد الفاصل بين مملكتها والممالك الأخرى، كما استخدمت كوسيلة للاقتراب من "جبل الباغوز" الذي تحصن فيه عناصر داعش في أيامه الأخيرة، ليصب بعدها خارج حدود الباغوز، وما زالت بقايا مجراه قائمة حتى الآن أسفل "كهف باغوز" الشهير الذي توارى فيه عناصر التنظيم.

جبل العرسي: وهو الجبل الذي تردد صداه باسم "جبل الباغوز"، ويقابل مجرى نهر دورين المتصل بحواف البادية مع البوكمال، وقد كان هذا الجبل تحصيناً آخر لعناصر التنظيم، وشكل عقبة لدى قوات سورية الديمقراطية، وصعب الوصول إليهم في البداية.

مغارة التيس: أو "كهوف الباغوز" حسب التسمية الإعلامية لها، عندما تحصن عناصر التنظيم في الكهوف ضمن التلال الصخرية شرق بلدة "باغوز فوقاني"، وهي تقع أسفل الجبل المطّل على بلدة الباغوز.

حسب الروايات المحلية فإن هذه الكهوف لم يلجأ إليها أحد من قبل؛ لما يرتبط بها من قصص وخرافات، ولاعتقادهم بوجود الجن فيها. وكانت تلك القصص تسبب الذعر لسكان المنطقة؛ ومنعتهم من دخول تلك الكهوف. ولا يُستبعد استغلال داعش خوف الناس من الدخول إليها أو الاقتراب منها لاستخدامها أو اللجوء إليها بعيداً عن الأنظار.

إلا أنها، وحسب شهود دخلوا إليها عام ١٩٥٨، عبارة عن مدخل على شكل غرفة صغيرة يطبق عليها الظلام بعد عدة أمتار، وتنتهي بساحة تضم عدة ممرات، وباتجاهات مختلفة، تؤدي إلى اللاتهامية، أما سقفها وجدرانها فقد تم حفرها ببراعة.

الباغوز تاريخياً:

كانت كهوف الباغوز؛ والمغارة التي تم ذكرها ملجأً للثوار وملاذاً لهم للاختباء من أعين الجنود الفرنسيين، كما أنها بحسب بعض المعمرين من القرية، كانت مكاناً آمناً يؤمّه "المجاهدون"، بعد تنفيذهم لهجمات ضد الفرنسيين أثناء وجودهم في المنطقة، وكان الجيش الفرنسي يقصفها بالمدفعية، لصعوبة ملاحقتهم فيها.

يؤكد ما سبق أن طبيعة الباغوز شكلت سلسلة منظمة ومتتالية كونها سهلت عملية التنقل أو الهروب لأية مجموعة سواء كانوا من الثوار أو المتمردين أو الارهابيين، فكل جزء من طبيعته الجغرافية يرتبط بالآخر ومُكمل له، ويؤدي بالنهاية إلى مخرج أخير وهو الكهف أو المغارة. كما يمكن إضافة الناحية التاريخية، وهي أن الباغوز كان ملاذاً وملجأً للثوار أو الفارين، وعليه فإن اختيار التنظيم له ليس وليد الصدفة أو لضرورة ما، بل نتج عن دراية لتاريخه وجغرافيته، الأمر الذي شكل عقبة أمام قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي، وأسهم في تأخير عملية تحريرها.

لعل الكثيرين لم يفكروا بمعنى تسمية الباغوز، فلو تساءل المرء عن أصل تسمية الباغوز، قد يجد أحد الأسباب التي دفعت التنظيم إلى اختيار هذا المكان.

إن إحدى فرضيات تسمية الباغوز أو "بوخاس"، هي أنها مفردة تركية الأصل تعني (المضيق)، ولهذا المعنى دلالة وأهمية تاريخية وجغرافية، حيث يضيق هذا المكان عند بداية البوكمال، وهو يقع بين الجبل ونهر الفرات، ويشكل الطريق الذي يفصل بين الباغوز الفوقاني (قرب الجبل) والباغوز التحتاني (قرب الفرات)، ومن المعروف تاريخياً إن أغلب المعارك قديماً تم اختيار أماكنها في مواقع تطل على ممرات ضيقة، بحيث تُعيق أو

تُعرقل حركة التقدم لأي طرف مُعادي؛ بالإضافة إلى أن هذا الموقع كان يسهّل عملية انسحاب المتحصنين وهروبهم؛ كونه يوصل حواف البادية بمجرى النهر وبعدها بمضبة الباغوز الذي يضم الكهوف.

فمعنى "المضيق" للباغوز يعكس حقيقة تشكّله نظراً لطبيعته الجغرافية، وهي طبيعة "صعبة" نظراً لتحول حركة التنقل بين البر والنهر والجبل عبر المضيق، وطبيعة "سهلة" نظراً لترباط مسارات التنقل دون انقطاع تام، وطبيعة "ساحرة" لجمالية المنظر المتداخل ما بين الصحراء والنهر والجبل.

ومن المعاني الأخرى للفظـة "باخوس"، حسب ما يلفظها أهل المكان، نسبتـه إلى الإله "باخوس"، وهو "إله الكروم والخمر" عند الرومان، وربما في ذلك إشارة إلى التلال التي تزرع بالعنب وتستعمل للخمر.

كما إن العثور على برجـان قائمان فيها من الفترة الرومانية، وواحد آخر يقابلها في مدينة القائم المقابلة لها في العراق، تعطي فرضية استخدامها كنقطة دفاعية خلال تلك الفترة، وتسمية "باخوس" إله الخمر جاءت خلال هذه الفترة.

جميع ما سبق يؤكد أهمية المكان من تضاريس وأثمار، كخط دفاعي مُحصن بطبيعته، ونقطة تواصل عن طريق الربط بين المجاري المائية والجبال والصحراء المفتوحة، وهو ما استخدمه الناس منذ القديم وفي فترات لاحقة، كما إن معنى التسمية جاءت كتأكيد على طبيعته الجغرافية المعقدة بالنسبة لمن لا يعرفها، والسهلة لمن يعرفها.

باغوز نقطة البداية والنهاية للتنظيم

كان عدد سكان الباغوز حوالي ١٦ ألف نسمة، وجمعتها مع العشائر العراقية صلة القرابة، لا يفرق بينهما سوى الأسلاك الشائكة أو السواتر الترابية، وقد أسهمت طبيعة المدينة المشتركة مع العراق في تبادل العديد من المنتجات عن طريق التهريب، إما بممرات برية أو من خلال أنفاق مُجهزة لنقل البضائع، ومن بينها الأسلحة، التي انتعشت حركتها بعد الحرب الأمريكية على العراق عام ٢٠٠٤، واستخدم المكان حينها لنقل عناصر تنظيم القاعدة إلى العراق خلال هذه الحرب.

وبعد حوالي ١٠ أعوام استخدم تنظيم داعش المنبثق من تنظيم القاعدة هذه الأنفاق لنقل مقاتليه إلى سوريا، فبعد سيطرته على أجزاء من محافظة الأنبار عام ٢٠١٤، بدأ بنقل الأسلحة والعناصر منها إلى سوريا تمهيداً لانتشاره فيها، وكانت الباغوز إحدى المحطات الأولى التي استخدمها التنظيم وعمد على تحصينها وتجهيزها

عسكرياً حينها، وقد كشفت القوات العراقية حوالي ١١ نفقاً وبعضها بطول ٣ كم في قضاء القائم غرب الأنبار على الحدود السورية الشرقية وضمن الإطار المحيط بالباغوز، وأكدوا إن هذه الأنفاق تعود للفترة التي سيطر في التنظيم على أجزاء من محافظة الأنبار بين عامي ٢٠١٤ و ٢٠١٧، وإن شبكة الانفاق هذه هي جزء من مجموعة خنادق وأنفاق قديمة، استخدمها عناصر التنظيم للتسلل وتهريب السلاح بين سوريا والعراق، وخط العودة للعبور إلى العراق عند انسحابه.

وهنا يتضح إن التنظيم هيئاً المكان من قبل، فالأنفاق في الباغوز ليست بجديدة، إنما كانت مُجهزة من قبل كممر تهريب، وهو ما يؤكد بأن الباغوز وما يحيط بها من أوائل الأماكن التي بدأ فيها داعش حركته في سوريا، واختارها كنقطة بداية ومنطلق لتغلغله فيها، وكانت نقطة نهاية، وممراً للعودة عند هزيمته في العراق.

ومن الأسباب الأخرى، بحسب المعطيات، يبدو أن التنظيم وجد في الباغوز حاضنة شعبية، فخلال اللقاء مع عدد من عناصر التنظيم، تبين أن أغلب القياديين في الباغوز كانوا من العراقيين (أغلبهم كانوا سابقاً ضباطاً في نظام البعث العراقي)، وكون المنطقة كانت تربطها مع العراق صلة قرابة، فقد كان من السهل عليهم الولوج إليها دون أية شكوك حولهم منذ البداية، والبدء في دراسة المكان وتخطيطه لتكون نقطة بداية، وربما النهاية احتياطاً؛ ليسهل عليهم العودة للعراق.

ما سبق يزيد احتمال اختيار خليفة التنظيم (أبو بكر البغدادي)، وخليته القيادية، هذا المكان، لاستخدامه كمقر رئيسي لإدارة التنظيم طيلة مدة بقائه، وبأنهم انسحبوا منه عند اقتراب هزيمته؛ أي من المحتمل أن الباغوز كانت العاصمة الإدارية والمخفية المصغرة للخليفة ونوابه، أو على الأقل المقر الرئيسي لإقامتهم.

لماذا تأخرت قسد والتحالف في تحرير الباغوز؟

شكلت الباغوز المرحلة الأصعب لقوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي، وأسباب تأخره في تحرير البقعة الأخيرة هذه، التي يمكن تسميتها بـ "نقطة البداية والنهاية"، يعود-بالإضافة إلى ما سبق- لأسباب أخرى عديدة، أهمها:

مدنيون عالقون:

من الأسباب الرئيسية التي أخرجت معركة تحرير الباغوز، كانت ضرورة إجلاء المدنيين العالقين فيها، والتي اضطرت فيها قوات سوريا الديمقراطية لإيقاف القتال، وعقد هُدن مع التنظيم لساعات محدودة، تمهيداً

لخروج المدنيين أو عائلات التنظيم ممن يرغبون بالخروج والاستسلام، وفتح ممرات آمنة بالتزامن - أحياناً - مع الاشتباكات المركزة والدقيقة.

لم يكن خروج المدنيين بالمهمة السهلة، فعملية فرز المدنيين الحقيقيين عن المزيفين منهم كانت بحاجة إلى الدقة والتمهّل، وهي ما أخرت عملية استقبال الخارجين من الباغوز، وهي بدورها أخرت عملية الحسم فيها. كما أن أعداد المدنيين العالقين هناك كانت مفاجئة لكل المتابعين، ولم تكن متوقعة، فقد خرج منها آلاف العالقين خلال فترة قصيرة، وفي بقعة لم تكن مساحتها تزيد عن مئات الأمتار المربعة.

قياديون مطلوبون

مما لا شك فيه أن العديد من قادة تنظيم الدولة الإسلامية، من فئة المؤسسين والمخططين للعديد من العمليات التي تمت؛ بالإضافة إلى المنفذين لها، كانوا قد تسللوا إلى الباغوز كأخر ملاذ لهم، كما أن الكثير من هؤلاء كانوا من المطلوبين الذين حاولت قوات سوريا الديمقراطية وقوات التحالف الدولي الوصول إليهم أحياناً، وعلى رأس القائمة خليفة التنظيم "أبو بكر البغدادي" ونوابه من الخلية الأساسية، فكان السبيل الرئيسي للوصول إليهم تخفيف جِدّة القصف والولوج برباً إلى المكان، وتكثيف البحث سعياً للوصول إليهم؛ بالإضافة إلى إفساح المجال لاحتمال إجراء مفاوضات قد تفضي إلى استسلام "المطلوبين"، ومنح بعض الوقت لخروج المدنيين، مما دفع الاستخبارات في قوات سورية الديمقراطية للعمل على فرز المقاتلين خصوصاً عند ادعاء البعض منهم بأنهم قدموا لغرض التجارة أو العمل. فقد كان من بين الشخصيات التي تمّ كشفها وفق المرصد السوري، قيادي في تنظيم الدولة يدعى (أبو يوسف المغربي) الذي خرج ضمن الدفعات الخارجة في فبراير ٢٠١٩، والتي أكدت المصادر بأنّ (المغربي) كان أحد المساعدين المهمّين في حفر الأنفاق، ومسؤولاً عن توظيف الأسرى في حفر هذه الأنفاق، وقد أكدت المصادر إنّ المغربي كان صاحب شُعبة سيئة وسجّله حافل بالانتهاكات والجرائم ضمن مناطق سيطرة التنظيم، كما ظهر في العديد من الأشرطة المصورة؛ بالإضافة إلى نساء عملن كمقاتلات وخرجن مع المدنيين، وكل هذه الأسباب شكّلت عامل مهم للتأخير في حسم المعركة، بُغية التحقيق والوصول إلى العديد من هذه الشخصيات المطلوبة.

أسرى لدى التنظيم

كان لموضوع الأسرى والمعتقلين لدى تنظيم الدولة الإسلامية، اهتماماً خاصاً لدى قوات سوريا الديمقراطية، حيث كانت سبب المهلة الأخيرة التي منحتها قوات سوريا الديمقراطية والتحالف الدولي لداعش، فالكثير

من الأسرى والمعتقلين لدى التنظيم، منذ بداية تأسيسه، قد تم قتلهم، والبعض الآخر تم نقلهم مرات عدة، فكانت الباغوز الفرصة الأخيرة لتحرير ما تبقى منهم سواء من المقاتلين أو المدنيين، وكانت النتيجة تحرير العشرات من مقاتلي قوات سوريا الديمقراطية في ٢٨ شباط، ممن كانوا في قبضة التنظيم في الباغوز؛ فضلاً عن العديد من الأسرى الإيزيديين وغيرهم من المدنيين، الذين تمكنت قوات سوريا الديمقراطية من تحريرهم.

كانت هذه المهمة عائقاً أضيف إلى الأسباب الأخرى التي أخرجت حسم معركة الباغوز لدى قوات سوريا الديمقراطية، كونها تريتت؛ أملاً في تحرير هؤلاء المدنيين جميعاً. ومن جهة أخرى، فقد اتخذ التنظيم من موضوع الأسرى لديه "ورقة ضغط" للتفاوض مع قوات سوريا الديمقراطية، مما اضطرروا إلى التزام الحيطه والحذر، حرصاً منهم على سلامة المعتقلين والأسرى لدى التنظيم حين تحريرهم منهم.

حقوق الألغام

يبدو أن تنظيم الدولة الإسلامية خطط من البداية لهذه المرحلة فَعَمَدَ إلى اتخاذ التدابير الكاملة للحفاظ على وجوده الأخير، لذلك استعدَّ بكافة امكانيّاته ومعنويّاته لهذه المعركة، والتي كانت بالنسبة له هي المعركة الأخيرة في شرقي الفرات، واختار هذا المكان ليكون ساحة رئيسية للمعركة، نظراً لجغرافيتها. وكان "حقوق الألغام" من التدابير الرئيسية التي اتخذها، فمن خلال المسح الذي أجراه قوات سوريا الديمقراطية، تبين أن داعش سَوَّرَ المنطقة بـ "حقوق ألغام، الأمر الذي صَعَّبَ تقدُّم قوات سوريا الديمقراطية، وكان ذلك أحد أسباب تأخير حسم المعركة فيها.

المفخحات

من التدابير الأخرى التي اتخذها التنظيم لتأخير عملية إنهاءه، كان بتجهيز عربات أو نقاط أخرى بمواد مُتفجرة، ليُصعَّبَ عملية التقدم، ويطيل عمر المعركة. الأمر الذي اقتضى على قوات سوريا الديمقراطية بالتباطؤ في التقدم، والتراجع أحياناً خشية تنفيذ التنظيم لهجمات معاكسة باستخدام عربات مفخخة أو انتحاريين مما يعرض مقاتليها (قوات سوريا الديمقراطية) لخطر هذه المفخحات، لذا اقتصر الأمر في البداية على القصف الجوي بشكل رئيسي.

شبكات الأنفاق

بعضها كان مُجهزاً سابقاً بينها وبين العراق وأعيد تنشيطه، وبعضها الآخر تم تجهيزه حديثاً، وربطها بالشبكة القديمة في المدينة وخارجها، ولأغراض مختلفة، وكانت الغاية منها تحصين مقاتليه، وتسهيل عملية نقلهم؛ بالإضافة إلى نقل أموالهم ووثائقهم وغيرها إلى جهات أخرى. الأمر الذي استدعى من قوات سوريا الديمقراطية التركيز والهدوء أثناء التقدم، كي لا يقعوا في فخ عمليات القنص من قِبل مسلحي التنظيم المتوارين في هذه الأنفاق. وقد وثّق المرصد السوري لحقوق الانسان أواخر يناير / شباط ٢٠١٩ خروج ٣٤٨١٠ شخصاً، من ضمنهم ٥١٠٠ من عناصر التنظيم، كانوا قد انسحبوا نحو الخنادق والأنفاق التي تم تجهيزها في قرى ومزارع الباغوز.

قتال شرس

تساءل الكثيرون عن سبب شراسة قتال عناصر التنظيم في الباغوز؛ لا سيما أن هؤلاء كانوا يدركون أن المعركة محسومة لصالح قوات سوريا الديمقراطية، وإن التنظيم انتهى لا محالة. فقد رفض المئات من مسلحي التنظيم الاستسلام للتحالف، وخاصة الأجانب منهم، ولم يكن أمامهم أي مَنفذ سوى القتال حتى الموت كاتنحاريين، لأن السبيل إلى مناطق أخرى للتنظيم كان مستحيلاً، سواء في الطرف الآخر (العراق) أو الأجزاء الأخرى من سوريا، فجميع المنافذ كانت مغلقة بوجوههم، ولم يكن لديهم من خيار سوى الاستسلام، وهو ما كانوا يرفضونه أملاً بجهنمهم، أو القتال حتى الموت، وهو ما استمروا عليه، وكان السبب في شراستهم في القتال.

الباغوز آخر بقعة للتنظيم في شرق الفرات

بانتهاة معركة الباغوز، أصبح بالإمكان القول أن "عُقْدَة" حسم المعركة فيها قد فُكَّت، فكل ما سبق ذكره من الأسباب أسهمت في تأخير عملية الحسم؛ لأن الباغوز فعلياً كانت كقلعة مُحصّنة، ومُسوّرة بسواتر ترابية، وأليات مفخخة، أما العدد الهائل من الناس الذين خرجوا منها كان كفيلاً بالإجابة عن أسباب وعُقْدَة "التأخير".

لكن الأهم إنّ ما حدث في الباغوز رسم ملامح نهاية التنظيم الإرهابي "داعش"؛ بالإضافة إلى نهاية حقيقية للمأساة التي تعرّض له المدنيون، وخاصة الإيزيديون، من عمليات خطف وذبح واغتصاب، ونهاية للكابوس الذي عاشه كافة السوريون في مختلف المناطق لسنوات عديدة.

المراجع:

الباغوز" .. عروسٌ حائرة في كنف الطبيعة: esyria

مغارة "التيس" .. شهادةٌ على أسطورةٍ بوكمالية!!: esyria

اله وعذارى المعبد والطقوس المأجنة والخنزير، الكتاب المقدس – العهد القديم : سفر المكابيين الثاني،
الفصل / الإصحاح السادس: ahewar

بلدة "الباخوس" .. حكايات النهر والجبل والمغارة: esyria

أنفاق داعش في الباغوز: diyaruna

المرصد السوري لحقوق الانسان: بسبب الألغام المكثفة... قوات سوريا الديمقراطية تتوقف عن التقدم في
مزارع الباغوز والتخوّف من هجمات انتحارية معاكسة يدفعها للتراجع

الكموميّة.. العالمُ الاحتماليّ.. وإشكاليّةُ الوعي

م. إبراهيم حسين أحمد - باحث في مركز الفرات للدراسات

الحديث عن النظرية الكمومية، بعد أكثر من مئة عام على انتشارها، وبالتحديد في عام ١٩٠٠ يشبه الحديث -إلى حدٍّ ما- عن الأمور الخارجة عن العقل، عن الجنّ؛ والأرواح الشيطانية مثلاً، عن أمورٍ ميتافيزيقية أو ما وراء الطبيعة، فهي تصفُ قوانين المنطق بشكل مباشر، وتتعارض مع الفيزياء الكلاسيكية التي نعيشها كل يوم.

هو عالمٌ احتماليٌّ، بعيدٌ عن الواقع الذي نعيشه، مدهشٌ لدرجة الشكِّ في الوعي الإنساني، هل هذا الوعي هو نتيجة الكمّ، أم الكمّ نتيجة له، هذه التناقضات والتخمينات التي أثارها النظرية الكمومية جعلت أحد أهم رواد هذه النظرية، وهو نيلس بور؛ أن يقول: إن أي شخص لم تصدمه النظرية الكميّة فهو لم يفهما بعدُ!

إذن فهي نظريّة تصدّمك، لأنها تجعلك تعيش حالة الاحتمالات، بحيث يفصل بينك وبين عالمها ستار، لا تستطيع أن تتكهّن بما يجري وراءه إلا إذا رفعتَه!

ولكي نبدأ بوضع فكرة النظرية الكمومية، يجب أن نشرحها فيزيائياً أولاً، ثم ننعطف إلى علاقتها بالفلسفة وقوانين المنطق الأرسطي، وفي كل ذلك ستجد العجب العجيب، والمتعة الفكرية في نفس الوقت.

الفيزياء الكلاسيكية والفيزياء الحديثة:

الفيزياء تنقسم باختصار إلى قسمين أساسيين، وهما الفيزياء الكلاسيكية؛ والفيزياء الحديثة، وتنقسم الفيزياء الحديثة بدورها وبشكل خاص إلى **فيزياء الكم**؛ كما تشمل النظرية النسبية. ويمكن اعتبار أن الفيزياء الحديثة هي فيزياء القرن العشرين والواحد والعشرين.

وتقوم الفيزياء الكلاسيكية التي وضعها العالم المعروف نيوتن وعلماء آخرين ك ماكسويل؛ بدراسة وتفسير حركة وتصرفات الأجسام الكبيرة (Macro particles)مثل: الجزيئات المادية والأحجار وأجسامنا والسيارات والسفن وأيضاً الكواكب والنجوم والمجرات إلخ. يعني جميع الأجسام التي حجمها أكبر من حجم الذرة.

ولكن علماء الفيزياء وجدوا أن قوانين الفيزياء هذه لا تنطبق على الجسيمات دون ذرية مثل البروتونات والنيوترونات والإلكترونات وغيرها .. ووجدوا أن تلك القوانين عاجزة عن تفسير مختلف الظواهر الطبيعية التي تحدث في هذا العالم دون ذري أو (Micro particles)فبدأ العلماء بطرح مجموعة من الفرضيات واختبارها على الجسيمات التحت ذرية الى أن توصلوا الى نظرية شاملة تدرس وتفسر تلك الظواهر اعتماداً على قوانين مختلفة تماماً لقوانين الفيزياء الكلاسيكية بل ومخالفة للمنطق والمبادئ العقلية أحياناً وأسماها النظرية الكمية أو ميكانيكا الكم ومن هنا جاءت فيزياء جديدة مختلفة تماماً عن الفيزياء الكلاسيكية وهي فيزياء الكم (Quantum Physics).

إذن فيزياء الكم هي التي تدرس وتفسر حركة وتصرفات الجسيمات الدقيقة مثل: البروتونات والنيوترونات والإلكترونات والكواركات؛ يعني جميع الأجسام التي حجمها أصغر من حجم الذرة.

وقبل أن نبدأ بشرح مبدأ هذه النظرية يجب أن نؤكد أن النظرية الكمومية هي مجرد نظرية علمية، لأنه ولحد الآن لم تستطع نظرية الكم تفسير كل الظواهر التي حدثت وتحديث في العالم تحت الذري فهي لحد الآن تفشل في تفسير بعض الظواهر، لذلك فهي مجرد نظرية ولم ترتق بعد الى أن تكون حقيقة علمية، ولكنها طبعاً نظرية قوية جداً وتفسر أشياء كثيرة جداً وبطرق أغرب من الخيال كما سنرى.

ونستطيع القول إن النظرية الكمومية بدأت مع تفسير سلوك الضوء، فبعد اكتشاف المصباح الكهربائي من قبل العالم أديسون، لاحظ العلماء أنه كلما زادت سخونة فتيل المصباح يتغير لون الضوء من الأحمر إلى البرتقالي ثم الأصفر؛ حتى يصل إلى اللون الأبيض^١، وهذا الأمر كان مجهولاً وقتها، وقد تولى العالم ماكس

^{١٨} يتم تفسير إنتاج الضوء عند التسخين أنه عندما تسخن جسمًا ما، فإن الإلكترونات داخل الذرة تصبح محفزة؛ فتقفز من مدار ثابت إلى آخر، وكل فقرة نزولاً ستبعث الطاقة على شكل ضوء بموجات محددة، وهذا ما يفسر تسخين الأجسام والحصول على توهج ضوئي بعدة ألوان.

بلانك (الذي طرح النظرية الكمومية عام ١٩٠٠) تفسير هذه الظاهرة، وقد كان السؤال، لماذا لا يتحول الضوء إلى اللون الأزرق، وما بعد الأزرق كالأشعة فوق البنفسجية، طالما أن الفوتيل يتم تسخينه على مراحل؟ وظهرت هنا مشكلة الجسم المشع للحرارة، فعندما قام العلماء بتسخين جسم، فإن أقصى ما يصل إليه لون الجسم هو الأبيض، وقد وجدوا نفس السلوك في الشمس أيضاً رغم أن حرارتها عالية جداً (إلا القليل من الأشعة فوق البنفسجية)، هذه المسألة أربكت علماء القرن التاسع عشر لدرجة أنهم أسموها بكارثة الأشعة فوق البنفسجية.

في تجربة أخرى، تُسمى المكشاف الكهربي ذو الورقات الذهبية، فعندما يتم شحن الورقتين بالإلكترونات؛ تتباعدان، وعند تركيز ضوء أصفر أو أبيض على المكشاف لا يحدث أي تغيير، لكن عند تسليط ضوء أزرق خاص غني بالأشعة فوق بنفسجية على المكشاف، تنطبق الورقات، وكأن الضوء قام بتفريغ الإلكترونات الموجودة في الورقتين، هذه الظاهرة سميت فيما بعد بظاهرة التأثير الكهروضوئي.

حتى ذلك الوقت؛ أي في عام ١٩٠٥ كان العلم يعتبر أن الضوء عبارة عن موجات، والموجة إذا زادت طاقتها يصبح لها قدرة أكبر، حيث أن طاقة الموجة هي حاصل جداء التردد بنابت بلانك، لكن مع ذلك لم تستطع هذه الطاقة (والحديث هنا عن الضوء الأبيض) أن تحرر الإلكترونات من الورقتين الذهبيتين، رغم أنه له تأثير محدود في تجارب أخرى.

وفي نفس العام دخل العالم الألماني ألبرت أينشتاين على الخط، وجاء بفكرة ثورية، حيث اعتبر الضوء عبارة عن جسيمات، وأن تسليط هذه الجسيمات على المكشاف الكهربائي هي التي اصطدمت بالإلكترونات وقامت بتحريرها. هذه الجسيمات عرفت فيما بعد باسم الفوتونات، وقال أينشتاين بأن شعاع الضوء هو المسار الذي يسلكه الفوتون. وأن فوتونات الضوء الأحمر يحمل كمية قليلة جداً من الطاقة وذلك لأن الضوء الأحمر له تردد منخفض، لذا حتى الضوء الأحمر الشديد السطوع والذي يحمل الكثير من الفوتونات لا يستطيع تحرير أي إلكترونات من سطح المعدن. أما فوتونات اللون الأزرق الغني بالأشعة فوق البنفسجية فتحمل طاقة أكبر لأن الأشعة فوق البنفسجية لها تردد أعلى. كان هذا الإنجاز الذي قدّمه أينشتاين بتفسيره لظاهرة التأثير الكهروضوئي هو سبب حصوله على جائزة نوبل للفيزياء، على عكس توقع البعض أنه أخذ الجائزة عن وضعه للنظرية النسبية، لأن النسبية وقتها كانت مجرد نظرية، ولم تكن حقيقة علمية، بمعنى آخر هي لم تقدّم شيئاً للبشرية!

هذا التفسير قام بحل مشكلة كارثة الأشعة فوق البنفسجية أيضاً، حيث أن هذه الأشعة تستلزم طاقة أكبر لإنتاجها. لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر بـ ١٠٠ مرة من الطاقة اللازمة لإنتاج الضوء الأبيض، وبذلك تكون الأشعة فوق البنفسجية تحمل طاقة أكبر بحيث كانت قادرة على تحرير الإلكترونات من الورقتين الذهبيتين. بهذا التفسير العبقري من اثنتان استطاع أن يحل كل المشاكل المتعلقة بالضوء، لكن ذاك التفسير أنتج معضلات أخرى.

كيف للضوء أن يكون ذو طبيعة موجية وجسيمية في نفس الوقت؟

بعدها جاء العالم لويس دبروي الفرنسي وقال إن فكرة أن الضوء ذات طبيعة موجية وجسيمية؛ **تنطبق في نفس الوقت على الإلكترونات**، بل يجب أن تنطبق على كل الجسيمات ما دون ذرية. وقد تم البرهنة على ذلك عن طريق نفس تجربة الشق المزدوج التي سنشرحها بعد قليل.

والتطورات والتجارب التي أتت بعد ذلك جعلت العقول في حيرة، خاصة تجربة الشق المزدوج، والتي أعطت تعريفاً فلسفياً لميكانيكا الكم وهو أنها **تأثير الوعي على عملية الرصد!** هو تعريف غريب جداً ولكن هذا ما يحدث.

سنبدأ شرح النظرية مع تجربة علمية تعتبر من أهم التجارب التي بنيت عليها ميكانيكا الكم وهي تجربة الشق المزدوج.

شرح تجربة الشق المزدوج (Double Slit) :

هذه التجربة قام بها العالم كلاود جانسون من أجل معرفة سلوك الإلكترونات والتي هي جسيمات أو (particles) يعني مثل حبات الرمل) هل هي دائماً تتصرف كجسيمات أم أنها يمكن أن تتصرف كموجات ((waves، كأموج الصوت أو أمواج البحر، ولكي نبسط هذا المفهوم دعونا نعطي مثال بسيط قبل أن نستكمل شرح التجربة .. تصوروا معي أن لدينا كرات صغيرة نقوم برميها على جدار به فتحتان بحيث يمكن لكل فتحة تمرير كرة واحدة فقط في كل رمية؛ ومن خلف الفتحتين لدينا جدار حساس؛ بحيث لو دخلت أي كرة من أي فتحة لا بد أن تضرب في هذا الجدار وتترك أثراً عليه (على شكل نقطة) وبالتالي إذا قمنا برمي الكرات باتجاه الشقين أو الفتحتين فإنه سوف يرسم على الجدار الخلفي

خطان عموديان من النقاط من أثر ضربات الكرات؛ وهذا ما يحدث بالفعل في حالة الكرات (الجسيمات) وهذا القانون سارٍ على كل الجسيمات (particles) فهو ظاهرة طبيعية جداً، بينما في حالة قيامنا بنفس التجربة على الأمواج (waves) ولتكن مثلاً أمواج الماء فنقوم بدفع الأمواج لكي تخرج من الشقين وتضرب في الجدار فهنا سوف يظهر لنا على الجدار مجموعة من الخطوط العمودية من أثر ضربات الأمواج؛ لأن كل موجه كما تعلمون لديها ذروة وهذه الذروة تمثل قوة الموجة (بحيث لو لمست الجدار تترك أثراً عليه) ولكن لأن هناك شقين فإن الأمواج التي ستخرج من كل شق سوف يحدث لها تداخل (تكامل وهدم) وبالتالي كل موجه تدخل من الشقين سوف يتولد عنها عدة موجات بسبب ظاهرة التداخل الموجي وبالتالي سوف تضرب هذه الأمواج على الجدار وتترك كل موجة أثراً على الجدار في شكل خط عمودي؛ وبالتالي سوف يظهر لدينا على الجدار مجموعة من الخطوط العمودية المتوازية وهذا القانون سار على كل الأمواج فهو ظاهرة طبيعية جداً بسبب خصائص الأمواج .

والآن نعود لتجربة كلاود جانسون والتي قام فيها بتطبيق نفس هذه التجربة على الإلكترونات:

بنفس الطريقة؛ لدينا جدار به شق مزدوج ومن خلفه شاشة تسجيل (شاشة تظهر أثر الإلكترون عند سقوطه عليها) ولدينا جهاز يقوم بقذف الإلكترونات باتجاه الشق المزدوج وطبعاً كلنا نعلم أن الإلكترونات هي جسيمات مادية (مثل الكرات) وبالتالي النتيجة المتوقعة في كل الاحوال هي أن تسجل لنا الشاشة خطان عموديان من أثر سقوط الإلكترونات الداخلة من الشقين عليها .. ولكن النتيجة لم تكن كذلك، ففي حالة دخول إلكترون عبر شق مزدوج بدون رصد فسوف يشكل لنا حالة تداخل (دالة موجية) على الشاشة، بينما إذا قمنا برصد هذا الإلكترون الداخل عبر شق مزدوج فإنه سوف يتجسد في شكل جسيم ويترك أثره في شكل نقطة على الشاشة.

إذاً رصد أو مراقبة الإلكترونات جعل دالتها الموجية تنهار أي أن عملية رصد الإلكترون حوّلت الإلكترون من موجات الى جسيمات!

أو بعبارة أدق عملية مراقبة الإلكترون جعلته يتخذ سلوكاً واحداً فقط من بين كل الاحتمالات التي كان يسلكها قبل عملية الرصد (المراقبة) وبالتالي فالنتيجة أن الإلكترون إذا لم تتم مراقبته سوف يكون في أي مكان ممكن أن يكون فيه في نفس الوقت!

وبتعبير أبسط، عندما يسلك الإلكترون سلوك الموجة هذا يعني أنه يجب أن يتواجد في كل مكان في نفس الوقت حتى يشكّل حالة التداخل على الشاشة، ومعنى أبسط أيضاً أن كل إلكترون يمر في الشقين بنفس الوقت ويتداخل مع نفسه ليشكل حالة التداخل. وهذا ما يناقض قوانين المنطق الأرسطي تماماً، كما يناقض العقل، فلو قسنا الأمر على الانسان، لا يمكن لشخص أن يتواجد في مكانين بنفس الوقت، أما في عالم الكم فهذا ممكن.

هذه الظاهرة "وجود الإلكترون في كل مكان" يسميها علماء ميكانيكا الكم بظاهرة أو حالة (Superposition التراكب الكمي).

ومن هنا جاءت فكرة نظرية الأكوان المتعددة التي تقول بأنه يوجد عدد لا نهائي من الأكوان .. وفي كل كون هناك أحد الاحتمالات الممكنة لكل موجود في كوننا هذا (أو بعبارة أخرى؛ كل ما كان ممكن أن يحدث هنا في كوننا هو يحدث في أحد هذه الأكوان اللانهائية).

إذا الإلكترونات تستطيع أن تغير سلوكاتها بحسب الرصد وتشكل في صورة احتمال واحد فقط معين لمجرد رصدنا لها وبحسب نظرية الكم فإنه لو استطعنا التحكم في طريقة رصدنا ومراقبتنا للإلكترون سوف نستطيع إجباره على اتخاذ سلوك معين أو سوف نستطيع جعل الإلكترون يتجسد في الاحتمال الذي نريده!

بالنسبة لتجربة الشقين هناك تفاصيل أخرى لمن يريد أن يتوسّع، حيث تبين إنه يمكن التأثير حتى على ماضي الإلكترون بنفس التجربة؛ مع بعض التطوير في أدواتها.

الوعي والنظرية الكمومية:

الوعي الإنساني ما زال حتى الآن لغزاً من ألغاز العلم، فهو بتعريف بسيط الإحساس الداخلي بالوجود، فأنت تشعر بوجودك، تشعر بوجود الأشياء من حولك. لم يفهم العلماء حتى هذه اللحظة جوهر الوعي الإنساني، فمنهم من قال إن الوعي هو الحالة العقلية التي يتم من خلالها إدراك الواقع والحقائق التي تجري من حولنا.

ومنهم من قال إن الوعي كلمة تعبر عن حالة عقلية يكون فيها العقل بحالة إدراك وعلى تواصل مباشر مع محيطه الخارجي عن طريق منافذ الوعي التي تتمثل عادة بحواس الإنسان الخمس.

ومنهم من قال أن الوعي مستويات، فقد تكون بعض الحيوانات - حسب تعقيد تطورها - لها وعي محدود بما حولها.

واعتبرت الفلسفة أن الوعي هو جوهر الإنسان وخاصيته التي تميزه عن باقي الكائنات الحية الأخرى، حيث إن الوعي يصاحب كل أفكار الانسان وسلوكه.

وبالنسبة للنظرية الكمومية فقد تتالت **التكهنات الفلسفية** وارتباطها بالوعي البشري بعد التجارب التي أجرتها العلماء، حيث يقول أحد علماء فيزياء الكم في محاضرة؛ معلقاً على تجربة الشق المزدوج: يمكن لنا أن نستخلص من كل هذا حقيقة واحدة وهي أن "**الواقع من صنع وعينا وعقلنا**"، وذلك تعليقاً على التجربة أن رصدنا للإلكترون هو ما جعله يتخذ سلوك معين (موجي أو جسيمي).

وبالتالي كل ما نراه ونسمعه ونحسّه وتذوقه ونشعر به في هذا الكون هو في الحقيقة مجرد أشياء يصنعها عقلنا ووعينا من بين ملايين أو ملايين أو ما لانهاية من الاحتمالات لوجود أشياء أخرى كانت محتملة الحدوث في واقعنا غير ما حدث بالفعل وأدركناه نحن في هذا الواقع !!

إذا فالكون (وكل ما فيه، سواء أنا أو أنت أو أي شيء كان) هو عبارة عن احتمالات كثيرة ولا نهائية غير مادية (أمواج - طاقة) ورصدنا للكون يجعل هذه الاحتمالات تتجسد في احتمال مادي واحد، وهذا الرصد أو المراقبة أو المشاهدة أو التعاطي يكون **بالعقل ويدرك بالوعي** وبالتالي فإن عقلنا هو المتحكم في كل الواقع الذي نعيشه!

قرب انشتاين تلك الفكرة باحتجاجه على مفهوم النظرية الكمومية بقوله: أنا لا أحبذ أن يكون القمر غير موجود عندما لا ننظر إليه، مشيراً إلى علمية الرصد في النظرية الكمومية، لكن هذا ما يحدث فعلاً عندما اسقاط هذه النظرية على الواقع المعاش.

عند مراقبة مسار الجسيمات حتى لو كانت هذه المراقبة لا تزعج حركة الجسيمات (بمعنى أن نوحى لها أننا لا نراقبها)، فإننا نغير النتيجة. يقول الفيزيائي باسكال جوردان (Pascual Jordan) الذي عمل مع المعلم الكمي نيلز بور (Niels Bohr) في كوبنهاغن في عشرينيات القرن الماضي: إن المراقبة لا تزعج ما يجب قياسه فحسب، بل تتجه، نحن نجبر الجسيم الكومومي على اتخاذ موقف محدد، بعبارة أخرى نحن نتج نتائج القياسات بأنفسنا.

العلاقة بين الناظر والمنظور إليه في نظرية كوانتم

في كتابه مانيفستو الحضارة الديمقراطية، يذكر الفيلسوف عبد الله أوجلان^{١٩} أساليب الوصول إلى الحقيقة، وقد بدأ تاريخياً بالأساليب التي أثرت في البشرية؛ والتي سعت من خلالها إلى الحقيقة، منها الميثولوجيا، والدين، والعلم.. إلخ.

وعند تناوله للعلم كأسلوب للبحث عن الحقيقة، تناول مفهوم النظرية الكمومية بعين الناقد، فهو يرى بأن: (البحث في المادة داخل الإنسان هو الأسلوب الأقرب إلى الصحة. ولكن؛ يبدو من غير الممكن الوصول إلى التفسير الأقرب إلى الصحة للمادة داخل مختبرات الحداثة المعزولة بإحكام. في حين أن العلاقة بين الناظر والمنظور إليه في فيزياء كوانتم لا تعترف إطلاقاً بالقياس الأكيد المجزوم به. فمثلما يُجري الناظر تغييرات على المادة بمقدور المنظور إليه أيضاً إفلاتُ نفسه من عين الناظر ضمن شروط المختبرات).

طبعاً هو يقصد علاقة الوعي بالنظرية، فالعالم الاحتمالي للنظرية الكمومية، يجعل من الصعب تحديد حالة جسيم معين، والنظرية الكمومية غير قادرة على تحديد الإدراك الصحيح لدى الانسان، لأنه وكما صار معروفاً، الناظر يمكن أن يجري تغييرات على المادة عن طريق الرصد (عند رصد إلكترون تنهار دالته الموجية ويتحول إلى جسيم)، كما أن المنظور إليه وهو الإلكترون مثلاً (حتى لو قمت بخداعه؛ كأن توحى إليه بعدم المراقبة) يعرف مسبقاً أنك تحدعه وتراقبه فيسلك سلوك الجسيم، ويفلت من الناظر أو المراقب.

لذا يجد أوجلان أنه ما من مختبرٍ أعظم وأفضل إحصائياً من الإنسان، والإدراك الصحيح غير ممكن لدى الانسان إلا بالاستبطان ((Introspection، وأن مكان المبادئ الأساسية فيما يخص الانسان موجوداً في الإدراك الحسي (Perception).

والاستبطان هي عملية مراقبة الشخص لعملياته العقلية بغية استكشاف القوانين التي تحكم العقل، منها التأمل مثلاً، كما أن الإدراك الحسي هي عملية تأويل الإحساسات تأويلاً يزودنا بمعلومات عما في عالمنا الخارجي من أشياء، أو هو العملية التي تتم بها معرفتنا لما حولنا من أشياء عن طريق الحواس، كأن أدرك أن

^{١٩} قائد كردي غني عن التعريف، له كتب كثيرة نضالية، ثورية، فلسفية، ومانيفستو الحضارة الديمقراطية عبارة عن

خمس مجلدات كتبها داخل سجن إمرالي بتركيا الذي لا زال مسجوناً فيه منذ ١٩ عاماً.

هذا الشخص المائل أمامي أستاذ في الفلسفة، وأن ذلك الحيوان الذي أراه هو قط، وأن هذا الصوت الذي أسمع هو صوت طائرة، وأن هذه الرائحة التي أشمها هي رائحة العطور.

تكهنات مستقبلية للنظرية الكمومية:

من إحدى التكهانات المستقبلية للنظرية الكمومية هو تساؤل العالم روجر بنروز، ماذا لو كانت هناك هياكل جزئية في أدمغتنا قادرة على تغيير حالتها استجابة لحدث كمومي واحد؟ وهل يمكن لهذه التراكيب أن تتبنى حالة التراكب الكمي تمامًا مثل الجسيمات في تجربة الشق المزدوج؟ وهل يظهر التراكب الكمي في الطرق التي يتم فيها تحفيز الخلايا العصبية للتواصل عبر الإشارات الكهربائية؟

وقد قال أدريان كينت (Adrian Kent) من جامعة كامبريدج أحد أكثر فلاسفة الكم احترامًا: (أؤمن بنسبة ١٥% أن شيء ما في الوعي على وجه التحديد يسبب انحرافات في نظرية الكم، وربما أن هذا سيتم الكشف عنه تجريبيًا خلال السنوات الخمسين المقبلة). وإذا حدث ذلك فهذا سيغير نظرتنا حول كل من الفيزياء والعقل، وهذه فرصة تستحق الاستكشاف.

كل ما قيل هو مجرد تكهنات، فلا أحد يستطيع اليوم أن يجزم بتأثير الوعي على النظرية الكمومية أو العكس. لأن كلاهما حتى هذه اللحظة يعتبران ألغازاً تحتاج إلى حلول.

النقل الآني (Teleportation) في النظرية الكمومية، والتشابك الكمومي Quantum Entanglement:

مصطلح النقل الآني جاء من كلمتين الأولى اتصالات: telecommunications؛ والنقل: transportation، وقد جاء بالأصل من محيطة كتاب روايات الخيال العلمي، أو يمكن القول إنهم من تنبؤوا به، وأوضح مثال هو سلسلة أفلام حرب النجوم، ففي هذه السلسلة ينتقل الأبطال ضمن مجرات مختلفة تبعد عن بعضهما البعض ملايين السنوات الضوئية، فكيف فعلوا ذلك؟

نحن الآن أحد أبطال سلسلة حرب النجوم، ونريد السفر إلى مجرة أخرى بهدف انقاذ أحد الأبطال الآخرين، فما لنا إلا أن نتوجه نحو غرفة تشبه المصعد، وبعد أن ندخل الغرفة ونضغط على الزر الأحمر الكبير، تبدأ أصوات عالية بالهدير، ويبدأ شعاع ليزر بمسح جسدنا من الرأس حتى القدم، لنبدأ بعدها بالشعور بذرات

جسمنا تتدمر الواحدة تلو الأخرى، ومن ثم نغيب عن الوعي قليلاً لنجد أنفسنا أو (نسخة عنا ربما) بعد ذلك في غرفة أخرى ولكن في المجرة الهدف.

إذا الانتقال الآني، ليس انتقالاً بالمعنى المعروف للكلمة، وإنما هو أقرب إلى **تدمير نسخة وإنشاء نسخة** أخرى **طبق الأصل عنها** في المكان الهدف، كما نفعل يومياً على حواسبنا، ولكن الفرق أن البشر ليسوا ملفات حاسوبية، بل هم عبارة عن كميات هائلة من الذرات، وهذا ما لم يأخذه كتاب الخيال العلمي بعين الاعتبار.

في ميكانيكا الكم، وتبسيط محلّ اكتشف العلماء أن إلكترونين أو فوتونين إذا كانا من نفس المنشأ؛ يكونان متشابهان كمومياً، فإن أثرت على أحدهما، فإن هذا التأثير سينتقل إلى الإلكترون الآخر **في لا زمن؛** حتى لو كان على مسافة ملايين السنوات الضوئية.

إذن فكل إلكترون في جسدك وكل بروتون أو أي جسيم مادي، له جسيم آخر متشابك معه كمومياً.

إحدى التجارب التي قام بها فريق بحث في جامعة جنيف؛ يقوده الفيزيائي السويسري نيكولاس جيزين عام ٢٠١٥؛ تمثّلت في إصدار فوتونين من **نفس المنبع الضوئي** وحصل بينهما تشابك كمي في محملين مختلفين فتم وضع الفوتون الأول "أ" في أسلاك من الألياف البصرية بينما حُبس الثاني "ب" داخل تركيبة بلورية. وتم إصدار فوتون ثالث وهو "ت" في الاتجاه المعاكس للفوتون "أ" داخل سلك الألياف البصرية ليصطدم به ويتحطم كليهما. لكن الغريب هو ملاحظة أثر الاصطدام الذي حصل للفوتون "أ" على الفوتون "ب" رغم وجوده على مسافة ٢٥ كلم.

وحتى نفهم بالضبط ما علاقة النقل الآني بميكانيكا الكم سوف نعود قليلاً بالزمن لتتعرف على تجربة تدعى (EPR) الأحرف الثلاثة الأولى لأسماء كل من ألبرت أينشتاين، وبرويس بودولسكي، ونيثن روزن، التي أوجدوها لقتل فكرة إدخال الاحتمالية إلى الفيزياء مرة ولالأبد، لأن أينشتاين لم يكن مقتنعاً بالاحتمالية، وكانت جملته المشهورة: **إن الله لا يلعب النرد؛** ناتجة عن عدم قناعته، ولعبة النرد احتمالية كما هو معروف.

تقوم التجربة **التخيلية** التي قاموا بها على وجود تناغم بين الكترينين، فإذا اهتزا من البداية بتوافق، فيمكنهما أن يظلّا في حالة من التناغم الموجي مهما كانت المسافة التي تفصل بينهما، حتى لو بلغت عدداً من السنين

الضوئية، وعلى الرغم من المسافة الكبيرة إلا أن هناك موجة شرودينغر غير المرئية تربط بين الالكترين كالحبل السري، ولو حدث شيء لأحد الإلكترونين فسينتقل بعض المعلومات فوراً إلى الالكترين الآخر.

والتجربة هذه كانت تخيلية ذهنية بالنسبة للعلماء الذي قاموا بها، وكانت النتيجة هو انتصار الكمومية، ووقتها قال اينشتاين مستغرباً: **كأنه تأثير شعبي عن بعد**. فبنظر أينشتاين لا يمكن لشيء أن ينتقل في الكون بسرعة أكبر من سرعة الضوء. لكن ظهر أن هذا ممكن، وقد تم إثبات هذه التجربة عملياً عندما أجريت في الثمانينات في فرنسا.

النقل الكمومي في أيامنا هذه لا يمكن أن يُطبّق على الأجسام الكبيرة، كالكائنات الحية وما هو أكبر من ذرة؛ ولا حتى بعض أنواع الذرات، فالإنسان المتوسط الحجم مثلاً يحتوي على أكثر من مليار مليار ذرة. وعند نقل ذرة واحدة فقط فأنت بحاجة إلى مسح المحتوى المعلوماتي لكل مكوّن داخل الذرة (إلكترونات وبروتونات وكواركات).

استطاع العلماء فقط أن يتقلوا ذرات سيزيوم وريبيديوم، كما قاموا بنقل فوتون لمسافة معينة كمومياً، واستطاع علماء من استراليا نقل شعاع ليزر على مسافة أمتار والنقل هنا كما قلنا ليس له علاقة بفيزياء نيوتن والتي تقول أن أي جسم تريد نقله تحتاج إلى قوة لدفعه. إنما النقل هنا يعني أن تعدم فوتون، وتخلقه في مكان آخر! وهذا من أغرب خصائص النظرية الكمومية.

أما على مستوى انسان، فما سيحدث هو موت هذا الانسان، وبصورة أدق تدمير ذراته الواحدة تلو الأخرى، ثم ظهور المحتوى المعلوماتي لجسمه في مكان آخر، أو يمكن القول نسخة طبق الأصل عن هذا الانسان ولكنه ليس ذات الانسان، وهذا ما سيقودنا إلى سؤال فلسفي مهم، فمن هذا الذي ظهر في النقطة الهدف؟ هل هو ذات الانسان الذي انطلق في البداية أم لا؟

تطبيقات النظرية الكمومية، والنظم البيولوجية:

النظرية الكمومية مع عدم قدرتها على تفسير كل شيء، لكنها في نفس الوقت أعطت البشرية تقنيات هائلة، فالمصباح الكهربائي، وكل الأدوات الإلكترونية من هواتف، وأجهزة التلفزة، وحواسيب محمولة وغير محمولة، وأشعة الليزر، والأجهزة الطبية الحديثة؛ وجميع النعم التي تعيشها الآن هي من إنجازات هذه النظرية، والحديث جارٍ الآن عن بناء الحاسب الكومومي، والذي إن تم إنشائه فستكون الحواسيب الحالية بمثابة العربة

البخارية أمام السيارات ووسائل النقل الحديثة؛ بل أكثر من ذلك، حيث ستزيد سرعته ملايين المرات عن الحواسيب الحالية الفائقة السرعة.

من الناحية البيولوجية فقد وجد باحثون على آثار كمومية على الكائنات الحية؛ حيث تشير الأدلة أن النظم البيولوجية تستخدم ظواهر ميكانيكا الكم في عدة جوانب، عملية البناء الضوئي على سبيل المثال حيث تساهم التأثيرات الكمية على تحويل أشعة الشمس لصنع السكريات في عملية التمثيل الضوئي، لاحظ العلماء أيضاً أن الطيور المهاجرة لديها بوصلة كمية خاصة تمكنها من استغلال المجال المغناطيسي للأرض والملاحظة، كما أن حاسة الشم لدى الإنسان تستند على إحدى أهم خصائص ميكانيكا الكم. فقد كان يُعتقد أن حاسة الشم تعتمد على شكل الجزيئات، لكن النظرية الجديدة التي وضعها العالم لوكا تورين، تقول إن اهتزازات الجزيئات هي المسؤولة عن حاسة الشم، واختلاف الاهتزاز يؤدي إلى اختلاف الرائحة. ختاماً.. هناك من يقول لا يمكننا فهم الحياة دون فيزياء الكم، وقد يكون هذا الكلام صحيحاً، فهي داخلة في كل شيء وقد يكون المستقبل لها، لأن العلماء حتى هذه اللحظة لم يفسروا إلى القليل النادر من جوانب هذه النظرية.

المراجع:

- أنا أصدق العلم: العلاقة الغريبة بين الدماغ البشري وفيزياء الكم
- عدة مقالات على موقع الباحثون السوريون:
- الحلقة السادسة- عالم ميكانيك الكم العجيب ١
- موقع شباب ويب: ميكانيكا الكم | شرح شامل ومبسط لنظرية الكم الفيزيائية
- الجزيرة نت: الانتقال الآني هل هو ممكن؟
- مانفيسستو الحضارة الديمقراطية .. المدنية : عبد الله أوجلان.

العشرات من مقاطع الفيديو لعلماء مختصين:

- أسرار فيزياء الكم (١): كابوس أينشتين: youtube
- تأمل معي (٢٥) نظرية الكوانتم: أغرب وأدق ما في الفيزياء: youtube
- ميكانيكا الكم | ١ | الواقع الوهمي - كيف بدأ الكم؟! youtube
- كيف يعرف الالكترون أنك تراقبه؟ - دكتور كوانتم: youtube

